مجلد ٥ — عدد ١٧

فبراير ١٩٤٧

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

يوسف كرم

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط

كتاب يقع فى ٢٦٨ صفحة

الثمن ٥٠ قرشاً (البريد المسجل ٥٦ مليما وللخارج ٦٨ مليما)



ثلاثون جنيهاً للفائز الأول في مسابقة الترجمة

تجرى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية مسابقة للترجمة يقدم لها الأدباء والكتاب قبل يوم ٢٠ فبراير ١٩٤٧ ، ترجمات تتوفر فيها الشروط الآتية :

أولا : يجب أن تكون القطعة المترجمة نثرية إما من الأدب الانجليزى ، أو من الأدب الافرنسى ، وأن تكون من أدب القرن التاسع عشر أو أدب القرن العشرين .

ثانيا : يذكر اسم المؤلف والمرجع الذى أخذ منه المترجم ، وترسل نسخة مطبوعة من الأصل المترجم عنه .

ثالثا : يجب أن لا تزيد الترجمة العربية على ألف وخمسمائة كلمة وأن لا تقل عن ستمائة كلمة .

رابعا: ترسل المقطوعة مطبوعة على أربع نسخ على أن لا يذكر المترجم اسمه على هذه النسخ بل يرفق اسمه وعنوانه مكتوبين على ورقة منفصلة .

خامسا : تبقى القطع المترجمة الفائزة ملكا للاذاعة مدة ثلاثة أشهر من تاريخ إعلان نتائج المسابقة وبعد ذلك يحق لأصحابها التصرف بها .

سادسا : تقبل القطع المترجمة حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٤٧ .

سابعا : ترسل القطع المترجمة إلى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية — يافا — فلسطين ، برسم مسابقة الترجمة .

ثامنا : تعلن اللجنة القطع الفائزة بالترجمة فى جلسة مذاعة يوم الجمعة ٢٨ مارس (آذار) سنة ١٩٤٧ .

تاسعا : توزع الجوائز كما يلى :

للفائز الأول : ٣٠ (ثلاثون جنيها فلسطينيا)

للفائز الثانى : ١٥ (خمسة عشر جنيها فلسطينيا)

للفائز الثالث : ١٠ (عشرة جنيهات فلسطينية)

LA REVUE DU CAIRE

REVUE DE LITTERATURE ET D'HISTOIRE

SOMMAIRE DU NUMERO DE JANVIER

VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITQUE ET DE LITTERATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DES SEPTIÈME ET HUITIÈME CAHIERS

Octobre 1946 — Janvier 1947

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها . يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير

طه حسين

مجلد ٥



القاهرة ١٩٤٧

الكاتب المصرى

ربيع الأول ١٣٦٦ فـبراير ١٩٤٧

السنـة الثانيـة مجلد ٥ — عدد ١٧

ما وراء النهر (١)

وأنت بالطبع عجل ، تريد أن ترى صاحب القصر . وأنا مثلك عجل أريد أن أراه ؛ لأن الأمد بينه وبينى قد بعد وأسرف فى البعد . والشاعر نفسه يريد أن يلقاه منذ سمع من نعيم ما سمع ، وعرف من أمر الأسرة ما عرف ، وروعه من هذا الطلاق ما روعه . وهو من أجل ذلك حريص على أن يسرع الخطو ، لولا أن إسراع الخطو لا يليق بالشيوخ ، الذين أفناهم مر الغداة وكر العشى ، وعطفتهم الأيام على العصا ، وعلمتهم المشى على ثلاث ، فخطوهم متقارب ، وسعيهم بطىء . وشاعرنا حريص دائماً على أن يكون شيخاً متهالكا ، قصير الخطو بطىء السعى . وهو على ذلك كله عجل يريد أن يلقى صاحب القصر ، فيسمع منه ويقول له . وهو من أجل ذلك لا يمد الخطو لأنه لا يستطيع ، أو لا يريد أن يستطيع أن يمد الخطو ، وإنما يتعجل على أسلوبه فى التعجل ، فيسعى إلى أمام ، لا يقف كما تعود أن يقف دائماً أمام آيات الفن هذه الرائعة التى نسقت فى أبهاء القصر تنسيقاً ليس أقل منها روعة وجمالا .

والشاعر متعود ألا يمر بهذه الآيات مرًّا سريعاً أو بطيئاً ، دون أن يقف عندها ، ملقياً إليها تحيات الاعجاب والحب ، واقفاً عند هذا التمثال مطيلا إليه النظر ، مهدياً إليه الحديث ، منتظراً منه الجواب ، وواقفاً عند هذه الصورة محللا معللا ، مستوحياً مفتوناً . وواقفاً عند هذه القطعة أو تلك من قطع الأثاث الفخم القديم ، يلتهمها بعينه التهاماً ، ويداعبها بيده مداعبة رقيقة ، يصنع ذلك كل ما دخل القصر ليلقى صاحبه فى مكتبه أو فى حجرة من حجرات الاستقبال ،

(١) الكاتب المصرى عدد ١٤ و ١٥ و ١٦ (نوفمبر — ديسمبر ١٩٤٦ ، يناير ١٩٤٧) .

لا يمنعه من ذلك مانع مهما يكن ، ولا يصرفه عنه صارف مهما تكن الظروف . وهو من أجل ذلك ينفق وقتاً غير قصير منذ يبلغ أرق سلم القصر إلى أن يصل إلى صاحبه ، سواء كان على موعد أم زار على غير ميعاد ، وربما ضرب لصاحب القصر موعداً للقاء فى الساعة الحادية عشرة ، ولكنه يقول ضاحكا : على أنى سأكون هنا قبل أن تبدأ الساعة العاشرة ؛ وربما نسى الموعد نسياناً تاما ، وانتظره صاحب القصر ، فلما طال عليه الانتظار خرج يلتمسه فى هذا البهو أوذاك ، فوجده قائماً أمام صورة ، أو تمثال ، أو أثاث ، وقد استأثر به إعجاب ينتهى إلى شئ يشبه الذهول . ذلك أن هذا القصر ، ليس كغيره من قصور الأغنياء المترفين ، يزدان بفخامته وضخامته ، وامتلائه بالأثاث الفاخر الكثير قد نسق على وجه يلائم الذوق أو لا يلائمه ، ولكنه يدل دائماً على ضخامة الثروة ، وكثرة المال ، وحب الانفاق ؛ وإنما هو قصر له فخامته وضخامته ، ولكنه أشبه بالمتحف منه بالقصر . فليس فيه إلا ما يروق النفس ، ويلذ العين ، ويملأ القلب رضا وإعجاباً ؛ قد جمعت فيه آيات من الفن ، على اختلاف هذا الفن فى النوع ، وفى العصر والطراز : ففيه القديم والحديث وما بين ذلك ، من آيات المثالين والمصورين ، ومن آيات العصور البعيدة التى يتحدث عنها التاريخ القديم ، وفيه من طُرَف الأثاث ضروب وألوان ، بحيث لا يستطيع ذو الذوق المترف أن يدخله إلا لقى فيه فتنة أى فتنة ، وبحيث يستطيع ذو الذوق المترف أن يزوره مصبحاً وممسياً فى كل يوم من أيام الأسبوع ، دون أن يقضى عجبه أو إعجابه بما فيه من هذه الروائع والآيات . فاذا مر الشاعر قصير الخطو بطئ السعى بهذه الآيات والروائع ، غير واقف عندها ولا مطيل نظره إليها ، فذلك الدليل كل الدليل على أنه معجل حقًّا ، وعلى أن الذى يعجله عما أحب وما سيحب دائماً ، لا يمكن أن يكون إلا أمراً ذا بال .

ومما يدل على أن الشاعر كان معجلا حقا ، وعلى أنه كان أشد عجلة منك ومنى إلى لقاء صاحب القصر ، أنه انتهى إلى البهو الذى ينبسط أمام المكتب ، وهمّ أن يمضى إلى المكتب فيطرق بابه طرقاً خفيفاً ، دون أن يقف وقفته تلك الطويلة ، أو يدور دورته تلك البطيئة ، حول هذه الكتب التى نُسِّقت أجمل تنسيق وأدقه إلى هذه الجدران العراض المرتفعة ، ودون أن يمر يده فى كثير من الحب والهيام على صفوف هذه الكتب ، كأنما يحييها بيده تحية تشبه عطف

الأب حين يمسح رأس ابنه فى كثير من الحنان . وربما أخذ منها كتاباً ، فجمع يديه حول دفتيه ، ثم فتحه ونظر فيه قائماً فأطال النظر ، ثم آثر صحبة الكتاب على لقاء صديقه ، فانحاز إلى زاوية من زوايا البهو ، وفرغ لكتابه منصرفاً إليه عن كل شئ وعن كل إنسان ، حتى يأتى صديقه ، فيفرق فى عنف أو فى رفق بينه وبين هذا الكتاب الحبيب . ولكنه فى هذه المرة لم ينظر إلى الكتب ، كما أنه لم ينظر إلى التماثيل والصور ، إلا نظرات قصاراً خاطفة ، ومضى أمامه مستأنياً ، يريد باب المكتب ليطرقه ويفتحه ويغلقه من دونه حين يسمع الاذن له بالدخول . غير أنه لم يمكّن من الوصول إلى الباب ؛ فقد لقيه الخادم مكبراً له حفيًّا به ، ولكنه يؤذنه بأن سيده لن يلقى أحداً الآن ، لأنه خالٍ فى هذه الساعة إلى ضيف قد أقبل منذ حين .

ولست أدرى أرضى الشاعر عن هذا الحجاب أم ضاق به ، ولكنى أعلم أنه تحول فى بطء إلى صف من صفوف هذه الكتب ، فحياه بطرفه ، ثم مسحه بيده ، ثم استخرج منه كتاباً ، وانزوى فى ناحية من نواحى البهو ، وجعل ينظر فيه مقبلا عليه غير فارغ له مع ذلك ، بل رافعاً رأسه ومديراً طرفه فى البهو من حين إلى حين ، كأنما كان يترقب أن يخلو له وجه صديقه هذا الذى جعل أمره يتعقد منذ اليوم .

وما أحب أن أقتحم الباب الذى لم يقتحمه الشاعر ، وأن أدخل بك على صاحب القصر خالياً إلى ضيفه ؛ لا لأنى أخشى أن يردّنا الخادم عن هذا الباب مكبراً لنا حفياً بنا كما رد الشاعر ، أو ناهراً لنا متعللا علينا ، كما كان خليقاً أن يصنع بكل من يحاول اقتحام هذا الباب .

فأنت وأنا مطمئنان إلى أننا نستطيع أن نقتحم الباب دون أن يشعر بنا هذا الحاجب ؛ لأن الفن قد منحنا هذه القلنسوة السحرية التى تخفينا على عيون الحجّاب والرقباء ، وتتيح لنا أن نذهب حيث نشاء ومتى نشاء وكيف نشاء ، دون أن يستطيع أحد لنا ردًّا أو صدًّا ، بل دون أن يستطيع أحد أن يفطن لنا أو أن يشعر بمكاننا .

ولست أدرى لماذا لا يتنبه القراء إلى هذه الخصلة الرائعة من خصال الفن ، وإلى قدرته على أن يخفى الكاتب وقراءه على العيون والأسماع ، وسائر أدوات الحس والشعور ، بل على أن يتيح للكاتب وقرائه قدرة هائلة يلغون

بها مسافات الزمان والمكان ، وما يقوم فى الزمان والمكان من عقبات تحول بين الناس وبين أن يروا ويسمعوا ويعلموا مايريدون أن يروا وأن يسمعوا وأن يعلموا . فنحن نستطيع من غير شك أن ننسل إلى داخل المكتب دون أن يشعر بنا أحد ، وأن نرى صاحب القصر وضيفه ، ونسمع ما يدور بينهما من حديث دون أن يأذنا بدخولنا عليهما أو مكاننا منهما . بل نحن نستطيع أن نرق إلى أى عصر من عصور التاريخ وما قبل التاريخ ، فى أى قطر من أقطار الأرض ، فنرى ونسمع ونعلم ما نريد ، كما أننا نستطيع أن نسبق الزمن ، وأن نمضى فى أعماق المستقبل ، إلى حيث نحب أن نمضى فى أى قطر من أقطار الأرض ، بل فى أى نجم من نجوم السماء ، لا يحدّ قدرتنا على ذلك إلا ما نريد نحن لا ما تريد الأحداث . وبعبارة أدق : يستطيع الكاتب وحده أن يفعل هذا كله وأن ينبئ قراءه إن أراد بما رأى وما سمع وما علم ، أو ببعض ما رأى وما سمع وما علم . فأنا قادر إذن على أن أتجاوز باب المكتب ، وأشارك فى زيارة هذا الضيف لصاحب القصر . ولكنى لا أفعل لسببين : أولهما يتصل بالأخلاق ؛ فأنا لا أحب اقتحام الأبواب ، ولا التسمع على الناس حين يتحدثون ، وأبغض شئ إلىّ التطفل والوغول . ولن أغير من أخلاقى شيئاً لأرضى القراء ، مهما يكن حرصى على رضاهم ، ومهما يكن لرضاهم من خطر . والثانى يتصل بالفنّ ؛ فقد يحسن أن أعرّف صاحب القصر إلى القراء ، قبل أن أدخلهم عليه ، حتى لاأفجأهم به وبضيفه وبما يديران بينهما من حديث . ذلك أجدر أن يهيئهم للقائه عن علم به ومعرفة لخصاله ، لفهم ما يصدر عنه من أعمال نابية ، وأقوال نائية عما يلائم الرشد والصواب .

والقراء بعد ذلك ليسوا خيراً من الشاعر الذى هو صديق حميم لصاحب القصر . وإذا كان هذا الشاعر قد رضى أن يُرَدّ عن صديقه ، وقبل أن ينتظر حتى يخلو له وجهه ويؤذن له بالدخول ، فليس على القراء بأس ، من أن ينتظروا كما انتظر .

والشاعر يستعين على الانتظار بالكتاب الذى ينظر فيه ، فليستعن القراء على الانتظار بما سأسوق إليهم عن صاحب القصر من حديث . وقد لا يكون هذا الحديث ممتعاً إمتاع هذا الكتاب الذى ينظر فيه الشاعر ، ولكنه سيكون على كل حال كلاماً يقرأ . وما أكثر ما يفرغ القراء للكلام المكتوب

الذى يساق إليهم فى كل يوم ، على ما يكون فيه من سخف ، وعلى ما يكون له من قيمة و إمتاع !

ورءوف صاحب القصر شيخ تقدمت به السن شيئاً ، ولكنها لم تبلغ من قوته ولا من شباب قلبه وجسمه شيئاً ، و إنما هو رجل طوال ، يميل إلى البدانة أكثر مما يميل إلى النحافة ، وهو رائع الطلعة ، رائق المنظر ، لاتقتحمه العين ، و إنما تتصل به فتطيل الاتصال ، تجد شيئاً من اللذة فى النظر إلى وجهه الذى لا يخلو من جمال مهيب ، والذى تضطرب فيه عينان صغيرتان نفاذتان ، فيهما شئ من حدة ، ولكنهما تصوران هدوءاً ودعة وثقة ، تقرأ فيهما الايمان بالنفس ، والشك فيما عداها ومن عداها من الأشياء والناس . وتقرأ فيهما الرضا المطمئن عن النفس ، والسخط على من عداها وما عداها من الأشياء والناس . وتقرأ فيهما أن لصاحبهما ضميراً مرناً أشد المرونة ، يسيراً أعظم اليسر ، يؤثر نفسه بكل شئ ، و يرى أن الحياة لم تخلق إلا له ولم توقف إلا عليه ، وأنه إنما يحتمل مشاركة الناس له فيها احتمالا ، ويطيقها عن تفضل وتطول .

تقرأ فى هاتين العينين الأثرة فى أبشع صورها ، وفى أظرف صورها أيضاً . وهذه القراءة لا تكذبك ولا تغرك عن الحقيقة الواقعة ؛ فصاحبنا أثِرٌ كأبشع ما تكون الأثرة ، وكأظرف ما تكون الأثرة فى وقت واحد . يندفع إلى ما يريد فى غير هوادة ولا أناة ولا إسماح ، لا يقبل أن تقوم بينه وبين ما يريد عقبة مهما تكن طبيعتها ، ومهما يكن مصدرها . وهو من أجل ذلك غضوب ، جامح الغضب ، عنيف مسرف فى العنف ، لا يروض الصعاب حين تعرض له ، و إنما يحطمها أو يحطم نفسه من دونها . وهو من أجل ذلك يمر حتى لا يسيغ مذاقه أشد الناس رياضة لنفسه على احتمال المكروه والصبر على الأذى ومراس أصحاب العنف والجماح .

ولكنه على ذلك تحلو شمائله ، وتحسن أخلاقه ، وترق حواشيه حين يقبل على اللذه ويأنس إلى الناس ، لايصدر فى عنفه ولينه عن بغض للناس وحب لهم ، و إنما يصدر فيهما عن حب لنفسه و إيثار لها بما يراه خيراً ؛ يبتغى ذلك باللين ، حين يكون اللين سبيلا إليه ، ويبتغى ذلك بالعنف حين لا يكون من العنف بد . وهو على كل حال أقل الناس حظا من القصد والاعتدال . لاتراه يوماً

أو ساعة على خلق سواء ، وإنما هو مندفع فى الغضب حتى يصرف الناس عنه ، أو مندفع فى الرضا حتى يتهالك الناس عليه . وأصل ذلك فيما يظهر أنه كان وحيد أبويه ، قد ولد فى بيئة ناعمة مترفة ، موفورة الحظ من الثراء ، قد يسّرت لها الأمور كلها تيسيراً ، ولم يولد له إخوة يشاركونه فى حب أبويه له ، وعطفهما عليه ، وحرصهما على تدليله وتنويله كل ما تطمح إليه شهواته الجامحة أو تطمع فيه أهواؤه التى أرسلت على سجيتها إرسالا . وقد وصف الشاعر القديم بعض الممدوحين بأنه لم يقل «لا» قط إلا فى تشهده ، وبأن لاءه كانت خليقة أن تكون «نعم» لولا تشهده وإيمانه بالله . ويمكننا أن نقول إن صاحبنا هذا لم يسمع «لا» قط فى صباه ولا فى شبابه إلا حين كان يتعرض لما كان يمكن أن يسوءه أو يؤذيه . ومع ذلك فقد كان أبواه والموكلون بخدمته لا يصدونه عما يسوءه ، ولا يردونه عما يؤذيه إلا فى كثير من الرفق والاحتيال ، وفى ألوان من الترغيب والاغراء ، بحيث لم يكن يشعر أن هذه الكلمة البغيضة كلمة «لا» تقال أو توجه إليه. لم يكن يسمع هذه الكلمة ، ولكنه كان يقولها كثيراً : يقولها لأبويه ، ويقولها لخدمه ويقولها لأترابه حين يلقى أترابه ، وكان هؤلاء جميعاً يسمعون منه هذه الكلمة ، فيرضون عنها ، ويبتهجون بها ، ويستجيبون لها . ولذلك نشأ على حب هذه الكلمة حين يجرى بها لسانه هو ، وعلى بغضها حين يجرى بها لسان غيره من الناس .

وكان من الطبيعى ألا يعرف المصاعب ، ولا يمرن على رياضتها وتذليلها . وكان من الطبيعى كذلك ، ألا يفهم كيف يمتنع عليه غرض من الأغراض ، أو يفوته أمل من الآمال . كان مدللا كأقصى ما يكون التدليل ، مترفاً إلى أبعد حدود الترف ، سيئ الخلق من أجل ذلك كأسوأ ما يكون الخلق ، ضعيفاً كأشنع ما يكون الضعف ، عنيفاً كأبشع ما يكون العنف . وليس من الغريب بعد ذلك أن نلاحظ أنه ، وقد أنفق حياة فارغة ميسرة ، لم يتعلم إلا بمقدار ما استطاع ، وبمقدار ما أتاحت له هذه الحياة المدللة المترفة أن يتعلم . فهو لم يذهب إلى مدرسة ، وإنما سعى إليه المعلمون . وهو لم يذعن قط لمعلم أو أستاذ ، وإنما أذعن له دائماً أساتذته ومعلموه . منهم من وجد إلى قلبه سبيلا ، فألقى فيه بعض العلم وأودعه بعض المعرفة ، ومنهم من لم يجد إلى قلبه سبيلا ، فتملق أهواءه ونزواته ، وقنع من الجهد بما كان يتاح له من الأجر فى آخر الشهر .

وما ينبغى أن تغرك آيات الفن هذه التى نسّقت فى القصر أحسن تنسيق ،

ولا صفوف الكتب هذه التى ملأت هذا البهو العريض مما يلى مكتبه ؛ فهو لم يكسب من هذه الآيات ولم يجمع من هذه الكتب شيئاً ، وإنما وجدها فى القصر ، فلم يحفل بها أول الأمر ، ثم جعل يقف عند بعضها من حين إلى حين ، ثم فُتن بها فتنة مصدرها الغرور أول الأمر ، ثم أصبحت جزءاً من حياته ، لا يستطيع أن يستغنى عنها ، ولا يتصور أن يعيش دون أن يراها مصبحاً وممسياً.

ولم يكد يبلغ أول أطوار الشباب ، حتى استجاب لدعاء شهواته وغرائزه ، فعبث ما شاء له العبث ، وأفسد ما شاء له الفساد. وهمّ أبواه أن يكفّاه عن بعض ذلك فى تلطف ورفق ، فلم يبلغا منه شيئاً ، وإنما كان لومهما له إغراء ، ونصحهما له دفعاً إلى الغلو والاسراف . ثم أتيحت له الغربة ، ففارق القصر والربوة إلى ما حولها ، وطوف فى الآفاق الغربية ، وأقام فى العاصمة فأطال المقام ، ثم طوف فى الآفاق البعيدة ، وزار العواصم الكبرى ، وألم بمواطن الجد والهزل ، وعاد إلى أبويه فتى كامل الفتوة ، قد ردّته الحياة إلى شئ من القصد فى سيرته ملأ أبويه إعجاباً به ورضا عنه ، وأتاح له النظر فى شؤون الأسرة قليلا قليلا . ولم تمض أعوام حتى كان مستقلا بكل شئ ، متصرفاً فى كل شئ ، ملغياً أباه من كل جهد ، ناهضاً من دونه بكل عبء .

ولست أعرف شيئاً أشد تعقيداً ، ولا أكثر اختلاطاً ، ولا أعسر على الفهم من نفس الانسان ؛ فهى ملتقى المتناقضات ، وهى غريبة فيما يختلف عليها من الأطوار . لقد كان كل شئ فى صبا رءوف يؤذن بأنه سيكون فتى ضائعاً ، مضيعاً ، لا يغنى عن أسرته شيئاً ، وإذا هو يعود إليها فتى رشيداً إلى حد ما ، قادراً على النهوض بالأعباء ، نافذاً حين يتصرف فى الشؤون ، بعيد الحيلة حين يحتاج إلى بعد الحيلة . وكان هذا خليقاً أن يلقى فى روع الذين يعرفونه من قريب أنه الفتى كل الفتى ، قد جمع من أخلاق الرجال ما ينأى به عما يعيب ، ويرتفع به عن الصغائر ، ويهيئه لجلائل الأعمال . وقد كان فيه من هذا كله شئ ، ولكنه على ذلك كان ضعيفاً أمام غرائزه ، متهالكا على لذاته . يسمو إلى الجليل من الأمر ، ويعنى مع ذلك بالصغائر وسفاسف الأمور عناية مؤذية . يضبط نفسه أحياناً ، فيبلغ من ضبطها ما يريد ، ويحملها من عظيم الأمر على ما يحب ، ثم يرسل لها العنان فجاءة ، فاذا هى تتابع الهوى حتى تجور عن القصد ، وتتورط فى أعظم الشطط .

وقد التمست الأسرة لابنها الزوج التي تلائم مكانه ، وجماله ، وثراءه ، فوفقت لما أرادت . وأصهر الفتى إلى أسرة صالحة ، وسعد بحياة زوجية ناعمة ، ولكن هدوءها لم يتصل ؛ فقد كان رءوف صاحب نزوات طالما آذت زوجه ، وطالما آذته هو ، وطالما أرهقته وأرهقت زوجه من أمرهما عسراً . ويمكن أن يقال إن نعيما ابنه قد نشأ في بيئة ظاهرها النعمة ، وباطنها النقمة . كل شيء من حوله ميسر إلا أمر أبويه ، فانه كان عسيراً أشد العسر ، ملتوياً أعظم الالتواء .

وكل قارئ يستطيع أن يصور لنفسه حياة هذه القصور التي يملؤها الترف ، ويشيع فيها النعيم ، وتفيض من حولها السعادة ، ولكنها تشتمل في أعماقها على غرفة أو غرفتين من غرفات الجحيم ، لا يرى الذين يأوون إليهما فيهما إلا الشر كل الشر ، والنكر كل النكر ، والعذاب كل العذاب . ولم يكن قصر رءوف الذي نشأ فيه نعيم إلا واحداً من هذه القصور : سعادة ظاهرة ، وشقاء خفي . أب يلهو ما وجد إلى اللهو سبيلا ، وأم تشقى ما استطاعت المرأة أن تحتمل الشقاء ، وخصومة وعبوس حين يلتقي الزوجان ، ووفاق وابتسام حين يظهران للناس ، والصبيّ بين هذا كله يرى ويسمع ويحس ، ويسجل قلبه الصغير كل ما يرى ويسمع ويحس . وهو يؤثر أمه البائسة بالحب والرحمة والرثاء ، ويختص أباه الماجن بكثير من السخط واللوم ، ولكنه يخافه أشد الخوف من جهة ، ويعجب به أشد الاعجاب من جهة أخرى . يكره سيرته مع أمه ، ويرضى عن سيرته مع الناس ، ويعجب بسيرته مع نفسه ، ويتحدث إلى ضميره ، بأنه إذا شب فسيكون أبر بزوجه من أبيه ، ولكنه سيسير سيرة أبيه في الناس ، وسيؤثر نفسه من متاع الحياة بمثل مايستمتع به أبوه . على أن رءوفاً لم ينشئ ابنه كما نشّأه أبواه ، وإنما أخذه بشيء من الصرامة والحزم ، فكان هذا أيضاً مصدراً للخصومة بينه وبين زوجه ، ومصدراً للتعقيد في نفس الصبي الذي كان يجد من أمه اللين والاسماح ، ويجد من أبيه الصرامة والحزم ، فيرضى ويسخط ، ويحب ويبغض ، وتتعقد نفسه على مر الأيام تعقداً شديداً .

وقد كنت خليقاً أن أمضي معك في الحديث عن حياة رءوف في شيء من التفصيل ، وعن نشأة نعيم في شيء من الاطناب ، لولا أن باب المكتب يفتح ويخرج منه رءوف متضاحكا ، يشيّع ضيفه إلى سلم القصر ، ثم يعود وهو لايكاد يملك نفسه من ضحك يريد أن يملأ أبهاء القصر . فيصرف الشاعر عن كتابه ،

ويصرفني أنا عما كنت أقص عليك من حديث . وها هو ذا قد أقبل على الشاعر مغرقاً في الضحك ، يقول في صوت متقطع : ها أنت ذا ! لقد أطلت انتظارك منذ اليوم ، وإني لراض عن اضطرارك ، إلى أن تنتظرني كما انتظرتك . قال الشاعر وهو ينهض متثاقلا ، ويرد الكتاب إلى مكانه من الصف : لست أدرى أينا انتظر صاحبه ! لقد ذهبت إلى حيث تعودنا أن نلتقي ، فأنبئت بأنك تنتظرني في هذا المكتب . ولن أبلغ من الحمق وخطل الرأى أن أترك الجنة النضرة ، والسماء الصفو ، والجو الصحو ، والنهر الجميل ، لأحبس نفسي معك في هذا المكتب وإن كان جميلا أنيقاً . على أني لم أستطع حتى أن أستمتع بالخلوة إلى هذا الجمال وقتاً قصيراً ؛ فقد أقبل ابنك نعيم ، فنغص على كل شيء . قال رءوف وهو يغرق في الضحك : ابني نعيم ! فهو إذن قد لقيك ، وقد ألقى إليك بسخافاته التي لا تنقضي ، والتي ليس لها رأس ولا ذيل . ولكن هلم ! ما قيامنا في هذا البهو؟ أقبل ، لأحبسنك في هذا المكتب الذي تكره أن تحبس فيه ، أقبل واجتهد في ألا تنحني على العصا إن استطعت ؛ فان نفسي ليست ميالة إلى شعر جرير ، أقبل واعدل قامتك إن استطعت إلى ذلك سبيلا . لعلك قد شربت قهوتك على ضفة النهر مستمتعاً بالجنة النضرة ، والسماء الصفو ، والجو الصحو ، والنهر الجميل ، أم تريد قدحاً آخر من القهوة ؟ ولكن النهار قد انتصف أو كاد ينتصف ، ولم يبق بيننا وبين الغداء إلا ساعة وبعض ساعة . ما تقول في قدح من قهوة أخرى خير من قهوتك تلك التي احتسيتها على ضفة النهر الجميل ؟ ثم أغرق في ضحك طويل ، والشاعر قائم واجم ينظر إليه ويسمع منه ، ولا يفهم عنه . فلما سكت عنه الضحك ، قال بصوت ضخم مرتفع : الشراب يا غلام . ثم عاد إلى ضحك متقطع ، وأخذ بذراع الشاعر وهو يقول : إعتمد على ذراعي إن شئت ، أو تعلق بها إن أحببت ، ودع عصاك لا تأخذها بيمينك ولا تنحن عليها ؛ فقد كان يقال لنا في طور التأديب إن المهذبين من الناس لا يستصحبون عصيهم إلى حيث يستقبلون ، وإنما يتركونها في مواضعها المقسومة لها حين يدخلون الدور أو القصور . هلم ! هلم ! ثم مضى يقود الشاعر وكأنه يحمله حملا ، ويعلقه في الهواء تعليقاً ، حتى انتهى إلى مكتبه ، فأجلس الشاعر ، أو قل وضع الشاعر وضعاً على كرسي عريض وثير . وهمّ الشاعر أن يتكلم ، ولكن رءوفاً أومأ إليه أن لا يفعل ، وقال في صوت هادئ بعض الشيء : لا تسألني الآن

عن شيء ولا تحدثني الآن بشيء ، وإنما أرح نفسك وأرحني من الحديث والاستماع ، حتى إذا أقبل الشراب وفرغنا من القدح الأول ، أخذنا فى الحديث ؛ فأنبأتني بما عندك ، وما أرى أنك ستنبئني بشيء ذى خطر ، وتحدثت إليك بما عندى ، وما أرى إلا أنى سأشغلك بقية يومك . فأسلف نفسك شيئاً من الراحة ؛ فانك ستستقبل بعض العناء . ثم انصرف عنه ، وجعل يذرع الحجرة ذاهباً جائياً ، مغرقاً فى تفكير عميق .

وأقبل الخادم يحمل قواريره وأكوابه ، وهمّ أن يملأ القدحين . ولكن رءوفاً قال له فى لهجة حلوة ، وعلى ثغره ابتسامة راضية : لا تشق على نفسك يابنيّ ، فسأقوم عنك بهذا الجهد ، ولكن امنع علينا بابنا ؛ فلسنا فى حاجة إلى الواغلين . فانحنى الخادم وانصرف وأغلق الباب من دونه . وأقبل رءوف على قواريره وأكوابه فصب ومزج ، وقدم إلى الشاعر قدحه وهو يقول :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

فاشرب هذه على لذتك ، ثم أداويك منها بالأخرى .

قال الشاعر : إن أمرك لعجب منذ اليوم أتتخذ هذه الحجرة لنفسك سجناً منذ آخر الليل ، وتحظر على نفسك النزول إلى الحديقة والاستمتاع بصفاء السماء وجمال النهر ، ولا تصيب من طعامك شيئاً حتى يظن الخدم بك الظنون ، ثم ها أنت ذا الآن لا تملك نفسك ولا تضبط أمرك ، وإنما تندفع فى ضحك لعل البكاء . . . وهنا قاطعه رءوف قائلا : أن يكون خيراً منه . كلا يا سيدى كلا ! إنه الضحك الذى يصور الرضا ، والأمن ، وصفاء النفس ، واطمئنان القلب . ولكن ألم أقل لك إنا لن نتحدث حتى نفرغ من قدحنا الأول ! ثم قال بعد صمت قصير : بعداً للخدم! لاسبيل إلى أن نخفى عليهم شيئاً ، ولا سبيل إلى أن نكف ألسنتهم عن الحديث بعلم وبغير علم .

أكان الظمأ هو الذى دفعهما إلى الاسراع فى الشرب ، أم كان التلهف على الخمر هو الذى أغراهما باستنفاد ما فى القدحين ، أم كان تعجل الحديث هو الذى حثهما على أن يتعجلا إزالة ما بينهما وبينه من هذه العقبة الرائقة الشائقة التى لم يكن شيء أحب إليهما من إزالتها ؟ مهما يكن من شيء فقد أقبل كل منهما على قدحه شرهاً ، فلم تمض إلا دقائق حتى ارتويا هما ، وظمىء القدحان .

ونهض رءوف فأعاد إلى القدحين ريهما ، وأعاد إلى نفسه وإلى صديقه ظمأهما ، ولكنه كان ظمأ هادئاً مستأنيا لا عجلة فيه ؛ فأقبل كلا الرجلين على صاحبه يستبقان إلى الحديث استباقاً ، وأقبل كلا الرجلين على قدحه يحسو منه فى تمهل مثل حسو الطير ماء الثماد . قال رءوف متضاحكا : أما الآن فتستطيع أن تستمع لى يا أبت أو يا بنى ؛ فسنك وانحناؤك على العصا يجعلانك لى أباً ، وسذاجتك وسلامة نفسك تجعلانك لى ابناً ؛ فلى من غير شك أن أدعوك بأى الدعاءين شئت . استمع لى إذن ، وافهم عنى ولا تعجل على ؛ فانك لن تنبئنى بشئ أجهله . لقد أنبأك نعيم بحبه ، وثورتى على هذا الحب ، وإصراره على أن يمضى فيما بدأ ، وعطف أمه عليه ، ونطقى بهذه الكلمة التى تفرق بين الالفين . وكل هذا حق . ولكن الشئ الذى لم ينبئك به نعيم لأنه لم يكن يعلمه ، ولعله لايعلمه إلى الآن، هو أن الستار قد أسدل على بعض هذه المأساة ؛ فقد اختطف الموت من نعيم هواه . ثم أطرق حيناً وأقبل على قدحه ، فحسا منه حسوة ورده إلى مكانه فى هدوء ، والشاعر واجم لايدرى كيف يقول ، كأنما سقطت عليه الصاعقة . قال رءوف: نعم ! ماتت خديجة ، قتلها أخوها انتقاماً لشرفه فيما يظهر ، كأن لأمثال هؤلاء الناس شرفاً تراق فى سبيله الدماء ، ويحتمل فى سبيله العقاب والعذاب . لقد تغيرت الدنيا وفسد الناس ، وهبت على هؤلاء البائسين من أهل القرية وأمثالهم ريح لا أدرى من أين جاءتهم ، ولكنها حملت إليهم شرًّا عظيما : علمتهم أن لهم شرفاً ، وأنهم يستطيعون أن يغضبوا لهذا الشرف ، وأن يسفكوا فى سبيله الدم ، ويتعرضوا فى سبيله للموت . ومن يدرى ! لعلها علمتهم ، أو لعلها أن تعلمهم أشياء أخرى ، ليست أشد من هذا نكراً . ولن أدهش إذا أنبئت غداً ، أو بعد غد ، بأن هؤلاء الناس يضيقون بخضوعهم لنا ، وتسلطنا عليهم ، و يرون أن لهم فى أنفسهم حقوقاً يدافعون عنها ، ويتكلفون فى الدفاع عنها ما لم يتعودا أن يتكلفوا ، وأن لهم فيما تخرج الأرض من الثمرات حقوقاً أكثر مما نعطيهم ، وأن لهم فى الحياة مطامع وآمالا لم تكن تخطر لهم من قبل . كل هذا ممكن ، وكل هذا خطير سيء العاقبة . لقد كنا نرى هؤلاء الناس يسعدون السعادة كلها حين تهبط إليهم أبصارنا وحين نختصهم بشئ من العطف ، أو نلقى إليهم شيئاً من التحية . لقد كان أعظم ما يطمحون إليه أن يرقوا إلى هذا القصر خداماً لأهله ، فاذا رقوا إليه وظفروا بالخدمة

فيه ، فأعظمهم حظًّا من السعادة ، أقربهم مكاناً من السادة . فأين نحن من هذا الآن ! أترى إلى ابنة الحذاء يؤثرها ابن سيدها بعطفه ويختصها بحبه ، ويمنحها مكاناً من قلبه ، فتنعم وتسعد ، وترى فى هذا الايثار حلماً لم يكن يتاح لأمثالها . ولكن أخاها ينكر ، ثم يغضب ، ثم يثور فيقتل أخته ... ولو قد استطاع لقتل معها شخصاً آخر . وهنا برقت عيناه بريقاً مخيفاً ، وجرت فى جسمه كله رعدة خفيفة ، لم يلبث أن ردها إلى الهدوء ، ثم أقبل على قدحه فألقى ما فيه فى جوفه إلقاء . ثم نظر إلى الشاعر نظرة حادة وهو يقول : إنك لقليل النشاط إلى الشراب ، أفرغ قدحك كما أفرغت قدحى . ولم يجب الشاعر كأنه لم يسمع منه . قال رءوف وهو يضرب بيده على المائدة : أتسمح لى أفرغ قدحك ، كما أفرغت قدحى ؟ أو قم عنى ؛ فلست فى حاجة إلى الجلساء الفاترين . وكان الشاعر يعرف صديقه حق المعرفة ، ويعلم أنه عنيف إذا غضب ، منكر السيرة إذا عربد على نديمه . فلم يكد يسمع طرق المائدة حتى هب من وجومه مذعوراً . ولم يكد يسمع نذير صاحبه حتى أسرع إلى القدح فصبه فى فمه صبا . قال رءوف وقد نهض متضاحكا : أما الآن فنعم . ثم أقبل على زجاجاته فصب ومزج ، وعاد إلى مجلسه هادئاً مطمئنًّا ينظر إلى قدحه متهالكا عليه .

قال الشاعر : لقد أنبأنى نعيم أنه أرسل فتاته أمس إلى العاصمة ، ليلحق بها اليوم فكيف . . . فقاطعه رءوف قائلا : كيف قتلها أخوها ، أو أين قتلها ؟ أدركها فى العاصمة ، وقتلها بملأ من الناس ، وأسلم نفسه للشرطة . وأكبر الظن أنه كان يرقب أخته ، وأنه كان يعلم من أمرها كل شئ ، وأنه كان يدبر هذا الشر تدبيراً . والمهم أنه فعل فعلته ، وأنه بهذه الفعلة قد رد عنا شرًّا عظيما ، ونبهنا لخطر عظيم . أراحنا من هذا الزواج المنكر ، وقطع على نعيم طريق التمرد والعصيان ، ونبهنا إلى أن فى أمثاله من أهل القرية نزوعاً إلى شئ جديد ، فيجب أن نسير معهم سيرة جديدة ، وأن نلائم بين طموحهم هذا الطارئ وسياستنا لأمورهم .

ولكن هذا حديث لم يحن حينه بعد ؛ فقد نستطيع أن نفكر ونروى متى أتيح لنا التفكير والتروية ؛ فأما الآن فقد يظهر أن لدينا ما يشغلنا من الأمر . ثم رفع القدح إلى فمه فكاد يأتى على نصف ما فيه . ثم أشار إلى الشاعر أن اشرب . قال الشاعر : إن لم تكن فى حاجة إلى عقلك ، فقد تكون فى حاجة إلى

بعض عقلى ؛ فأمهلنى ولا تشتط على . قال رءوف : أما أنا فشديد الحاجة إلى عقلى كله ، وإنك لتعلم أن الخمر أعجز من أن تذهب به . وأما أنت فلستُ فى حاجة إلى عقلك ؛ لأنى لا أريد منك روية ولا تفكيراً ولامشورة ، وإنما أريد منك طاعة وتنفيذاً للأمر وتحقيقاً لما أريد .

قال الشاعر : وعندك إذن أمر تريد أن تصدره إلىَّ ؟ وما عسى أن يكون هذا الأمر ؟ قال رءوف : أتعرف لماذا حجبتك آنفاً ؟ قال الشاعر : لأنك كنت مشغولا ببعض الضيف . قال رءوف : ألم تر هذا الضيف ؟ ألا تعرف من هو ؟ قال الشاعر : لقد كنت مشغولا عنك وعنه بالنظر فى ذلك الكتاب . قال رءوف : فانه حاكم الاقليم ، قد أقبل يزورنى ، ويسألنى فى بعض حديثه عما سمع من أن نعيما معتزم أن يسافر إلى إيطاليا وغيرها من بلاد أوربا ، ليقضى عاماً أو أكثر من عام . قال الشاعر : فانى لم أسمع قط بشىء من حديث هذه الرحلة . قال رءوف : لم تسمع أنت ، ولكن حاكم الاقليم سمع ، وأقبل ينبئنى بما سمع . ويجب أن يتحقق ما سمع ، وأن يرحل نعيم إلى حيث يريد من بلاد الله ، فيغيب عن هذه الأرض عاماً أو أكثر من عام . فى هذه الرحلة تهدأ نفسه ، ويستقر قلبه بين جنبيه ، ويسترد شيئاً من صواب ، وينتفع بما تفرض الغربة على المغتربين من التجارب . أعدده إذن لهذه الرحلة ، ويسِّر له أمرها ، واصحبه فيها إن شئت أو شاء ؛ ذلك أجدر أن يريح الأسرة من بعض اللغط ، وأن يرد عنها بعض الشر ، وأن يصلح بعض ما فى النفوس . ثم رفع القدح وأتى على ما فيه ، وأشار إلى الشاعر فلم يجد منصرفاً عن الطاعة ، فأفرغ قدحه . وهمّ رءوف أن يصب ، ولكن الشاعر استعفاه قائلا : لم أحتج قط إلى عقلى كما أحتاج إليه الآن . وإذا لم يكن للخمر سلطان عليك ، فان سلطانها علىَّ عظيم . ثم نهض متثاقلا . قال رءوف : إلى أين ؟ قال الشاعر : إلى حيث ألقى نعيما ، ثم إلى حيث أصلح من أمرى ، ثم إلى حيث أنفذ ما تريد . قال رءوف : إن نعيما مسافر إلى العاصمة اليوم ؛ فاصحبه فى سفره ، وتحدث إليه أثناء الطريق . وما زال عندك فضل من وقت فأقم ؛ فما أريد أن أجلس وحدى إلى مائدة الغداء . ثم ضرب إحدى يديه بالأخرى ، فأقبل الخادم ، فأشار إليه أن يرفع أداة الشراب ، وقال له وهو ينصرف : إرسل إلىَّ خليلا .

وخليل هذا كاتب من كتاب القصر ، أقبل بعد قليل ، فلم يكد ينحنى

ويلقى التحية حتى ابتدره رءوف قائلا : ألم أسمع أن شرًّا عظيما قد نزل ببعض أهل القرية ؟ قال خليل فى صوت خافت متهدج : هو محمود الحذاء أصيب فى ابنيه جميعاً ، قتل ابنه أحمد أخته خديجة ، وأسلم نفسه إلى الشرطة . قال رءوف : اذهب فواسه ، ويسّر له العسير من أمره ، وأعنه على الرحيل عن القرية إلى حيث يشاء إن أظهر رغبة فى الرحيل . قال خليل : الرحيل ! وإلى أين يمكن أن يرتحل ؟ قال رءوف فى صوت كاد يمتد ولكنه رده إلى الهدوء : إذهب فأنفذ ما أمرتك به . فلم يستطع خليل إلا أن ينحنى ، ويحيى ، وينصرف . ولم يكد يغلق الباب من دونه حتى قال رءوف : بعداً لهؤلاء الموظفين ! ما أعظم حظهم من الغباء !

قال الشاعر وهو يشعل سيجارة : أما أنا فان لى من الغباء حظًّا ، ولكنه ليس عظيما فيما أظن . قال رءوف : وما ذاك ؟ قال الشاعر : إن لم أكن كهؤلاء الموظفين فقد يخيل إلىّ أنك تريد أن تحدث من حولك فراغاً ، وأن تعرض أمامك لوحة بيضاء كما يقال . فلم يجب رءوف ، وإنما استلقى فى أعماق كرسيه ، وأغرق فى صمت طويل ، ثم قال فى صوت يشبه صوت النائم : لا أريد إلا أن أستريح . قال الشاعر : وتريد أن يستصحب نعيم أمه فى سفره البعيد ؟ فأشار رءوف بيده إشارة المتعب المكدود ، وقال : هيهات ! ذاك شئ لاسبيل إليه . ستبقى حيث هى ؛ فانما هو لسان هفا فسبق بكلمة لا تقدم ولا تؤخر . وما أكثر ما يهفو الناس ثم يصلحون هفواتهم !

ولبث الرجلان فى مكانهما ثابتين مطرقين لا يديران بينهما حديثاً ، ولا ينظر أحدهما إلى صاحبه . ولو قد رآهما راء لقدر أن قد استحالا تمثالين جامدين . ثم أزعجهما عن سكونهما هذا طرق الباب ، ثم ظهور الخادم يدعوهما إلى المائدة .

وما أظنك تريدنى على أن أصحبهما إلى المائدة ، ولا على أن أرافقهما بعد غدائهما لأشهد ما يجرى حولها وحول الأسرة كلها من الخطوب . فأنت تستطيع أن تقوم مقامى فى ذلك ، وأن تتصور ما يحدث لهؤلاء الناس على اختلاف أشخاصهم وأمكنتهم من الأحداث كما تشاء ؛ فليس يعنينى الآن من أمرهم إلا أن الفتى قد ارتحل إلى أوربا ، وأن أمه قد استقرت فى مكانها من القصر ، وأن الشاعر قد عاد بعد رحلة قصيرة إلى العاصمة ، فاستقر فى جناحه المقسوم له واستأنف حياته كعهده قبل أن تحدث هذه الأحداث ،يلقى رءوفاً حين يرتفع

الضحى فيتنزه معه فى الحديقة ، أو يجلس معه على ضفة النهر ، أو يخلو معه فى مكتبه ، يتحدث إليه ويسمع منه ، وينشده من شعره ، ويقرأ له ما شاء الله أن يقرأ فى هذا الكتاب أو ذاك . وقد يلقاه إذا أقبل المساء فيستأنفان حياة كحياتهما فى أول النهار . والأيام تمضى مسرعة أو مبطئة ، وأكبر الظن أنها تمضى مسرعة بالقياس إلينا نحن لأن أيام القصص مسرعة دائماً ، كما كان يقول لنا الذين كانوا يقصون علينا الأحاديث أثناء الصبا ، وتمضى مبطئة أشد البطء بالقياس إلى الذين يحيونها بالفعل ، إذا ألمت بهم النوازل أو ألح عليهم الشقاء ، وتمر مر السحاب بل أسرع من مر السحاب ، إن أتيحت لهم حياة ناعمة راضية . وقد مضت الأيام على هؤلاء الناس مبطئة ومسرعة ، ولكنها مضت على كل حال ؛ لأن من طبيعة الزمن أن يمضى دائماً ، وهو لا يعرف الوقوف كما أنه لا يعرف الاسراع ولا الابطاء ، وإنما هو يمضى على نسق واحد نراه نحن سريعاً حيناً وبطيئاً حيناً آخر .

وفى ذات ليلة جلس الصديقان فى جوسقهما ذاك على شاطئ النهر يتحدثان فى هدوء ودعة ، وقد سكن من حولهما كل شئ إلا هذا النهر الذى يجرى فى يسر ، وتصطفق أمواجه فى خفة وعذوبة ، و إلا هذه الغصون التى يداعبها النسيم ، فيسمع لأوراقها هفيف وحفيف ، و إلا هذه الضفادع التى تسكن حيناً ، ثم تنق كأنها تنتظر من الليل شيئاً ، فاذا أبطأ عليها أو التوى بما تنتظر منه جأرت بالسؤال والالحاح ، ثم ثابت إلى الدعة والسكون ، ثم استأنفت دعاءها ونداءها و إلحاحها .

ولست أدرى فيم كان الصديقان يتحدثان ، ولكنى أعلم أن رءوفاً قطع الحديث فجأة ومس كتف الشاعر فى رفق ، ثم قال له : أنظر إلى ما وراء النهر أترى شيئاً ؟ فمد الشاعر طرفه ثم رده ، ثم قال : تريد هذه النار التى تتألق على هذه القمة ؟ قال رؤوف : نعم ، متى عهدك بها . قال الشاعر : منذ أشهر . قال رءوف : ولم تكن تراها قبل ذلك ؟ قال الشاعر : لا أعلم أنى رأيتها قبل أن تلم بنا تلك الأحداث . وهنا أطرق رءوف إطراقة طويلة . ثم قال : أما أنا فأعرف متى رأيتها لأول مرة . أتذكر تلك الليلة التى أنفقتها فى مكتبى ساهراً أنتظر الصباح ! فى هذه الليلة رأيت هذه النار تتألق من وراء النهر . ولست أدرى لماذا وصلت نفسى الحائرة بين ظهور هذا اللهب المضطرب ، على هذه القمة

الساكنة ، وبين مصرع تلك الفتاة التى أغواها نعيم ، وقتلها أخوها فى العاصمة على ملأ من الناس . لقد ألقى فى روعى ليلتئذ أن هذه الفتاة قد عبرت النهر لتستقر فى حيث يستقر الذين يعبرونه دائماً ، وأن بين هذه الفتاة فى دارها النائية وبين دارنا هذه أسباباً لم تنقطع وأوطاراً لم تنقض ، فهى تشير بهذا اللهب ، الذى يخفق دائماً ، ولكننا لا نراه إلا حين يجن الليل ، إلى ما بينها وبيننا من أسباب وأوطار .

قال الشاعر وهو يرفع القدح إلى فمه : تفسير لابأس به . إنك لتعلم أن ما وراء النهر أشد غموضاً من أن تنفذ إليه أفهامنا . وطالما سألت النهر عما وراءه فلم ينبئ بشئ . قال رءوف : أما أنا فما أشك فى صدق ما أحدثك به ، وإلافما بال هذا اللهب لم يخفق ، وما بال أعيننا لم تره إلامنذ صرعت تلك الفتاة ! ولكن فى الأمر ما هو أشد من هذا غرابة وأعظم خطراً . أتعلم أنى أجد فى خفق هذا اللهب شيئاً يشبه أن يكون دعاء لى ، وأن نفسى تنازعنى إلى أن أعبر النهر ؟ قال الشاعر : حسبك! فانى أخشى على عقلك الاختلاط . ولو علمت أنك تسمع لى إن أشرت عليك ، لقلت إن حاجتك إلى الرحلة والاغتراب ليست أقل من حاجة نعيم . قال رءوف فى صوت يشبه أن يكون همساً ، وقد مال إلى أذن صاحبه كأنما يريد أن يسر إليه : فانك لا تعرف من القصة كل شئ . قال الشاعر : وفى القصة إذن شئ غير ما علمت ؟ قال رءوف: نعم ، فى القصة أن هذه الفتاة كانت قد وقعت من نفسى موقعاً غريباً ، قبل أن يفتن بها نعيم .

طه حسين

[يتبع]

فى أفق السياسة العالمية

حديث الامبراطورية البريطانية

تقول الأساطير الاغريقية القديمة ان البطل الأثينى ثيسيوس Theseus حين ذهب إلى قصر التيه فى جزيرة كريت متحديا ملكها ، أمسك بيده خيطا دقيقا كان يرخيه كلما تابع المسير ، وبذلك أمن العثار ، فلم تختلط عليه مسالك القصر وعرصاته ، واستطاع فى آخر الامر أن يجد لنفسه من التيه مخرجا . وليست الامبراطورية البريطانية الآن من حيث التعقيد والتنويع وكثرة الشعاب أقل من قصور التيه فى الأساطير القديمة جميعا . فما علينا إذا أردنا البحث فى موضوعها إلا أن نسير فى أحنائها ومعاطفها وبيدنا حبل من التاريخ نثبته فى نقط معينة نختارها ، حتى لا نحيد عن محجة الطريق ، ثم نمضى بعد ذلك قدماً فى بحثنا . ولتكن هذه النقط التى نختارها حول تطور حركة الاستقلال فى الاملاك الحرة داخل الامبراطورية البريطانية .

وما دعانى إلى الكتابة فى هذا الموضوع إلا أمران : الأول أن نهرو الزعيم الهندى ونائب رئيس حكومة الهند ، كان قد اقترح على الجمعية التأسيسية التى تضطلع الآن بمهمة وضع الدستور أن تعلن حكومة الجمهورية فى الهند . وقد أرجأت الجمعية بحث الموضوع مؤقتاً . وإقرار هذا الاقتراح يقتضى حتما أن ينزل ملك انجلترا عن لقب «إمبراطور» ؛ فيفقد التاج البريطانى بذلك ألمع جوهرة تزينه . ذلك لأن الملك ليس له أن يتسم بلقب الامبراطور إلا بالاضافة إلى الهند ، أما فى خارج الهند وفى انجلترا نفسها فهو الملك لا غير . فهل مقدر يا ترى أن تصبح الامبراطورية البريطانية اسما على غير مسمى ؟

أما الأمر الثانى فهو ما نلمسه الآن من تعنت الحكومة الانجليزية بشأن الجلاء عن مصر ووحدة وادى النيل . ولو تقصينا تاريخ الانجليز مع أبناء جلدتهم المنتشرين فى أنحاء العالم ، ووقفنا على الجهود التى بذلها هؤلاء فى المستعمرات التى اتخذوها وطنا ، والوسائل التى تذرعوا بها للخلاص من سلطان

البرلمان الانجليزى ونير الحكومة الانجليزية، لأدركنا أنه ليس أوقع فى نظر الانجليز من قوة الأمر الواقع ، وأن الحقوق المهضومة لا يكسبها أصحابها برخصة أوسند من الخارج ، بل يستخلصونها بأيديهم ويستمدونها من ذات أنفسهم أولا ؛ وحينئذ لا يلبث الناس جميعا أن يعترفوا لهم باستحقاقهم لما أحرزوه . وقد سلخ الانجليز قرابة ثلاثة قرون ونصف قرن يزاولون الاستعمار فى قارات العالم القديم والجديد ، وقد صادفهم فى أثناء اضطلاعهم بهذه الشؤون ظروف مواتية وثروات طائلة ، إلى جانب محن وأحداث وحروب وثورات ودروس وتقلبات كان من شأنها أن تكسب الحكومة الانجليزية خبرة ومرانة فى تكييف مسائل الشعوب الصغيرة والضعيفة التى تعرض لها . ولكننا مع الأسف نراها كملوك البوربون فى فرنسا فى القرن الماضى لم ينسوا شيئا ولم يتعلموا شيئا كثيراً ؛ فهى إذا تعلمت كيف تعامل أبناءها وبناتها متى شبوا عن الطوق ، نراها مع غير هؤلاء تعيد كتابة اللوح القديم من ألفه إلى يائه ، وتقف أمامهم ملوّحة بعصاها فى انتظار الناقوس الذى سيدق حتما مؤذنا بانتهاء حصة المدرس وانصراف التلاميذ إلى بيوتهم حيث آباؤهم وأمهاتهم وبنو عشيرتهم يلقنونهم دروس الحياة فى الحرية وحب الوطن .

وقد كابدت انجلترا أول دروسها فى أمريكا ، وكان تلاميذها من صفوة أبناء الطبقة المتوسطة أولئك الذين جاهدوا بأموالهم وأرزاقهم وعزائمهم فى سبيل مبادئهم وضمائرهم ، واشتروا الحرية فى العالم الجديد بكل ما كان عزيزاً عليهم فى العالم القديم .

فهل نعموا حقا بالحرية التى تعشقوها ، ورضيت لهم انجلترا فى مقامهم الجديد بحق الاستقلال الذاتى يباشرونه بحراسة الحكومة الانجليزية وتحت إشرافها ؟ لم يحدث شىء من ذلك ، بل ظلت الحكومة الانجليزية تتدخل فى شؤونهم ، فتفرض عليهم القوانين التى يسنها البرلمان فى إنجلترا ، وتطلب أن يعرض عليها ما تقرره مجالس المستعمرات للموافقة عليه أو رفضه ، وتتدخل الكنيسة الانجليزية فى شؤون المستعمرات الدينية ، على حين أن الرواد الأوائل من هؤلاء المستعمرين لم يهاجروا من بلادهم إلا فراراً من التحكم فى ضمائر الناس ومعتقداتهم . وأخيراً أصرّ البرلمان الانجليزى ومعه الحكومة على تقرير رسوم وضرائب جديدة على أهل المستعمرات لتسديد بعض الديون التى

كابدتها إنجلترا فى حروبها ضد فرنسا . فاعترض أهل المستعمرات وقالوا إنهم غير ممثلين فى البرلمان الانجليزى ، ولا يستجيبون فى دفع الضرائب إلا للقوانين التى تصدرها جمعياتهم التى يمثلون فيها . وقد بعثوا بموقفهم هذا النظرية القانونية المشهورة التى تقول : « إنه لا ضريبة من غير تمثيل » . ومع أن الحكومة الانجليزية قد اضطرت إلى سحب بعض هذه الضرائب التى كانت قد فرضتها فان البرلمان قد أصرّ على حقه فى التشريع لجميع أجزاء الامبراطورية البريطانية . وكانت نتيجة هذا التعنت من جانب الحكومة الانجليزية أن نشبت حرب الاستقلال الأمريكى فى سنة ١٧٧٥ . وقد لاقى أهل المستعمرات فى أول الأمر محناً وشدائد عدة ؛ فقد كان يعوزهم المال والرجال ، وينقصهم حسن القيادة وهم يحاربون أقوى دول الأرض بحراً وأكثرها مالا وجاهاً . ولكنهم سرعان ما حزموا أمرهم وجمعوا كلمتهم ، فاختاروا لقيادتهم بطلهم جورج واشنجتون ، فجعل يدرب الجيوش ويرسم الخطط ويتفق عليها مع أصدقاء أمريكا من قواد فرنسا وأسبانيا اللتين اغتنمتا الفرصة وأعلنتا الحرب على إنجلترا . وكان مندوبو المستعمرات الأمريكية قد اجتمعوا فى مدينة فيلادلفيا فى مايو سنة ١٧٧٦ وأعلنوا استقلالهم فى الوثيقة التاريخية التى قالوا فيها تأييداً للآراء الديمقراطية التى تقوم عليها حكومة الولايات المتحدة : « إن الحكومات تستمد قوتها من إرادة المحكومين ورضائهم . فاذا أخلت حكومة بذلك الأساس صار من حق الشعب أن يقوض هذه الحكومة ويقيم بدلا منها غيرها على أسس ومبادىء خليقة بأن تحقق للناس أمنهم وسعادتهم . »
وكان لاعتراف فرنسا وأسبانيا وغيرهما من دول أوربا التى كانت تنقم على إنجلترا حق سيادتها على البحار أثر ظاهر فى تقوية الروح المعنوية لدى الأمريكيين ، وتحوّل الحرب من البر إلى البحر بوقوف الدولتين الاستعماريتين المتنافستين إنجلترا وفرنسا وجهاً لوجه . واستمرت الحرب سجالاً بين الجانبين إلى سنة ١٧٨١ حين انتصر واشنجتون وحلفاؤه الفرنسيون ، واضطر الانجليز إلى التسليم أمام يوركتون ، وعقدت معاهدة الصلح فى سنة ١٧٨٣ ، وبها أقرت إنجلترا استقلال الولايات المتحدة ؛ وبذلك انطوت الصفحة الأولى من سجل الاستعمار الانجليزى . ولو أن إنجلترا كانت قد سارعت إلى إجابة أبناء مستعمراتها إلى ملتمسهم برفع الضرائب والرسوم المفروضة عليهم كرهاً

والنزول عن حق التشريع لجماعات تفصلهم عنها آلاف من الأميال يقتضى طيها فى تلك الأيام ذهاباً وإياباً ثلاثة أشهر على الأقل — لبقيت أمريكا إلى اليوم إحدى مجموعة الأمم الحرة داخل نطاق الامبراطورية البريطانية .

ولكن خيبة الأمل التى عانتها إنجلترا بضياع الولايات المتحدة من يدها قد علمتها أن تحترس وتسخو فى معاملاتها مع باقى المستعمرات التى تقوم على جهود المستعمرين من الانجليز وغيرهم من الشعوب الأوربية ، فانتهجت فى كندا سياسة ما لبثت أن اتخذتها نموذجاً احتذته فى باقى المستعمرات . ففى سنة ١٨٣٧ عين لورد درهام **Durham** حاكما عامًّا على كندا ؛ وكان الغرض الأول من تعيينه تهدئة النفوس الثائرة ضد الموظفين الانجليز الذين كانت ترسلهم الحكومة الانجليزية لشغل الوظائف التنفيذية ، وتسوية الخلافات بين أهل المستعمرة من الانجليز والفرنسيين . فنجح درهام فى مهمته ، وقبل أن يبارح البلاد فى سنة ١٨٣٩ وضع تقريراً تاريخيا هاما فى سياسة الاستعمار ضمنه المبادىء الكبرى التى سارت عليها الحكومة الانجليزية فيما بعد . وتتلخص هذه المبادىء فى ضرورة منح المستعمرات حكومات ذاتية ، تكون مسئولة رأسا أمام الهيئة التشريعية فى المستعمرة ، وضم الأقاليم التى تتألف منها المستعمرات فى نظام فدرالى أو اتحادى شبيه بالنظام الذى سلكته الولايات المتحدة . وكان إنشاء السكك الحديدية قد بدأ ينتشر حينذاك ، فحض لورد درهام على تعمير البلاد وربط أطرافها ببناء السكك الحديدية ؛ وبذلك تأتلف الأقاليم وتندمج المصالح ويكثر العمران . وقد أقرت الحكومة الانجليزية هذا النظام ، واتبعته تدريجيًّا فى كندا ثم فى سائر أملاكها . وبعد أن كان النزاع حادًّا بين الانجليز والفرنسيين الذين استعمروا وادى نهر سنت لورنس فى كندا اتفق العنصران وائتلفت مصالحهما ، وأصبحت اللغة الانجليزية واللغة الفرنسية التى يتكلمها ٣٠ فى المائة من سكان كندا مستعملتين رسميًّا فى البلاد . وقد تمتعت كندا بالحكم الذاتى فى سنة ١٨٤٩ وتألفت حكومة الدومنيون باتحاد ولايات كندا سنة ١٨٦٧ .

وحذت أستراليا حذو كندا ، فبدأت ولاياتها تتمتع بالحكم الذاتى منذ ١٨٦٠ ثم توالت الأحداث التى جعلت أهل الولايات يطالبون بتكوين اتحاد

فدرائى ، حتى يمكن مواجهة الخطر الصينى واليابانى ، وكان كلاهما يهدد القارة الجديدة بخطر داهم . فالصينيون كانوا يتزحون بسرعة وبكثرة للعمل فى مناجم الذهب والنحاس التى استكشفت فى استراليا . واليابان كانت تعد نفسها الدولة الحربية البحرية الأولى فى الشرق الأقصى ، وكانت ترنو ببصرها نحو أستراليزيا . لذلك اتفق الاستراليون على تأليف حكومة اتحادية ، وأصدر البرلمان الانجليزى قانونا بذلك فى سنة ١٩٠٢ ، ولم يطلق الاستراليون على اتحادهم اسم « الدومنيون » مثل كندا ، بل أسموا اتحادهم « الكومنولث » Commonwealth وهى أقرب الكلمات إلى معنى الجمهورية . ولم تشترك نيوزيلندة فى هذا الاتحاد ، بل كونت حكومة ذاتية مسئولة منذ ١٨٥٢ وجعلتها صورة قريبة من شكل الحكومة الانجليزية . وأهل نيوزيلندة من أشد الناس تعلقا بالامبراطوية البريطانية وأكثرهم شبها بآبائهم وأجدادهم .

أما فى جنوب إفريقية فقد صادف الاستعمار الانجليزى من جانب المستعمرين الهولنديين الذين عرفوا بالبوير صلابة وشدة مراس ، أدت فى النهاية إلى نشوب حرب مريرة بين العنصرين . وقد آلت مستعمرة الرأس من الهولنديين إلى الانجليز فى أثناء الكفاح بين فرنسا وانجلترا فى عهد الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت ، وكانت هولاندة خاضعة إذا ذاك لنابليون باسم جمهورية بتافيا . وقد تأيد امتلاك انجلترا للمستعمرة بمقتضى قرارات مؤتمر فيينا. ولكن الهولنديين الذين هاجر أجدادهم من بلادهم ، كما فعل المستعمرون الأمريكيون ، فراراً من الاضطهاد ، لم يطيقوا أن يخضعوا لحكم الانجليز ، فأخذوا يرحلون بين سنتى ١٨٣٥ و ١٨٣٧ بالمئات من دورهم ومعهم أولادهم ونساؤهم وماشيتهم نحو الشمال ، ضاربين فى آفاق الأرض على غير هدى ، مستهدفين لغارات القبائل الهمجية ، ثابتين لتقلبات الجو ووعورة الطرق ، حتى حط بعضهم الرحال فى إقليم ناتال على ساحل المحيط الهندى ، وتابع بعضهم السير غرباً وشمالا حتى استقروا فى إقليمى نهر أورانج والترنسفال . وكانوا يمنون أنفسهم بعد هذه الهجرة أن يعيشوا أحراراً فى مواطنهم الجديدة بعيدين عن مضايقة الاستعمار الانجليزى . ولكن أنّى لهم ذلك وقد أصبحوا مواطنين خاضعين للقانون الانجليزى ! فما زالت حكومة الرأس تتعقبهم مرحلة بعد أخرى حتى مد الأخطبوط الاستعمارى أطرافه واحتضن هذه الأقاليم جميعاً

وما جاورها . وكان إقليم ناتال أول ما امتدت إليه يد الانجليز لوقوعه على ساحل المحيط الهندى ، وإمكان تهديده لمراكز الانجليز فى مستعمرة الرأس . وعلى أثر ذلك هاجر البوير من ناتال بقضهم وقضيضهم تاركين مواطنهم للمرة الثانية سنة ١٨٤٥ ، قاصدين إلى الشمال والغرب والترنسفال والأورنج . ثم هبّت على البلاد نسمة من أريج الحرية ، كان مصدرها حكومة الأحرار فى إنجلترا ، فسمح لمستعمرات الرأس جميعاً بالحكم النيابى ، وأصبح البوير أحراراً فى جمهوريتهم اللتين أقاموهما فى الأورنج والترنسفال . ولكن سرعان ما استكشفت مناجم الماس والذهب فى الترنسفال والأورنج . ولما كان إنتاج الجمهوريتين ، وخاصة فى الترنسفال ، لهذين المعدنين النفيسين قد فاق كل ما كان منتظراً ، فقد انجذب الانجليز من رجال الأعمال وغيرهم من الأوربيين نحو مصدر هذه السعادة الدافقة ، وبدأت الحكومة الانجليزية منذ ذلك الوقت تضع خططها لضم الجمهوريتين. فكأنما كان كشف الماس والذهب فى تلك الأرجاء نذيراً للبوير بضياع حريتهم واستقلالهم .

وقام النزاع بين الانجليز والبوير بشأن حق التمثيل فى الترنسفال ؛ إذ قصره كروجر Kruger رئيس الترنسفال على البوير دون الآخرين ، وكان على رأس حكومة مستعمرة الكاب أو الرأس سسل رودس Rhodes الذى يرجع إليه فضل توسيع النفوذ الانجليزى فى تلك الأرجاء ، وقد دبر سرًّا مع أحد أصدقائه هجوما سريعا على الترنسفال ؛ لكنه مالبث أن أخفق وكسب البوير أول موقعة من مواقع الحرب التى استعرت بين الانجليز والبوير واستمرت إلى ١٩٠٢ . وقد حالف النصر البوير فى أول الأمر ، لضعف القواد الانجليز من جهة ، ومهارة البوير فى الكر والفر من جهة أخرى ، وقد انتهز وليم الثانى إمبراطور ألمانيا الفرصة لاظهار حنقه على إنجلترا ، فأرسل برقيته الشهيرة يهنئ كروجر على انتصاره . وبدا للناس جميعا أن الانجليز لابد مغلوبون أمام صلابة البوير وحنكة قوادهم . ولكن الانجليز ، كطبيعتهم فى الحروب ، تذرعوا بالصبر وضبط النفس على رغم هزيمتهم ، وأخذوا يعدون العدة لفك الحصار عن المدن التى طوقها البوير ، وعينوا لقيادة الحرب اثنين من أكبر قوادهم ، وهما لورد روبرتس Roberts قائداً عاما . ولورد كتشنر رئيسا لأركان الحرب . وعلى أثر ذلك توالت انتصارات الانجليز وفك الحصار

عن المدن ، وآخرها مافكنج . ومن ثم سقطت بريتوريا عاصمة الترنسفال ، وجوهانسبرج الشهيرة بمناجم الذهب ، وكذلك سقطت مدن جمهورية الأورنج حليفة الترنسفال فى الحرب ، واضطر الرئيس كروجر إلى الفرار إلى أوربا حيث بقى بها إلى أن مات سنة ١٩٠٤ . ولكن البوير كشعب وجيش محارب لم يقهروا ولم يذعنوا ، بل لجأوا إلى حرب العصابات ، وأخذوا يغيرون باستمرار على السكك الحديدية ومراكز الانجليز وقواعدهم ليلة بعد أخرى ، والانجليز حائرون فى أمرهم لا يعرفون لهم مستقراً . وأخيرا لم يقو البوير على متابعة هجماتهم ؛ فقد أخذت أعدادهم تقل . وكان كتشنر الذى تولى القيادة العامة بعد روبرتس قد أمر بجمع أسر البوير نسائهم وأطفالهم فى معسكرات خاصة تحت حراسة الانجليز ؛ فلم ير البوير مندوحة من مفاوضة الانجليز للصلح .

وانتهت الحرب فى مارس سنة ١٩٠٢ بمعاهدة فرينجنج Vereeniging وقد أبدى فيها الانجليز كثيرا من الكرم والمروءة ، فدفعوا للبوير تعويضا عما أصاب مزارعهم وحقولهم من التلف ، وقرروا أن يبقى تعليم اللغة الهولندية بالمدارس ويستمر استعمالها بالمحاكم ، وأن يتمتع الذين يستسلمون منهم بحرياتهم وأملاكهم كاملة . وشفعوا هذه المعاهدة بعد خمس سنوات باعطائهم حق الحكم الذاتى . وبعد ذلك بسنتين تألف اتحاد جنوب إفريقية من الولايات الاربع : الرأس وناتال والترنسفال والأورنج ، وصارت اللغة الهولندية المعروفة فى جنوب إفريقية بالأفريكان Africaans رسمية إلى جانب اللغة الانجليزية . ويبلغ عدد البوير الذين يتكلمون هذه اللغة نحو ٦٠ فى المائة من مجموع السكان الاوربيين . ولما آنسوا صعوبة فى تعيين العاصمة اتفقوا على حل ظريف ، وهو أن تكون بريتوريا مقر الحكومة التنفيذية ، ومدينة الكاب مقر الهيئة التشريعية ، وبلمفتين عاصمة الاورانج مقر الهيئة القضائية العليا ، واختاروا لرياسة حكومة الاتحاد القائد البويرى بوذا Botha ومنذ ذلك الوقت أخذت الجروح التى خلقتها الاجيال السابقة تندمل . وقد اشترك اتحاد جنوب إفريقية فى الحربين العالميتين إلى جانب إنجلترا ، وكان المارشال سمطس رئيس الحكومة إذ ذاك عضواً فى وزارة الحرب فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولا يزال من كبار أساطين السياسة فى الامبراطورية البريطانية .

أما تاريخ إرلندة فمأساة طويلة بدأ الفصل الأخير منها سنة ١٨٠٠ حين

قرر البرلمان الانجليزى ضم إرلندة إلى بريطانيا على غير رضا الأهالى . وقد حاولوا إرضاء الشعور الكاثوليكى فى إرلندة خاصة وسائر أنحاء الامبراطورية عامة برفع القيود المدنية التى كانت تحول دون اضطلاع الكاثوليك بالاعمال الحكومية . ولكن ذلك لم يجد شيئاً ، إذ عمد نواب إرلندة فى البرلمان الانجليزى إلى عرقلة الاجراءات البرلمانية ووضع العقبات فى طريق الوزارات التى كانت تتناوب الحكم سواء من المحافظين أو الأحرار إلى أن قام الوزير الانجليزى المعروف غلادستون زعيم الأحرار ينادى بضرورة إعطاء إرلندة نظام الهوم رول Home rule أو الحكم الذاتى . وقد أثارت سياسته ضجة هائلة بين الأحزاب الانجليزية ، فانحاز عدد كبير من الأحرار إلى جانب المحافظين أو الاتحاديين أى الذين يحبذون بقاء الاتحاد بين بريطانيا و إرلندة ، وظل مشروع الحكم الذاتى لارلندة بين الصعود والهبوط والاقرار والرفض إلى سنة ١٩١٤ حين وافق البرلمان الانجليزى على نظام الهوم رول مع استبعاد إقليم ألستر فى شمال إرلندة من هذا النظام و إبقائه على اتحاده مع بريطانيا .

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فوقفت تنفيذ الهوم رول ، واشترك فيها الارلنديون بحماستهم المعهودة حتى إن الأنشودة التى أصبحت علماً للحرب وتناقلتها الألسن وتغنى بها جنود الحلفاء من كل جنس وفى جميع الأصقاع كانت تردد فى مطلعها الحنين إلى تبرارى Tiperary أحد أقاليم إرلندة تلك الجزيرة الزمردية الخضراء . ولكن كل هذا لم يمنع قيام ثورة مخفقة فى سنة ١٩١٦ بمساعدة ألمانيا ، ثم تكوين جماعة الوطنيين المعروفين بالسن فين sinn fein الذين نظموا صفوفهم تنظيما عسكرياً ، ونادوا باستقلال إرلندة التام .

فما كادت تنتهى الحرب حتى كانت إرلندة فى حالة هياج شديد ضد الانجليز . ولم يلبث أن نشب القتال بين الجانبين واجتمع فى سنة ١٩١٨ ٧٣ عضواً من أعضاء البرلمان الذين انتخبوا من حزب السن فين وأعلنوا جمهورية إرلندة المستقلة ، وكونوا وزارة لارلندة أخذت تواصل أعمال العنف ضد الانجليز ورجال البوليس بصفة خاصة ، واستمرت هذه الحال إلى سنة ١٩٢١ حين بدأت المفاوضات بين ديفاليرا De Valera رئيس السن فين والحكومة الانجليزية . وعقد الجانبان «المعاهدة الارلندية» . وبمقتضاها صار لدولة إرلندة الحرة ما عدا إقليم الستر فى الشمال نظام الحكم الذاتى أو الدومنيون على مثال نظام الحكم فى

كندا . ولكن الوطنيين الارلنديين لم يقنعوا ولم يتقيدوا بهذا النظام ، وسرعان ماتخلصوا من القيود التى فرضت عليهم ، فأبطلوا تعيين الحاكم العام الذى كان يمثل التاج البريطانى ،وخلف يمين الطاعة للملك ، وأصدروا دستوراً جديداً فى سنة ١٩٣٧ أعلنوا فيه الجمهورية ، وجعلوا اللغة الارلندية اللغة الرسمية للجمهورية الجديدة التى أطلقوا عليها اسم « إيره » Eire وأجازوا استعمال اللغة الانجليزية ولكنهم لم يذكروا شيئا فى دستورهم الجديد خاصا بالملك أو التاج البريطانى . ولما أعلنت الحرب العالمية الثانية التزمت إرلندة الحيدة إلى النهاية ، ولا يزال الوطنيون ينقمون على انجلترا فصل شمالى إرلندة عن بلادهم . ومادام الخلاف بين الشعبين يقوم على اعتبارات دينية فان الأمل فى الاتفاق بين الشعبين يبدو غير قريب .

وعلى ذلك فالمستعمرات البريطانية التى تتمتع الآن بنظام الحكم الذاتى هى كندا ،وأستراليا ،ونيوزلندة، وجنوب إفريقية تضاف إليها إرلندة . وكان المحافظون كعهدهم دائماً كلما همت الحكومة الانجليزية باقرار الحكم الذاتى لاحدى هذه المستعمرات جاهروا بأن هذه القوانين لا بد أن تؤدى إلى انحلال الامبراطورية البريطانية وتصفيتها،وحذروا الحكومات من المضى فيها . ومع ذلك فقد احتفظت انجلترا بتعيين حكام عامين يمثلون التاج فى هذه الأملاك ، كما احتفظت فى أول الأمر بقواعدها البحرية وحامياتها ،وبتوجيه السياسة الخارجية للامبراطورية ،وتقرير الحرب والسلم وحق الاحتكام إليها فى المسائل الثانوية والدستورية التى يختلف فيها الرأى . ولكن هذه التحفظات أخذت تتساقط واحدة بعد أخرى؛ إذ جاءت الحرب الكبرى ومكنت المستعمرات من مزاولة الأعمال الدولية فى الحرب والسياسة ،مما قوى فى نفوس أهل المستعمرات شعورهم بالمسئولية الذاتية ، وانبنى على ذلك أنهم اشتركوا فى مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ لابصفتهم تابعين لبريطانيا ولكن باسم بلادهم ، واختير أربعة منهم ضمن الدول المؤسسة لعصبة الأمم ، كما عهد إلى بعضهم ، كاستراليا وجنوب إفريقية ، بالانتداب على بعض الأقاليم والجزر التى كانت تابعة لألمانيا . وكانت الحكومة الانجليزية تنظم بين آونة وأخرى اجتماعات تضم فيها ممثلى الامبراطورية البريطانية للاتفاق على المسائل المشتركة بينها . وكان آخر هذه المؤتمرات فى سنة ١٩٣١ وفيه صدر قانون وستمنستر Westminster الذى وضع القواعد العامة التى تنظم الإمبراطورية . وقد

نص فيها على أن التاج هو الرمز الذى يربط بين أعضاء مجموعة الأمم الحرة البريطانية ، وأن أى تغيير فى وراثة التاج يستلزم أخذ رأى برلمانات الدومنيون على حد المساواة مع البرلمان الانجليزى . ونص فيها أيضاً على أن القوانين التى يصدرها البرلمان الانجليزى لا تسرى على الدومنيون إلا إذا أرادت ذلك برضاها . وبذلك زال أثر القانون القديم الذى كان يجيز للبرلمان الانجليزى حق إلغاء أو تعديل القوانين التى تصدرها المستعمرات . وباصدار هذا القانون أصبحت المستعمرات فى حقيقة الأمر دولا ذات سيادة داخل مجموعة الأمم الحرة البريطانية، وصارت حكوماتها مساوية فى المركز لحكومة بريطانيا نفسها ، وصار من حقها أن تتعاقد مع الدول وأن تتبادل معها التمثيل السياسى ، ولها أن تقرر دخول الحرب التى تشتبك فيها إنجلترا أو ألا تدخلها . ومعنى ذلك أن الملك فى بريطانيا قد يكون فى حالة حرب مع ألمانيا على حين يكون هو نفسه فى حالة سلم معها بصفته ملكا على جنوب إفريقية . وقد جنح التاج أخيراً إلى تعيين الحكام العامين من رجال المستعمرات نفسها .

وقد يبدو لأول وهلة من هذه القوانين أو التصرفات أن الأملاك البريطانية المستقلة لم تعد تابعة لبريطانيا إلا بالاسم ، على أن الحقيقة التى دلت عليها الحرب العالمية الثانية هى أن توافق الأمزجة والمشاعر بين الشعوب التى تسكن هذه الممتلكات وتقديسهم جميعاً للحريات وأساليب الحكم الديموقراطى الصحيح بالاضافة إلى روابط الدم واللغة والدين التى تربط بين معظم هذه الشعوب — كل ذلك قد جعل من التاج الذى يربط الجميع خيوطاً دقيقة رفيعة هى إن دققت النظر أمضى من الصلب وأرق من الهواء .

محمد رفعت

بلاد المغرب

أحاول منذ سنوات ، بقدر وسائل بحوثى اللغوية والتاريخية ، وهى متواضعة ، أن أحدد أوضاع لفظ « المغرب » جغرافية واستعمالا ، فلم أوفق ، على ما يرضينى من دقة . ولجأت إلى من هم أكثر منى توافراً على تلك الدراسات ، ومنهم بعض الأساتذة المستشرقين والمستعربين ، فلم أحظ منهم بما يطمئن . ورجوت أن أعثر خلال رحلتى الأخيرة إلى الشمال الافريقى بين مراجع مكتباتها العامة على ما يهدى فلم أجد . وأخيراً انتهيت إلى الوقوف عند حد « المشهور » ، وهو أن العرب الذين فتحوا أفريقيا هم الذين أطلقوا الغرب والمغرب على ما وراءها نحو المحيط الأطلنطى ، وأن الاصطلاح قد جرى على نعت منطقته البعيدة عن أفريقيا بالأقصى تمييزاً لها وتعييناً ، كما يجرى عرف العامة الآن على تسمية ما بين المغرب الأقصى وتونس بالوسطى ، وهى المنطقة الوسطى من مناطق الجزائر السياسية الحالية ؛ لأن منطقتها الغربية بعاصمتها تلمسان إنما كانت دوماً من المغرب الأقصى ، ولأن منطقتها الشرقية حتى قسطنطينة كانت دوماً من أعمال أفريقيا . ولم يجر ، عند حد علمى ، استعمال « المغرب الأدنى » للدلالة على شئ بعد .

أما تحديد المغرب الجغرافى فانه يبدأ عند المصريين والمشارقة من حدود مصر الغربية ، أى إنه يشمل برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وهو عند المغاربة فى عموم من حدود تونس الشرقية ، فلا يشمل طرابلس ولا برقة . لكن التحديد الوارد فى بعض الموسوعات وفى بعض المؤلفات فى الأجناس إنما يعتبر صحراء لوبيا الكبرى هى الفاصلة بين المشرق والمغرب ، وهى الصحراء التى تقوم من ناحية البحر المتوسط بين برقة وطرابلس ، فتكون برقة ومصر وما شرقيهما إلى الخليج الفارسى بلاد المشرق ، وتكون طرابلس وتونس وما إلى غربيهما إلى المحيط الأطلنطى بلاد المغرب .

أما سكان المغرب فهم فى كثرة عظيمة من العنصر البربرى الذى استوطن

شمال أفريقيا منذ عرف التاريخ هذا الشمال . والمعتبر الآن عند المؤرخين أن البربر كنعانيون ، هاجروا مخترقين مصر ولوبيا منتسبين لمازيغ بن كنعان ابن سام بن نوح ، فدعوا أنفسهم « الأمازيغ » ، وفسروا اللفظ على أنه يعنى « السادة الأحرار » لا يتحملون الخضوع لسلطان ولا يذعنون إلا للقوة على مضض ، ولا يخالطون . وقد ذكر ابن خلدون أن البربر ارتحلوا مما بين النهرين ، وأنهم أقاموا بعض الوقت فى مصر قبل أن يقصدوا إلى شمال أفريقيا « خوفاً أو طمعاً » كما فعلت من بعد « فى دولة الحماديين جماعة عظيمة من الأعراب من صحراء مصر » . وذهب هذا المذهب البحاثة الفرنسى دوما ؛ إذ قرر أن البربر من أبناء كنعان ، وأن بينهم وبين أهل الصعيد المصرى وجوه شبه عدة . وأيد غيره هذا التقرير بأنه يوجد حتى اليوم « فى الزناقة وهى قرية فى جنوب الجزائر عند منتصف الطريق بين بنى سويف وواحة الفقيق — وهما بالجزائر أيضاً — رسم بربرى عتيق منقوش على صخر يمثل الاله المصرى آمون بصورة كبش على رأسه شمس مماثلة لصورة آمون رع المنقوشة على حجر بمعبد الكرنك الفرعونى » .

والبربر قلة فى تونس حيث العنصر العربى هو الغالب ، وقد كانت الفتوحات الاسلامية تعتبرها هى المعسكر والمستقر ، لكنهم كثرة فى الجزائر وفى مراكش. وقد تعربوا لغة فى عموم ، وأسلموا ديناً فى شمول ، بل إن الاسلام ليبدو فيهم أمتن وأدنى إلى الغلو والاغراق ، وإن كانت بينهم قبائل تريد أن تتميز ببربريتها فتحافظ على تقاليدها الخاصة فى الاجتماع . وتستند هذه التقاليد إلى نظام الأسرة ، فتكون من مجموع الأسر التى يتحد أصلها وحدة اسمها الخروبة تخضع لسلطة كبيرها الذى يشرف على حفظ النظام وفض المشاكل العائلية والقضايا المدنية ، ويرجع إليه أمر الزواج والطلاق ، ويقوم باكرام الزائرين والضيوف ، ويسير الأمور الفلاحية ويوزع أعباءها على أفراد خروبته .

ومن مجموع الخروبات تؤلف القبيلة مجتمعة حول ذكرى جد أعلى . وتعنى القبائل أكبر عناية بموضوع الحرمة أى احترام الجوار لأرض القبيلة أو القرية وشرفها، ويتحالف القبيلة مع القبائل الأخرى للهجوم أو الدفاع أو تبادل المصالح .

وللبربر مجالس عرفية هى مجالس الجماعة يجتمع فى كل منها رؤساء الخروبات والمشايخ والأعيان ويلقبون بالضمان . ويختص المجلس بالنظر فى قضايا الجنايات والجنح وفى الشؤون السياسية والمالية ، ويقوم بعمارة المسجد

والمحافظة على المقابر وتوزيع مياه الرى وإضافة رجال السلطة . ويجب أن تصدر قرارات المجلس باجماع الآراء ، فان لم ينعقد الاجماع على رأى تأجل صدور القرار إلى وقت ملائم آخر ، أو جرى تحكيم أجانب عن المجلس فى موضوع الخلاف، ويكون قولهم هو الفصل . وللمجلس رئيسه ينفذ قرارات الجماعة ويسهر على الأمن واحترام الأخلاق .

ويقع شئ من الخلاف على تسمية الجزء الرابع من أجزاء المغرب بعد طرابلس وتونس والجزائر : فمن قائل إنه مراكش ، ومن قائل إنه المغرب الأقصى ومن قائل إنه المغرب . ويقع هذا الخلاف فى التعبير فى بلاد المغرب كلها وفى بلاد المشرق أيضاً . أما فى بلاد المشرق وفى تونس فيغلب استعمال مراكش للدلالة على ذلك الجزء الرابع ، ويقل استعمال المغرب الأقصى ، ويندر استعمال المغرب وحده . وأما فى الجزائر فيندر استعمال مراكش ، ويتناوب القوم استعمال المغرب أو المغرب الأقصى . وفى الجزء الرابع ذاته يغلب استعمال المغرب ويتداول استعمال المغرب الأقصى ويندر استعمال مراكش . على أن بين أهل الذكر والشباب المثقف تياراً متجهاً إلى إيثار استعمال مراكش . ويستند هذا الاتجاه إلى أن التعبير بالمغرب فى شموله قد قل كما قل استعمال لفظ المشرق ، وأن التعبير بشمال أفريقيا هو الذى أخذ يغلب استعماله ، أو أن التعبير بالغرب العربى مقابلا « للشرق العربى » هو الذى يدعى له الآن فى بعض البيئات ، وأن النعت بالأقصى يستدعى قيام مقابلة التعبير بالأدنى والأوسط ، وشىء من هذا لم يجر به اللسان ولم تجر به الأقلام لا فى العربية ولا فى لغة من اللغات الأجنبية . وكذلك يستند الاتجاه الجديد إلى أن مراكش هو الاسم القديم الأصيل لتلك المنطقة ، وقد أطلق عليها أخذاً عن اسم عاصمتها على النحو الذى كان ذائعاً فيما مضى من عهود ، وأنه مركب من لفظين ، يرجع أحدهما إلى أصل عربى صميم ، ويرجع ثانيهما إلى أصل بربرى ؛ فكأنه يمثل الوحدة الحالية بين فريقى السكان المتآخين ، و « مر » بضم الميم فعل أمر من مر و « كش » بضم الكاف أيضاً معناها بالبربرية سريعاً . وإلى هذا فان أصحاب الاتجاه يحسبون تحقيقه تحية منهم للاستعمال المشرقى ، وهم يريدون أن تحكم الأواصر بين المغرب والمشرق . . .

ويختلف الوضع الدولى فى بلاد المغرب باختلاف هذه البلاد ذاتها . فاذا أخذنا بوجهة نظر المشارقة إلى بدء حدوده عند تخوم مصر الغربية ، فان ذلك الوضع فى برقة هو وضع إحدى المستعمرات الايتالية التى قضى مشروع معاهدة الصلح مع إيتاليا بنزول هذه الدولة عن حقوقها فيها ، وبتأجيل تقرير مصيرها سنة . وهو كذلك وضع الاقليم الذى تحتله قوات بريتانية وتتولاه إدارة بريتانية خالصة . أما الموقف من طرابلس فهو أيضاً ذات الموقف من برقة من حيث الاعتبار النظرى وتأجيل المصير النهائى إلى سنة والاحتلال بقوات بريتانية . لكنه يختلف من ناحية أن الادارة فيه معهود بها للموظفين الايتاليين الذين كانوا يتولونها قبل الحرب ، تحت الاشراف البريتانى . والوضع فى تونس وضع الارتباط بمعاهدتى حماية مع فرنسا منذ سنة ١٨٨٢ . والوضع فى الجزائر أنها تؤلف ثلاث مقاطعات فرنسية تتكون منها ولاية عامة . وأما الوضع فى مراكش أو المغرب الأقصى فرباعى المظاهر : مظهر الحماية الفرنسية فى المنطقة السلطانية الكبرى ، وعاصمتها الآن هى الرباط ، ومظهر الحماية الاسبانية فى المنطقة الخليفية الصغرى وعاصمتها الآن تطوان ، ومظهر اللحاق المباشر بأسبانيا فى سبتة و مليلة ، ثم مظهر الادارة الدولية فى الركن الأصغر المطل على المحيط الأطلنطى والبحر المتوسط وهو ركن طنجة . ورأس الدولة فى هذه المناطق ، إلا سبتة ومليلة ، هو سلطان المغرب الأقصى الجالس على عرشه فى الرباط ينوب عنه خليفة من بيته فى تطوان ، ويمثله مندوب فى طنجة . و إلى جانب السلطان المقيم العام الفرنسى ، و إلى جانب الخليفة المندوب السامى الاسبانى ، و إلى جانب المندوب مجلس إدارة يرأسه الآن « مراقب » برتغالى يعاونه مديرون فرنسى وأسبانى و بريتانى وأميريكى وبلجيكى وهولندى يلحق بهم فى القريب روسى . . .

وكانت الفكرة التى سادت « تدويل » منطقة طنجة إنما هى فكرة الاعتبار الاستراتيجى البريتانى ، وقد أرادت بريتانيا العظمى ألا تقابل جبل طارق — قلعتها فى الشاطىء الأوربى من مدخل البحر المتوسط — قلاع لدول قوية على الشاطىء الافريقى . أما الفكرة التى سادت فتح الجزائر فحماية تونس فحمايتى المغرب الأقصى ثم فتح طرابلس الغرب ، فكانت هى فكرة الاستعمار والاستعمار المباشر ، إذ نظم انتقال الفرنسيين والأسبانيين والايتاليين ، وكثر

بين الفرنسيين أهل الألزاس عندما استولت عليها ألمانيا بعد حرب السبعين وأهل الكورس ، كما كثر بين الايتاليين أهل صقلية ، وانضم إلى الجوانب كلها نازحون عن مالطا ، وإذ نظم بينهم امتلاك الأراضى ، وهيئت لهم أسباب الاستثمار ووسائل الفلاحة ، ودخل فى أبواب هذا التنظيم تجريد الملاك الأصليين والدفع بهم إلى الداخل ، وفك الأحباس واعتبارها من أملاك الدولة وتوزيعها على النازحين . . .

وقد نشأت عن هذه الخاصية ، خاصية الامتلاك الواسع والاستقرار الطويل من جانب عدد وفير من الفرنسيين والاسبانيين والايتاليين ومن إليهم ، حالة يتميز بها المغرب فى عمومه عن مصر وبلاد المشرق فى عمومها كذلك . فالحياة فيه حياتان ، تكاد تكون الواحدة منهما منعزلة تمام الانعزال عن الأخرى .

ولقد شهدت فى تونس والجزائر ومراكش — وهى الأقطار التى زرتها أخيراً — أن سياسة العمران مستندة إلى مبدأ الثلاثية ، فكل مدينة مؤلفة من ثلاث وحدات : المدينة القديمة ، والمدينة الجديدة ، والمدينة الأوربية . والمدينة القديمة هى الأصيلة العتيقة التى تحرص إدارة الفنون الجميلة على إبقاء قديمها على ما هو عليه مهما يكن هذا الابقاء منافياً لأصول الصحة ومستلزمات الراحة . والمدينة الجديدة تتسع الشوارع فيها عن « حارات » المدينة القديمة ، وتقوم فيها الدور التى لا بأس بها . والمدينة الأوربية تشهق فيها العمائر وتنتظم الطرقات وتتوافر فيها وسائل الحديث فى كل شىء . وقد تتصل المدينة الجديدة بالمدينة القديمة أو لا تبعد عنها إلا قليلا ، ولكن المدينة الأوربية تبعد عنهما بكيلومترات . ويقطن الأهلون المدينة القديمة والمدينة الجديدة ، ويقطن الأوروبيون المدينة الأوربية ، فتكون العزلة بين الحياتين . وهكذا أحسست فى بنزرت وفى فاس وفى الدار البيضاء .

على أن هذا التجاور بين القديم والحديث لا تقف مظاهره فى المغرب عند حد العمائر فى المدن ، بل إنه ليتجاوز إلى جميع مظاهر الحياة فى الاقتصاد والاجتماع والثقافة . فآلات الانتاج الحديثة تتاخم الآلات التقليدية العتيقة ، والمذاهب الشيوعية ، تدعو إليها أحزاب منظمة وتنطق بلسانها صحف منتشرة ، تتاخم أضرحة المرابطين ودور أرباب الطرق . ومعاهد التعليم الفرنسى الخالص على ما هو قائم فى باريس نفسها من رياض أطفال ، و « ليسيات » للتعلمين

الابتدائى والثانوى الموصلين لاجازة البكالوريا ، وجامعة كاملة الكليات ملحقة بها معاهد الدراسات العليا ، تتاخم الكتاتيب التى يجلس فيها الأطفال على الحصير ويحفظون فيها القرآن على الطريقة البالية ، وإن كان بينهما نظام وسط فيما يسمونه المدارس الفرنسية الاسلامية وما تمتاز به المدرسة الصادقية بتونس ، وما يتجلى من اتجاه إلى الاصلاح والترقى يلوح فى « الخلدونية » التى أقيمت إلى جانب جامع الزيتونة بتونس لتمّ الدراسة التقليدية بالجوانب العصرية والطرائق الحديثة .

ولقد نشأ من ذلك التتاخم بين القديم والحديث — وإن كانت العزلة بينهما هى المتجلية — شىء من التفاوت فى طبائع الحركات الداعية إلى الاصلاح والتحرر فى بلاد المغرب ، وقد وجدتها هى الأخرى ثلاثية كما سجلتها بالنسبة لحركة العمران فى المدن . ففى تونس مثلا جماعة الزيتونيين ، وحزب الدستور القديم ، وحزب الدستور الجديد . وتستند الجماعة الزيتونية إلى الروح الاسلامية ، ويحرص الدستوريون القدماء على أن يظلوا فى حدود الاصلاح الاجتماعى المعتدل ، ويحمل الدستوريون الجدد طابع التقدم والعصرية . وفى الجزائر يتجلى الطابع الدينى عند جماعة العلماء ، ويستمسك حزب الشعب بالاتجاهات الايمانية الشعبية ، ويذهب زعماء اتحاد البيان إلى حدود الأخذ بالعصرية . وفى مراكش تبرز الدينية عند جماعة الخلافة ، ويقف حزب الاستقلال عند الاستمساك بتعاليم الاسلام . ويلوح لى حزب الشورى والاستقلال أميل إلى طريق التقدميين وإن كان يحرص على ألا يدع حزب الاستقلال يسبقه إلى الظهور بمظهر الاستمساك بالاسلام وتعاليمه .

ويرجع ذلك التفاوت إلى ما بين الزعماء من تفاوت بين أنواع التحصيل ؛ فيتولى الحركات التقدمية من حصلوا العلم فى المدارس الفرنسية أو بجامعة باريس ، ويتولى الحركات الاصلاحية الدينية من نشأوا نشأة دينية فى القرويين بفاس أو الزيتونة بتونس ، ويتولى التوجيه السياسى من كان وسطاً بين الاثنين . على أن حركاتهم كلها من الناحية الوطنية تهدف إلى هدف واحد هو هدف التحرر والاستقلال .

محمود عزمى

سائح فى العالم الجديد ...

[مشاهد مرّ بها الكاتب فى يوم من الأيام التى
قضاها فى نيويورك فى صيف العام الماضى ، يصفها
فى هذه العجالة]

حقا إنه ليوم عاصف .

لم تكن سماؤه ملبدة بالغيوم ، ولم تتطاير فيه البروق ولا دوّت الرعود ، ولم تهطل فيه شآبيب المطر ولا هجهجت الرياح .

إنه كان عاصفاً ببرنامجه الذى أعددته لنفسى ، أو بالحرى الذى أعدوه لى .

أنت الآن فى نيويورك عروس العالم الجديد حضارة وطرافة . . .

أتترك الأيام تتابع يوماً إثر يوم ، دون أن تقتحم المدينة فى عرينها الأصيل ، وفيما يحف بها من أرباض ؟

إنك لتلقى بنفسك فى الشارع تجول فيه وتصول . ولكن أليس لحياة « الشارع » من نهاية ؟

إنها لحياة رخوة على الرغم مما بها من زحمة وتدافع .

هى لا تكلفك إلا هبوطاً إلى الطريق ، وانسياباً فيه ، تزجيك أمواجه . . .

حقا أن للشارع مباهج تفعم النفس من لذة وإمتاع ، ولكنها ذات طابع واحد ، وإن تغيرت ظواهره وألوانه . . .

لقد حللتَ نيويورك منذ قليل ، وستفارقها عما قريب ، فاذا بك تعود خاوى الوفاض إلا من شارع وبعض شارع !

حقٌّ أنك لم تقدم هذه المدينة لنزهة أو طواف ، وإنما قدمت فى مهمة علاج واستشفاء . ولكنك على أية حال سائح أبيت أو رضيت ، وعلى السائح فروض يجب أن ترعى . . .

لقد اندمجتَ فى زمرة أولئك السادة الذين يسيحون فى الأرض ، ويرتادون

البقاع والأصقاع . . . فعليك أن تمثل دور هؤلاء الأبطال ، لتشبع من نفسك غرورها المنهوم !

للسائح فى كل بلد مقام ملحوظ ، فالتبجيل يكتنفه ، وتيسير سبيله حق له على كل من يتصل به .

إن الأدلاء والتراجمة لا يكادون يلمحونه حتى تراهم يهرعون إليه يخطبون وده ، ويكرمون وفادته ، ويغدقون عليه ألقاب العزة والاعظام .

همهم الأول أن يزينوا له النزهة ، ويعدوا له الأهبة ، ويتخذوا لذلك زخرفاً من القول يبتزون به بضعة دريهمات . . . لا يعنيهم بعد ذلك أأصاب متعة أم ضل سعيه وخاب !

إن السائح فى الواقع هو الرمز الأكبر للتغفل . . . الدليل يعلم ذلك حق العلم ، والسائح نفسه يعلم ذلك حق العلم . بيد أن هذا لا يمنع أن يتحد كلاهما وأن يتصافيا وأن يسلم كل منهما عنانه لصاحبه .

لا يفوت السائح أنه مضحوك منه ، مكذوب عليه ، فى أغلب الأمر ؛ وأن ما يبديه الأدلاء من علائم التبجيل وآيات المصافاة ليست إلا شباكا منصوبة تتصيد مغانمه . ولكنه على الرغم من ذلك يلقى قياده لهؤلاء الأدلاء ، لغير شئ إلا أن يبدو فى أعين الجماهير سائحاً . . . سيداً من السراة الأعلام ، دفع به الترف إلى أن يقدم الديار ، إبهاجاً لنفسه ، وتنعيما لناظره . . .

إنه يطمع فى أن يبرز أمام سواد الناس تحدق به العيون وتحدّق فيه ، وتشير إليه الأصابع إشارة الاهتمام . . . فيحس أنه طراز آخر من الناس أنفس وأغلى، وطينة أخرى من الخلق أطيب وأزكى . . .

إنه فى بادئ الأمر سائح مستطلع ، فاذا غمرته موجة الحفاوات ، وأحاطت به التشاريف من كل جانب ، نسى أن ذلك كله تمثيل وتمويه ، وخيل إليه أنه حقًّا أحد أولئك السراة الأعلام الذين يشار إليهم بالبنان !

بهذه الخواطر رضيت لنفسى أن أكون سائحاً بحق !

أليس لى العذر بعد ذلك فى أن أعدّ هذا اليوم عاصفاً ؟

سألت مرافقى :

— إلى أية وجهة أنت ماض بى ؟

— إلى ولدرف أستريا . . .

— وما هذا « الولدرف أستريا » ؟

— فندق نيويورك الأول ، وإذن هو فندق العالم الأول !

ومثلت أمام ذلك الصرح الشاهق العظيم فى « بارك أفنيو » أصعّد فيه النظر . إنه ليعلو بطباقه ويتشامخ ، وإنه لينبسط يمنة ويسرة ، فاذا به يحتل بضخامته رقعة مربعة من الأرض تتفرع على جوانبها شوارع أربعة فساح . . .

ولم يطل بى التطلع ، خشية أن يعاجلنى دوار ، فاندفعنا مقتحمين بابه ، فطوانا الصرح فى جوفه طى القطرة فى صخب الأمواج ، وأخذ يرمى بنا من جانب إلى جانب ، كأننا فى قصر التيه ، ندور فى مسالك متشابكة مفض بعضها إلى بعض ، لا مدخل لها ولا مخرج .

ولبثنا نجوب هذه المتاهة ، نعرج إلى سمائها ، ونهبط إلى قاعها ، ونضرب فى أرجائها طولا وعرضاً ، تتوالى علينا الصور والمشاهد ، كأننا فى منام مضطرب تتراءى لنا فيه أضغاث أحلام .

ردهات فخمة ، مطاعم متباينة الدرجات ، مسارح ومراقص ، قاعات للمحاضرات ، أبهاء للحلاقة تعد فيها المقاعد عشرات ، مكتبات ، حوانيت ، مضخات للصوت يتعالى ضجيجها حيناً بعد حين . . . وهذه الأكداس من البشر ، تحسبها حزماً ضخمة من أوراق مالية تخطو هنا وهنالك !

وخلف هذه المظاهر المألوفة أمثالها فى دنيا الفنادق ، حياة أخرى مستورة ، لا تقل عنها ضخامة وسعة . . .

أنت إذا قرأت نبأ موقعة حربية طالعتك على الفور صورة الكتائب تلتحم وتتطاحن ، ولكن هذه الكتائب خلفها أمداد أخرى قد تفوقها عدداً هى عدّة النصر الحقة ، كتائب من العَمَلة والصنّاع الفنيين القائمين على الميرة والذخيرة والتمريض وضروب الخدمة العامة .

فذلك ما تراه ماثلا فى هذا الفندق ؛ فان وراء الردهات والقاعات والمطاعم والمراقص وغيرها تختفى حجرات وساحات تحوى المطاهى والمصانع والمغاسل ، فيها جحفل جرار من العمال الساهرين على سد حاجات تلك المدينة الحافلة التى تسمى فى نيويورك فندق ولدرف أستريا !

وسمعنا الدليل يقول خاطف اللهجة ، كأنه يلقى درساً :

« الفندق يتسع صدره لعشرين ألف طارق .

« الفندق يشرب كل يوم أكثر من سبعة آلاف لتر من اللبن .

« الفندق يهضم كل يوم ألفى كيلو من ضروب اللحم .

« الفندق يأكل كل يوم عشرين ألف رغيف .

« الفندق متأهب لأن يقدّم عند الطلب من الأنبذة ماقيمته مائتا ألف دولار .

« الفندق يحوى ثلاثة آلاف من الخدم يتولونه ، إلى جانبهم مئون من ماسحى الزجاج « البهلوانيين » مخصصون لتنظيف ستة آلاف من النوافذ .

« الفندق . . . »

فقلت لصاحبى :

— حسبك !

— ألا تريد أن تعتلى السطح لتشهد منظراً لا يساميه منظر آخر عظمة وروعة ؟

— أريد أن ألتمس عظمة أخرى غير ما أشهد !

وخرجت ناجياً بنفسى من أغوار تلك المتاهة ، أحاول أن أتنسم نسيما يمنحنى الهدوء وراحة الأعصاب .

وسرت خطوات ، وقد لحت فى رأسى أطياف قريتى المتواضعة فى ريف مصر بأكواخها التى لاتناطح شجرة ، بَلْهَ سحابة ، ودارى المتخاضعة التى لاتتطلب نوافذها ألعباناً واحداً يتراقص عليها لتنظيفها ! . . .

وهممت أناجى نفسى :

— حقا أن السعة والضخامة والسموق عظمة أى عظمة ، ولكن أليس فى السذاجة والضآلة عظمة لا تقل عنها قدراً ؟

والتفتّ إلى مرافقى أقول :

— إلى أين المساق ؟

— إلى « أمباير ستيت بلدنج » كبرى نواطح السحاب فى نيويورك فهى إذن أكبر أبنية العالم أجمع !

— أما نتتهى من نواطحكم هذه ؟ إنى لأشعر بها تكاد تحطم رأسى تحطيما !

ومضينا إلى تلك الناطحة التى تربى طباقها على المائة ، والتى يبلغ علوها نحو ألف ومائتين وخمسين قدماً . . .

حقا إنها لمارد من مردة سليمان ماثل بقوامه الفارع المشيق يتعالى فرعنةً

وعتواً . . . فى مستطاعك أن تخترق جوفه بمصعد جِنّى يبلغ قمته فى طرفة عين . هنالك فى رأس ذلك المارد تنظر بعينيه حولك ، فتنكشف لك نيويورك على مد البصر : جزيرة رشيقة ، شوارع منظمة ، حدائق منسقة ، أبنية متراصة ، أنهار جارية ، جبال نائية . . .

وبينما أنت تتملى خلابة هذا المنظر الجميل إذا به يختفى بين غلائل من السحاب تحاصرك من كل جانب ، فلا ترى إلا غيما ينبسط تحت ناظريك ، فيخيل اليك أن المارد قد طار بك بين أجواز الفضاء ، وأنه يخترق بك طباق السماء . ولا يلبث المارد ان يغمض عينيه ، و يجتذبك إلى جوفه ، ثم يهبط بك إلى قراره فى لحظات ، ثم يلفظك فى الطريق ، فاذا بك قد قطعت الرحلة بين السماء والأرض فى غفوة خاطفة من غفوات الأحلام ! . . .

وملت على مرافقى ، وأنا أمر بيدى على جبهتى ، أستعيد يقظتى ، فقلت له :

— ماذا بقى من برنامجك ؟ ألم ننته بعد ؟

— إننا لم نكد نبدأ . . .

— إلى أين بربك ؟

— إلى تمثال الحرية .

— وبعده ؟

— نزهة حول جزيرة مانهاتان . . .

— وبعدها ؟

— جولة مسائية فى أحياء نيويورك الأصيلة .

ووضعت يدى على كتفه فى استسلام وأنا أقول :

— قدنا حيث تريد ؛ فلقد أسلمنا أمرنا إليك و إلى الشيطان . . .

إلى تمثال الحرية .

وحُشرنا فى سيارة حافلة ، جرت بنا إلى منطقة نيويورك الجنوبية : حى كأنه من أحياء أوربا العتيقة ، شوارع مسمّاة ، لم يجر عليها نظام الترقيم الجديد . طرق ليست مخططة بالمسطرة والفرجار ، هى التى تقرب من أفهامنا ونظامنا المعهود . . .

إن هذا الحى هو نيويورك القديمة ، بل إنه أمستردام الجديدة ، محط رحال الهولنديين ، حين هبطوا هذه الدنيا مستعمرين . وما زال هذا الحى يحمل من

هولندة ظلالا ونفحات . . . لقد أقاموا سوراً يحد مدينتهم ، ويحميها من العدوان ، فأصبح مكان السور طريقاً ضيقاً يحمل اسم السور . . .

فى ذلك الحى طفنا طوافاً عاجلا بمتحف لواشنجتون : طُرَف ومخلّفات ومصورات من عهد ذلك الرئيس الأول للجمهورية الأمريكية . . . ما برح المتحف يحمل روح العصور الوسطى ، ويتنفس أنفاس حرب الاستقلال .

إسراع إلى السيارة الحافلة . . .

هبوط عند المرفأ . . .

قيل لنا إننا فى الميناء . ولكن أى ميناء هذا ؟ إنه ساحل مرصوف يتطاول ويمتد دون أن يدرك له انتهاء . فيه تتراص البواخر على نحو أمريكى ، كله زحمة واحتشاد . . .

هنالك زجّوا بنا فى باخرة أو شبه باخرة على الأصح ، فراحت تمخر بنا الماء إلى الجزيرة التى يقوم فيها تمثال الحرية .

أتمثال للحرية هو ؟

إنه يبدو للعين كلما اقتربنا منه كأنه إلهة لذلك المعنى المحبوب الذى تهوى إليه أفئدة البشر !

طالعتنا تلك الالهة بوجهها الوسيم ، ورأسها المتوج ، وثوبها الفضفاض ، ومشعلها البلورى تحمله يدها الطولى . . .

لقد ارتفعت تلك اليد بذلك المشعل ، وما برحت مرتفعة مناراً للسالك ، ورمزاً لتلك الفكرة المثالية المنشودة الخالدة . . .

كرمتْ تلك اليد ، ولا زالت قبلة السلام ومبعث النور وفجر الأمل الرحيب .

هى إلٰهة حقا ، ولكنها من خلق البشر ! . . .

عبقرية فرنسية صاغتها ، ونفخت فيها من روحها . وعبقرية أمريكية أخرى صنعت لها طوداً باذخاً تعتليه لتبعث من عليائه النور على الانسانية الشقية بالظلام . . .

إن فرنسا وأمريكا لتجتمعان فى ذلك النُّصُب العظيم : فى التمثال يتجلى الفن الفرنسى الرائع ، وفى القاعدة تتجلى العظمة الأمريكية بضخامتها وجلالها . . .

نزول فى جزيرة التمثال . . .

صعود فى جوفه . . .

شرفة نطل منها على نيويورك ، فنرى شواهقها مشرقة بهيجة تتجمع متطلعة إلى إلهة الحرية ، كأنها عذارى يتزاحمن مستمدات من أمهن الرءوم روح الحياة !

فترة راحة واستجام فى أحد المشارب .

فقول إلى المرفأ .

وهنالك ركبنا إحدى البواخر ، نستمتع فيها بضع ساعات بنزهة بحرية حول جزيرة مانهاتان . . . وما مانهاتان هذه إلا قلب نيويورك الخفاق !

رشيقة أنيقة هى تلك الباخرة ، لم يعبها إلا ذلك التكدس والازدحام ، ونظام الطوابير الذى استتب أمره فى نيويورك ، فأصبح لا غنية عنه فى كل شئ ولا معدى . . .

وتحركت بنا الباخرة يشق صدرها مجرى من الماء ليناً سهلا فى جو طيع ، كأننا فى سيارة حافلة تقطع بنا طريقاً معبداً من الطرق الفساح .

وأخذنا نشهد مايمر بنا من المبانى والحدائق ، وذلك الطريق العجيب تتعدد طبقاته وتتباين أشكاله ، وهذا الصف الممتد من البواخر والسفائن كأنها كتائب فى يوم عرض عظيم .

وتخيرنا مكاناً ينأى عن الزحمة ، يتوافر لنا فيه الهدوء . . . وما كدت أستمتع فيه بمجلسى وأتنسم نفحات البحر ، حتى علا صوت لا أدرى من أين نجم . إنه يجلجل وسط الباخرة ، وينفذ إلى أعماقها وخوافيها ، هو صوت إنسان يتحدث فى أداة من مضخمات الصوت ، أما ذلك المتحدث نفسه ، فلم أعثر له على ظل . . .

وعلمت أن صاحبنا دليل يكمن فى ركن مخصوص ، يلقى بشظاياه وهو آمن فى مكمنه مستقر . . . لقد أتوا به ليشرح لنا ما نجوز به من المعالم والمغانى .

ليته يعلم أنى أوثر الاستمتاع وحدى ، مستدلا بعينى ، مستوحياً من المعالم نفسها فيض الشرح والايضاح ، تاركا لمخيلتى أن تسبح بى فى آفاق التأمل ما شاءت أن تسبح ، غير مزعجة بمنكر من الأصوات !

ويحك من ثرثار جهْوَرىّ الصوت ، مصم للأسماع !

إنك صوت مجرد . . . لقد طالما بحثت عن شخصك ، فأعيانى العثور عليك .

لعلك اختراع أمريكى جديد . . . ضفدع من طراز حديث فى الصياح والنقيق .

مكانك أيتها الضفدع تستريحى وتريحى !

ولكن الضفدع لا تبرح تنق ، ولا يبرح نقيقها يأخذ على الآذان سبيل الاصغاء !

ماذا تريد أن تقول هذه النقاقة اللجوج ؟

إنها تلم بكل شئ ، وتعبر عن كل شئ ، ماهرة فى الالقاء والتعبير . . .

تارة هى شاعرة تتمدح بمفاتن نيويورك ، ثم لا تلبث أن تنقلب تارةأخرى مؤرخة عالمة تقص عليك تاريخ المبانى والمعاهد والآثار ، وتسرد لك الوقائع والأحداث ، وتشرح لك من ظواهر العمارة والتخطيط ما يدل على إحاطة . . . وهى فى هذا وفى ذلك تحاول أن تكون طلية الحديث ، فكهة الروح ، تلقى عليك النوادر والنكات مستورة حيناً مكشوفة حيناً آخر . ولكنها لا تنتظر منك قهقهة استحسان ولا صفير استهجان . . . إنها ماضية لطيتها ، كالقلم المسترسل ، أو كقرص الحاكى لا يفتأ يدور حتى ينتهى الدور !

الأمر لله أولاً وآخراً أيتها الضفدع . . .

سنشتف كأس لجاجتك حتى الثمالة ، طوعاً أو على كره . . .

كنا نحسبها نزهة تقر لها الأعصاب ، فاذا بها حرب وقودها الأعصاب . . .

وظلت الباخرة تسير ، والضفدع لا يختنق لها صوت من طول النقيق .

عن الشمال مانهاتان وعن اليمين جزائر وخلجان ، وامتداد لنيويورك العظيمة : بروكلن ، كوينز ، برونكس ، جسور شوامخ كأنها أطواد معلقة تكسوها الرهبة والجلال ، أو كأنها مهولات تمددت بأجسادها فوق الماء لتصل بين أجزاء اليابسة !

وسمعت الضفدع تقول :

— أمامكم جزيرة أصدقائنا المجانين !

والتفت أنظر ، فاذا بجزيرة مزهرة مشمسة ، تجوس خلال خمائلها جداول رقراقة ، وفى وسطها مبنى جميل تبدو حوله أشباح تروح وتجئ فى رزانة وهدوء .

ليست جزيرة المجانين إلا جنة عدن !

وددت لو وجدنا السبيل إليها ، لنخلص على الأقل من ضفدع الباخرة ، ولسنا نبالى بعد ذلك أن نحرم ألقاب العقلاء !

وجهر الصوت يقول :

— ها هو ذا سجن البرونكس . . . لا تنسوا أن حجراته مجهزة بآلات تكييف الهواء !

يا للعجب ! . . .

نحن فى بلد يحظى بالسعادة فيه صنفان من منكودى البشر : المجانين والمساجين ! . . .

وانبرت الضفدع تسرد أنباء المعالم والمشاهد ، مؤيدة حديثها بلغة الأرقام : لغة الملايين ، غير ناسية فى كل مرة أن تصف ما تصفه بأنه أعظم أمثاله فى العالم المسكون . . .

هذا معهد بلغت تكاليفه كذا مليون دولار ، و إنه أعظم معهد من نوعه فى العالم!

هذا نُصُبٌ بلغت تكاليفه كذا مليون دولار ، و إنه أعظم نصب من نوعه فى العالم !

يزهى الأمريكى دائماً بثلاث ضخامات :

ضخامة المال .

ضخامة الشكل .

ضخامة الصيت .

و إنه ليؤسس مدنيته على تلك القواعد الثلاث !

وطالعتنا فى أطراف جزيرة مانهاتان غابة من أروع الغابات ، قائمة على تلال عجيبة ؛ غابة موحشة تمثّل البداوة والفطرة فى قلب الحضارة والعمران .

لكأنهم اقتلعوها من مغرسها الأصيل فى المجاهل والأدغال ، وجاءوا بها ليتخذوها طرفة وقرة عين ، كما تجتلب الوحوش من مغاورها وأجحارها ومسارحها لتسكن فى الحواضر حدائق الحيوان . . .

ودارت بنا الباخرة يسرة ، ومضينا . . . فاذا نحن أمام جسر واشنجتون العظيم ، يتلألأ بلونه الفضى فى وهج الشمس ، و يمتد بجرمه الرائع وبسلاسله الضخام ، كأنه صرح ممرد من زئبق رجراج . . .

ثم بدت نيوجرسى مختالة بمصانعها ، يحدها الشاطىء الجميل ، وتتناثر فيها المغانى أنيقة رشيقة ، وتنبسط فيها المروج بهيجة نضيرة !

وما زالت الباخرة تمخر العباب ، والضفدع توالى النقيق ، والمناظر الأمريكية كأنها ألواح فنية يحاول كل لوح منها بفتنته أن يقيد الأنظار . . .

وبلغنا غاية المطاف .

فوقفت الباخرة ، وخرست الضفدع . . .

وإذا بنا نُدفع خارج الباخرة دفعاً ، ويلقى بنا فى عُرض الطريق . . .

والتفتَ إلىّ مرافقى يقول :

— حان وقت الجوْلة المسائية فى أحياء نيويورك الأصيلة . . .

وما كاد الظلام يسبل أستاره ، حتى انبرت له الأنوار الألاقة تطارده ، فيرتد مقهوراً على أعقابه . . .

طرقنا أول ما طرقنا قرية جرينوتش . . .

ليست بقرية ، وإنما هى حى معروف له طابعه وروحه ، ولكن ما سمعناه عنه أكبر من مظهره . . . إنه مثابة الفنانين ، فيه نبت أكثرهم وترعرع . نشأوا فقراء فى أكنافه المتواضعة ، فلما أخذت أسماؤهم تعلو ، وصيتهم يطير ، ارتحلوا عنه إلى منطقة نواطح السحاب ، كأنهم يوازنون ويلائمون بينها وبين ما كتب لأسمائهم من علو وبعد صيت . . .

إن من بين هذه الدور الضئيلة ما هو معروف حتى اليوم باسم أصحابه الأقدمين من الفنانين الذين هجروه وخلّفوه لغيرهم من السكان المحدثين .

إن جرينوتش قرية حقا إذا ووزنت بنيويورك . . . قرية بمنازلها المتخاضعة ونواديها المزوية حيث لا يقيم أهلها شأناً للعرف ولا للتقاليد . . . وما أشبه مشاربها ومراقصها ومغانيها بنظائرها فى مثل ذلك الحى من عواصم أوربا العجوز.

لقد جبنا أرجاء جرينوتش وقضينا فيها بعض الوقت ، ولكننا لم نفز بغير ظاهرها المكشوف ، وليس بذى بال . . . أما الخفى المستور فهو لأهلها خاصة ، لا يزاحمهم فيه واغل دخيل . . . من ذلك الخفى المستور مسارح للفن قائمة ، ولكنه الفن الوضيع فيما يرى بعض الناس ، أو جوهر الفن الحق فيما يرى بعض آخرون ! . . .

فى تلك الدمن تنبت زهرات نواضر تتفتح بين الفينة والفينة ، فاذا نزع الشوك عنها ، وأزيل الغبار منها ، كانت أهلا أن تزين صدور المجامع والمحافل وتنفحها بعطرها الفواح . . .

وطرقنا « البورى » مباءة الاجرام ، ومثوى الصعلكة والتشريد ، ووكر الفن المبتذل الرخيص .

على الطوار يستريح الصعاليك ، فاذا لمحك واحد منهم وآنس فيك مغنما تقدم إليك بجسمه الرخو وثيابه الرثة وخطواته المتسكعة وأنفه المتورم المخمور ، يمد إليك يد السؤال . . . وعليك حتما أن تجيب ، وإلا انقلب السؤال إلى وعيد وتهديد !

يا لله . . . ها نحن أولاء فى أمريكا دنيا الرخاء والثراء ، يلاحقنا ذلك الصنف من الناس ، أولئك المستجدون الذين لا ينقطع لهم سيل فى بلاد الشرق . . . ولكن المستجدى الأمريكى والمستجدى الشرقى يمثل كل منهما طابع أمته وروح وطنه . . . فالسائل فى القاهرة مثلا إذا زجرته استعان عليك بالله ، وانصرف عنك فى استسلام . وأما السائل فى نيويورك فانه يتقاضاك ما يعده حقا له بالظفر والناب ! . . .

وهذه مشارب ومراقص تكتظ على سعتها بالحشود من الأوشاب ، طلاب الدنايا من المتع ، يتجمعون حول موائد الشراب ، وقد اندست بينهم الغوانى المتبذلات . . .

وبدت لنا على منصة فى أحد تلك المراقص امرأة ، بل كتلة خسيسة من لحم وشحم ، بوجه لوّنه الطلاء البشع ، وقد اكتست حلة برقشتها زوائف الزينة والوشى . وهى تصوّت أمام مضخم الصوت فى نغمة منكرة ، موهمة سُمّاعها أنها تشدو وتتغنى !

ما أشبه الليلة بالبارحة !

أليس هذا المكان هو نفسه ذلك المرقص الوضيع الذى كان يزخر بالقصاد فى أحط أحياء القاهرة إبان الحرب العالمية الأولى منذ أكثر من ربع قرن ؟

ألا فلنول فراراً من « البورى » . . .

وحثثنا الخطا . . .

إلى أين ؟

إلى مدينة الصين ، إنها منا على مقربة . . .

حياك الله أيتها الصين النائمة فى وداعة وهدوء . . . إنا ملاقوك بعد قليل ، وإن باعدت بيننا الديار ، وعز المزار . . .

وأقبلنا على ما يسمونه مدينة الصين . . .

حقا أنه حى متميز قائم بنفسه ، لا تطالع فيه إلا أشباحاً صينية فى

أزياء غريبة ، تتناثر بينها الأحاديث فى لهجة تشبه همس القططة !

ثمة حوانيت ترى على جبينها تلك النقوش والزخارف الصينية التى هى فى أغلب الظن أحرف وكلمات !

وثمة دور متواضعة متخاضعة ، وطرق ضيقة غير مستقيمة . . .

ولكن أنحن حقًّا فى مدينة الصين ؟

دخلنا مطعما نستهديه الجواب .

إنه ليحمل نفحة صينية استرعت أنظارنا بظاهرتين :

الأولى تلك الألوان الغريبة التى قدمت لنا ، فكان مذاقها مبعثاً للحيرة والعجب ، و إن الرز ليقدم بينها بديلا من الخبز ، والشاى يقدم أثناءها عوضاً عن الماء !

والظاهرة الأخرى ، ذلك النادل الصينى الذى ما كاد يبدأ خدمته لمائدتنا ، حتى انتحى ناحية عن كثب منا يلتهم عشاءه ، بعصوين تقومان مقام الشوكة والملعقة ، وهو يحركهما فى مهارة تستدر الاعجاب !

وحمدنا لله ما قدّر ويسر ، وخرجنا وفى بطوننا خَواء !

وانصرفنا نسلك الشارع الضيق ، تطل علينا من نوافذ دوره تلك الوجوه الصفر ، والأنوف الفطس ، والحواجب المشرئبة . . .

وسمعت مرافقى يقول :

— هل لكم فى زيارة المعبد ؟

— تالله إنى إليه لمشوق !

مدخل ليس فيه من روح التعبد إلا مظهر ضئيل .

واجتزنا ممرًّا ضيقاً ينتهى بنافذة ، كأنها شباك التذاكر فى دور اللهو . . .

أمعبد هذا أم مسرح تمثيل ؟

واشترينا تذاكر الدخول ، وتابعنا الخطا . . .

بهو غير فسيح تتراص فيه المقاعد ، تزين حائطه نقوش صينية ، وخرق ملونة كأنها أعلام . . . وفى صدر المكان محرابان ، أو بالحرى هيكلان مشحونان بالطُّرف والتماثيل من فن الصين ، يتميز أحدها بالعظمة والفخامة ، وما أظنه إلا تمثال بوذا المعبود . . . إنه حقا لتحفة من تحف النحت ، تدل على صبر الفنان الصينى ودقته وأناقته . . .

وكان دليلنا فى المعبد فتاة صينية على جانب من الرقة والأدب ، انطلقت تصف لنا مراسم الزواج ، وكيف تتم أمام هذا الهيكل .

وحانت منى التفاتة ، فألفيت أريكة ساذجة تتربع عليها امرأة صينية هزيلة تخطت عصر الشباب . . . وسرعان ما أدركنا أنها أم تلك الفتاة التى تقوم فى المعبد مقام الدليل . . .

لقد كانت هذه الأم تمثل فى جلستها بوذا آخر ، بيد أنه بوذا من طينة البشر، منهمك فى تقشير برتقالة ! . . .

واقتربنا من الإله البشرى نبادله إيماءة التحية فى صمت ووقار . . .

ما بال هذه البرتقالة تشوب فى هذا المكان صفاء التعبد ؟

أغلب الظن أن ذلك المبنى دار تسكنها هذه الأسرة ، وقد أحالتها مسرحاً كما نرى تمثل فيه العبادة تمثيلا لا حقيقة له ولا روح فيه . . .

إنه معبد للأجانب من الزوار ، لا للمواطنين من أهل الصين !

ولكن حسبه أنه يكفل الرزق لتلك الأسرة ، ويعينها على أعباء العيش . . فلا ضير علينا فى أن نحنى له الرأس خاشعين !

كثير من معالم المدينة يصور مظاهر من حياة الصين على الأسلوب الذى هو أقرب إلى التمثيل منه إلى الحقيقة والواقع . . .

إن مدينة الصين ، على الرغم من كل شئ ، وعلى الرغم مما قيل فيها وما توصف به ، رقعة من نيويورك لا قطعة من الصين الأصيلة . . .

أراهن على أن الصينى المقيم فى هذه المدينة قد بدأ ينسى صينيته ، ولم يحتفظ منها إلا برطانة كلمات يميز بها شخصيته ، كما يحلى حانوته ببعض الزخارف والنقوش . . . وقد يكون مثله فى ذلك كمثل الملحد الزنديق يتخذ السبحة ليحرك حباتها بين أنامله ملعبة وملهاة !

أراهن على أن صينى نيويورك لم تطأ قدمه أرض الصين يوماً فى حياته ، حتى إنه لم ير منها ظل شنغهاى مدينة الأوربيين فى الصين !

إن مدينة الصين فى نيويورك تمثل ما كان يمثله قصر المهراجا فى معرض ومبلى فى لندن . . . وأخشى أن أقول ما يمثله اليوم مسجد باريس ! . . .

محمود تيمور

أندلسية

[من ذكريات بحيرة لوجانو
السويسرية. صيف عام ١٩٤٦.]

حسنُكِ النشوانُ والكأس الرويّهْ   جددا عهدَ شبابي فسكِرْتُ
حُلْمُ أيام وليلات وضيّهْ   عبرتْ بي في حياتي وعبرتُ
أنا سكرانُ وفي الكأس بقيّهْ   أيُّ خمر منْ جَنَى الخلد عصرتُ
آه هاتي ، قرّبي الكأس إليّهْ
واسقنيها أنت يا أندلسيه

لا تقولي أي صوتٍ مُلْهِمِ   قاد روحينا ، فجئنا ، والتقينا
دَمُكِ المشبوبُ فيه من دمي   روحُ ماضٍ بالهوى يهفو إلينا
أخْتَ روحي ! قرّبيها من فمي   إنْ شربنا أو طربنا ما علينا
آه هاتيها من الحسن جَنِيّهْ
واسقنيها أنت يا أندلسيهْ

كانت النظرةُ أولى نظرتينْ   ثم صارت لفظةً ما بيننا
والهوى يعجب من مغتربين   لم تَقُلْ أنتَ ... ولا قال أنا ...
وسبَحنا فوق وادٍ من لجين   تحت أفقٍ من غمام وسَنَى
أتملاّها سِمات عربيهْ
وأنادي أنت يا أندلسيهْ

صحِتْ يا للشَّمس فى ظلّ المغيبِ تلثم الزَّهْرَ وأوراقَ الشجرْ
خلّتها بين محبٍّ وحبيبِ لحظةً عنـد وداع وسَفَرْ
فانثنتْ تنظر للوادى العجيب صورا يَذْهَبْنَ فى إثر صورْ
وبسمعى همسةٌ منها شجيّهْ
وبروحى أنتِ يـا أندلسيّهْ

ونزلنـا عنـد شطٍّ من نُضارِ وانتحينا خلوةً بعـد زحامِ
قلتُ والليلُ بأعقاب النهار ألكِ الليلةَ فى لحنٍ وجام ؟
ما على مغـتربٍ أهل ودار إنْ أدارا ها هنا كأسَ مدام
آه هاتيها كخـديكِ نقيـه
واسـقنيها أنت يا أندلسـيهْ

واحتوتنـا بين لحن مطـربِ حانةٌ مثـلُ أساطير الزَّمـانِ
صـوّرتْ جدرانها بالذَّهبِ فِتَنَ العشق وأهواءَ الحسانِ
قالت : اشربْ قُلْتُ لبّيكِ اشربى مِـلءَ كأسين فإنّا ظامئانِ
خمـرةً روميـةً أو بابليـهْ
إسـقنيها أنتِ يا أندلسـيهْ

هتفتْ بى ويداها فى يدى تدفع الكأسَ باغراءٍ وعُجْبِ
أىُّ قيثار شـجىّ غَـرِدِ خِلْتُهُ ينطق عن أسرار قلبى!
قلتُ طِفْلٌ من قديم الأبد يمزُج الألحانَ من خمر وحُبّ
مـلء كأس فى يديهِ ذهبيـهْ
فاسـقنيها أنتِ يا أندلسـيه

ومضى الليلُ فنادى بالرواحِ كلُّ خالٍ وتعايا كلُّ صَبّ
وخبا المصباحُ إلاّ كأس راحِ نورُهُ ما بين إيماضٍ ووثب
قد تحدّى وهجُهُ ضوءَ الصباحِ فبقينا حوله جنباً لجنب

نتساقاها على الفجر نديّه
وأغنّى أنتْ يا أندلسيه

يا عروسَ الغرب يا أندلسيه بَعُدتْ داركِ والصيفُ دنا
أين أحلامُ الليالى القمريه والبحيراتُ مُطيفاتٌ بنا
إذكرى بين الكؤوس الذهبيه حانةً ، يا ليتها دامتْ لنا

حين أدعوكِ صباحاً وعشيّه
إسقنيها أنتِ يا أندلسيه

علي محمود طه

فصول لم تنشر من آثار الجاحظ

هذه بقايا كتاب من كتب الجاحظ التى عدت عليها عوادى الزمن ، فلم يبق منه إلا هذه الفصول القليلة ، احتفظت بها المخطوطة البرلينيــة التى أشرنا من قبل إليها ، ونشرنا عنها الرسالة السابقة (١) . وكلا الأثرين يعتبر مظهراً من مظاهر التطور فى النثر العربى ، وإن اختلف موضوعاهما ؛ إذ كان هذا فى الهجاء ، وذاك فى الرثاء . ولكن الهجاء — كالرثاء — فن شعرى ، استأثر الشعر به ، واختص بالتعبير عنه ، حتى حدث ذلك التطور .

وليس بنا فى هذه المقدمة القصــيرة أن نحلل هذه الفصول من الناحية الأدبية ، أو أن نتعرف الخصائص التى اجتمعت لها وجمعت فيها بين روح الشعر وروح النثر ، أو أن نشير إلى بعض الصلات التى تصل بينها وبين كتاب ككتاب «البخلاء» ؛ فلهذا وما إليه موضعه الذى هو أملك به وأوسع له . ولكننا لا نستطيع أن نغفل سؤالا من أخص الأسئلة بهذه الفصول : من عسى أن يكون موضوع هذا الهجاء اللاذع ؟ وماذا عسى أن تكون شخصية الرجل الذى وسمه الجاحظ بهذا الميسم ؟

والفصول التى بين أيدينا لا تسمى ذلك الرجل ، فليس لنا بد من أن نلتمس السبل إليه . ولعل الكتاب لو وصل إلينا كاملا لم تكن بنا حاجة إلى مثل هذا التلمس ، فأكبر الظن أن الجاحظ لم يترك تسميته ، كما صنع فى رسالة التربيع والتدوير وفى معظم فصول «البخلاء» . ومذهبه فى التسمية قد ذكره فى كتاب البخلاء بقوله : « ولسنا من تسمية الأصحاب المتهتكين ولا غيرهم من المستورين فى شىء : أما الصاحب فانا لا نسميه لحرمته وواجب حقه ، والآخر لا نسميه لستر الله عليه ، ولما يجب لمن كان فى مثل حاله . وإنمــا نسمى من خرج من هاتين الحالين . ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيراً ، ورأيناه يتظرف به ، ويجعل ذلك الظرف سلما إلى منع شيئه » . وهذا الرجل ليس من الأصحاب ولا من المستورين ، كما يؤخذ من هذه الفصول .

وإذا كان قد فاتنا أن نعرفه من الكتاب مباشرة ، فقد أتيح لنا أن نعرفه من سبيل غير مباشرة ، بفضل اعتماد كثير من المؤلفين على كتب الجاحظ واستمدادهم منها ؛ إذ نجد عندهم ما ضاع عنده . وبذلك قدر لنا أن نعرف هذا الذى وسمه الجاحظ بكتابه وصبه عليه ، وهو محمد بن الجهم البرمكى . وقد وجدنا ذلك عند ابن قتيبة من معاصرى الجاحظ فى القرن الثالث ، فى كتابيه : «عيون الأخبار» ، و«تأويل مختلف الحديث» ، وعند أبى إسحاق الحصرى من علماء القرن الخامس فى الأندلس ، فى كتابه « زهر الآداب » ، وعند جمال الدين الوطواط من علماء

(١) الكاتب المصرى ، عدد ٩ (يونيه ١٩٤٦)

القرن السابع والثامن فى مصر ، فى كتابه « غرر الخصائص الواضحة » ؛ إذ ينقلون فقرات من هذا الكتاب ، مع النص على أنها فى صفة محمد بن الجهم هذا . كما نجد فى بعض هذه الكتب وفى غيرها كشرح الشريشى على مقامات الحريرى فقرات أخرى فى صفته ، تجرى على سياق هذه الفصول ، حتى ليغلب على الظن أنها مأخوذة من هذا الكتاب .

وإذن فمن هو محمد بن الجهم هذا ؟

هو ـ فيما تؤدى إلينا أخباره القليلة المنثورة هنا وهناك ـ عالم من سراة العلماء فى القرن الثانى والثالث ، نشأ ـ فيما يبدو ـ مولى من موالى البرامكة ، وتربى فى ظلهم ، فاتجه فى الثقافة اتجاههم . وبذلك كانت ثقافته مزاجا من الفارسية ، وهى تمثل العنصر الأول الضرورى منها ، واليونانية ، وهى تمثل ناحية الترف العقلى فيها . ومظهر ثقافته الأولى ترجمته لكتاب خداى نامه الذى ترجمه ابن المقفع من قبل ، كما ينص على ذلك صاحب الآثار الباقية . وأما مظهر ثقافته الثانية فهو هذا الذى عرف به واشتهر عنه من إقباله على كتب اليونان كأرسطو وأقليدس واستغراقه فيها ، حتى اتخذ خصومه من ذلك مادة للتندر به والتشنيع عليه ، كما نرى فى هذه الفصول ، وكما نجد صورة منه عند ابن قتيبة إذ يقول : « ثم نصير إلى محمد بن الجهم البرمكى ، فنجد مصحفه كتب أرسطاليس فى الكون والفساد والكيان وحدود المنطق ، بها يقطع دهره » .

وجملة القول أنه كان من أصحاب الثقافة الممتازة فى عصره . ولعله بهذا استطاع أن يظفر من الخليفة المأمون بالمنزلة الرفيعة التى ظفر بها لديه ، فكان أحد ولاته على الأهواز ، وكان من أصحاب مجلسه الذين يوكل إليهم أحياناً بمناظرة الزنادقة والملاحدة وأهل النحل المختلفة . وقد ألف له فيما يقول القفطى ـ كتابا « فى الاختبارات ، قريب المأخذ صحيح العبارات جدا » . ولكن ثقافته هذه لم تتخذ ـ فيما يظهر ـ صبغة دينية ، فكان ذلك من أول الفروق بينه وبين المعتزلة .

ثم كان من ناحية الخلق الشخصى رجلا شديد الصلف والاعتداد بالنفس ، كبير التيه أنانى المذهب ، فكان لهذا مبغضاً . وقد يكون لمكانه فى القصر ، ومنافسته المعتزلة عند الخليفة . مع اختلاف النزعة العقلية ، ما يمكن أن يعزى إليه هذا الجو البغيض الذى أحيط به وعاش فيه بين سخط المعتزلة وأهل السنة جميعا ، وكان من مظاهره — ولعله يكون من العوامل التى شاركت فى تهيئته — كتاب الجاحظ الذى نملك منه هذه الفصول التى نقدمها اليوم ، بعد أن صححنا نصها ، فى حدود الأصول العلمية للنشر .

طه الحاجرى

. . . وسأخبرك عن هذ الرجل ، من لؤم الطبع ، وسخف الحلم ، ودناءة النفس ، وخبث المنشأ ، بما يشفى الصدر ويثلجه ، ويبين عن الغدر فيه ويكشفه . وأستشهد العدول ، وأهل المخيلة والعقول ، على أنى لم أر له محتجًّا ، ولا عنه مكذِّباً ، ولا رأيت أحداً يرحمه ، أو يحفل به ، أو يمسك عنه ، أو يشفع فيه .

قلت لمعاذ بن سعيد : أدخلت عليه ؟ قال : نعم ! قلت : فكيف رأيته ؟ قال : لا يعود إليه حر .

وقلت للفيض بن يزيد : صفه لى ، فانك تعرف الأمور ؛ وقل ، فانك تحسن أن تقول . قال : يضر — والله — عنده ما ينفع عند الكرام ، وينفع عنده ما يضر عند الكرام . قلت : فكيف عِشْرته ؟ قال : فوق العذاب الأدنى ، ودون العذاب الأكبر .

وقال أبو عقِيل بن دُرُسْت : اللهم إنى أعوذ بك من باطن عزمه ، كما أعوذ بك من ظاهر عمله !

وقال شدّاد الحارثى : لم أر لؤماً قط إلا والدهر ينقص منه أو يزيد فيه ، إلا لومه ؛ فانه قد تناهى فى القوة ، وبلغ أقصى النهاية ؛ وعاد مُصْمَتاً لا يُدخل عليه ، ومشتبهاً لا حيلة فيه . فان كان إلى الغاية أجرى ، فقد حوى قصبات السبق ؛ و إن كان للتفرد طلب ، فقد خلا بالرياسة ، واستبد بالوحدة .

وقال سهل بن هارون : إن الحاسد والغضبان والحاقد والعيّاب ، إذا استنفدوا العيوب ، استثلوا قول الزور ، والتمسوا ما شاكل الحق وقاربه ، وأشبه ما فى المسبوب وناسبه ، وبهتوا الرجل بقرنائه . وفحشُ عيوبه ، وظهور لؤمه ، وكثرةُ الشهود عليه والقائلين فيه ، لا يحوجك إلى اليمين والشاهد ؛ فعائبه سليم من الذنب ، مُغنى من الكذب ؛ لايعيبه ورِع ، ولايسفهه كريم ؛ وله عند ذامه والواصف لعيوبه أياد لا تشكر ، ونعم لا تنكر .

ووصفه آخر فقال : هو منحرف عن الجادّة ؛ يخبط خبط العشواء ، ويحكم حكم الورهاء ، ويناسب أخلاق النساء ؛ لأن المرأة لاتسمو إلى مراتب السادة ، ولا تروم منافسة القادة ، وليس لها من عقلها مادة ؛ همها قصير ، وركنها ضعيف ، وصدرها ضيق ، ورأيها منتشر ؛ وفى قوى هواها فضل على قوى عقلها ، وسخفُ رأيها غامر لرجاحة حلمها ؛ لا تعرف حدود الاعتدال ، ولامواقع الاقتصاد ، ولا التوسط فى الأمور ، ولا عواقب التدبير .

ووصفه آخر فقال : هو يظلم الضعيف ، ويقتل الصريع ، ويذفف على الجريح ، ويطلب الهارب ، ويهرب من الطالب ، ولا يعرف التقية ولا المروءة . يعق أباه ، ويحسد أخاه . العجب شقيقه ، والبذخ صديقه ، والنفج أليفه ، والصلف عقيده .

قد تمكن منه الشيطان ، فهوَّن عليه سخط الرب ، وسهَّل عليه عقاب الأبد ، ووعده الظفر ، ومنّاه السلامة ، ولقنه الاحتجاج بالباطل ، وزين له قول الزور ، ونظم له خلال الشر . فى أنفه خُنْزُوانة ، وفى رأسه نُعَرة ، وكأنما أنفه فى أسلوب . ومن عَظُم كبرُه اشتد عجبه . ومن أعجب برأيه لم يشاور كفئاً ، ولم يؤامر نصيحاً .

ووصفه آخر فقال : أسلمته الحال إلى القسوة ، واستفرغته الغفلة ، واستولى عليه سلطان الطَّبَع ، وكثُف على قلبه حجاب الرَّيْن ؛ فلم يبق فى عقله فضل للاستماع ، ولا فى استطاعته بقية للتصرف . ينبو عنه السيف وإن كان صارماً ، وتقف عنه الحجة وإن كانت قاطعة . ولا يجد النافخ فيه فحما ، ولا القابس قبساً ، ولا المورى زنداً .

قال معمر السلمى — وذكره مرة فى كلام له — : موكل بلوم المحسنين ، والتعجب من المُفْضِلين . يعدّ الاقتصاد جوداً ، والجود سرفاً . ويعجب من الطامع فيه ، والراغب إليه . ويضعِّف مَنْ جزع من الذم ، وهش للحمد . لا يعد الحزم إلا المنع ، ولا العيش إلا الجمع . لم يحدّث عن جواد قط ، ولا ندم على سوء قط ، ولا أمسك عن الاحتجاج له . ثم ماظنك بعِرْق السوء إذا تقادم ، واللؤم إذا تمكن ، والبخل إذا تفحّل ، والفحشاء إذا تمت ، والدناءة إذا كملت ! يعظّم الغنى وإن كان غُفْلا . ومن الأدب خلواً ، ومن حلى الجود عُطُلا ؛ ويحقر المقل وإن كان أديباً ، حكيما عليما ، وحُوّلاً بارعاً ، ولمجهوده باذلا . شديد الكبر على جليسه ، متهاوناً بعظيم حقه . ولو انقطع إليه أبوه ، واحتاج إليه أخوه ، وأعظم الناس عنده يداً ، وأظهرهم فضلا ، لنضحه من غريب الكبر ، ولصب على ذروته من بديع الذل ، مالا يقوم به عز ، ولا ينهض به حر ، ولركبه بما لا يحتمله الكلم ، ولا يروسه العزم . يقدّر أن الله لم يفقر الكريم إلا ليُضْرِع خده ، ولا أغنى اللئيم إلا ليرفع قدره .

وقال ثُمامة بن أشرس ، فى كلام له : لم يطمع أحداً قط فى ماله إلا ليشغله بالطمع فيه عن غيره ، ولا تشفّع فى صديق ، ولا تكلم فى حاجة متحرم به ، إلا ليلقّن المسئول حجة منع ، وليفتح على السائل باب حرمان .

وقال أبو بكر الأصم : لم أر مثله ، بل لم أسمع ، والسماع أكثر ، بل لا أتوهم ، والتوهم أفسح . وما ظنكم بمن يمسى فى غضب الله تعالى وسخطه ،

ويصبح فى خذلان الله وتخليته من يده ! وما ظنكم بمتكلم لا يعرف قوله ، ولا يقضى على مذهبه ؛ سواء عنده التشبيه ونفيه ، والجبر وضده ، والإرجاء وخلافه، ولا يعادى الخارجى ، ولا يتولى النابتى ، ولا يحفل بالجماعى ، ولا يغضب على الرافضى .

وقال الحصين بن الحسين ، فى كلام له : إن مما يوئس من رجوعه ، و يقنط من نزوعه ، وأن الله قد طبع على قلبه فى اللؤم ، وضرب على سمعه فى البخل ، أن البخيل الموسر ، والمنوع المثرى ، إذا كان عاقلا وبأمور الناس عارفاً ، لا يسوغ له شراب ولا يطيب له عيش ، وأنه لا يقدر على مخالطة الناس وملابستهم، ومجاراتهم ومصاهرتهم ، إلا بأن يجعل التواضع دريئة دون ماله ، والسعى فى حوائجهم جُنّة دون عرضه ، وعلى ألا يجمع بين الكبر والمنع ، وبين التنبل والبخل ؛ إلا ما كان من هذا الرجل ؛ فانه قد خرج من طباع الأمة ، ونقضَ ما عليه تجرى العادة ؛ فبلغ فى الكبر الغاية ، كما بلغ فى البخل النهاية ؛ إلا أن كبره لا يجوز إلا لعامة الرعية والحرمة . هذا مع ثقل الروح والفدامة ، والبرد والوخامة . فلو كان حلو الحديث عذرته ، ولو كان حسن الاستماع أمسكت عنه . ولو تمسك بسبب من الخير و إن ضعُف ، أو رغب فى شئ من المعروف و إن قل، لأضربت عنه صفحاً ، وطويت عنه كشحاً . ولكن استفرغ اللؤم وتعرقه ، وبلغ غايته واستوعبه . وكيف ولم يسمع بمُلْحة قط ولا فهمها ، ولا ابتسم من نادرة قط ولا عقلها .

وذكره مرة أخرى ، فقال : امتنع — والله — من استحسان ما يقوله المتحرم به ، ومن استجادة ما يظهر من المنقطع إليه ، و إن حسنت معانيه ، وشرفت ألفاظه ، وسهلت مخارجه ، مخافة أن يزيد ذلك فى طمعه . ويفسح من أمله ، ويجعله حجة عليه عنده فى تقصيره به ، وحرمانه إياه .

لم يفهم عن الله شيئاً قط إلا ازدراه ؛ ولا روى أثراً ، ولا طلب شعراً ، ولا حفظ خبراً ، ولا قرأ تنزيلا ، ولا سمع تأويلا . وقد رضى بكتاب المنطق بدلا من القرآن ، وبالكون والفساد عوضاً من الأحكام ، وبالعرض والجوهر خلفاً ، وبالجزء والطفرة شرفاً . إذا فكر المسلمون فى الجنة والنار ، فكر فى الدرهم والدينار ؛ و إذا فكر الكريم فى الذكر ، والعابد فى الأجر ، فكر فى الاحتيال للمنع ، وفيما زاد على الجمع . فهو نسيج وحده فى اللؤم ، وواحد عصره فى البغض ؛ وهو

الصرف فيهما البحت ، والخالص المحض . قد أصبح إمام كل لئيم ، وقائد كل دنئ . وحسبك برجل أوصى إلى العتبى ، وتفرّس الخير فى المروزى ، وقال فى وصيته ، وبحضرة جماعة من فقراء أهله : يزعمون أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « الثلث ، والثلث كثير » ، وأنا أزعم أن ثلث الثلث كثير . للمساكين حقهم فى بيت المال ؛ إن طلبوه طلب الرجال أخذوه ، وإن جلسوا عنه جلوس النساء مُنعوه ؛ فلا يرغم الله إلا أنوفهم ، ولا رحم من رحمهم !

فهذه وصيته ، والعتبى والمروزى خيرته ، وتلك سنته وطريقته .

فلا تعجل أيها السامع ، واعلم أنى مقصر فيما أتولى من وصفه . فهو رجل لا تنجع فيه الرُّقى ، ولا تنفذ فيه الحيل ، ولا يهزه المديح ، ولا يحز فيه اللوم ، ولا يتوهم أحاديث غد ، ولا يؤلمه التوبيخ ، ولا يبالى سخط الكرام ، ولا شكية الأحرار ، ولا وعيد الرجال ، ولا لزوم الحجة ، ولا إناخة العلة . وليه كعدوه ، وجاره الأدنى كالأجنبى الأقصى . رفيقه جائع ، وصديقه ضائع ، وجاره ذليل ، وناصره مخذول ، وجليسه مقموع ، وغريمه ممنوع ، وصفيه محجوب ، وخادمه مكروب ، وكلبه مهزول ، وبابه مهجور ، وأكيله فى تقية ، وشريبه فى بلية ؛ وكلهم فى جهد البلاء ، لولا راحة الدعاء .

هذا مع ظلم العباد ، وإخراب البلاد ، والخيانة الكثيرة ، والتضييع الفاحش ، والضعف عن عمله ، وابتلاء الجند على رغبته ، والحكم بالرِّشا ، والحجاب الشديد ، وضرب الخصوم ، والجبه للشهود ؛ مع الجهل بالحكومة ، وضيق الصدر فى المنازعة . لا يرحم المظلوم ؛ فاذا استرحمه ازداد عليه غلظاً . ولا يرقّ لفقير ؛ فان تعرض له قتله جوعاً .

أنا أدلك على صفة هذا الرجل :

ويل لمن ظن أنه يرجوه ، أو يطمع فيه ! وويل لمن عاد إلى تأميله ، أو طمع فى ماله ! وويل لمن أثنى عليه خيراً ، وقدَّر لديه عرفاً ! وويل لمن ترك الرد عليه ، ولم يرفع ذلك إليه !

لم يضمر لأحد قط حبًّا ، ولا تمنى له خيراً ؛ ولا اشتاق إلى صديق ، ولا استوحش إلى أنيس . لم يتوكل قط إلا على حيلته ، ولا فزع إلا إلى رأيه ، ولا

عرف الاستخارة والاستشارة . يسخر ممن يرى أن البركة فى المشورة ، وأن النجح مقرون بالاستخارة ، وأن الدعاء يكشف البلاء . ولا يعرف التوفيق ، ولا يثق بالتوكل .

وقال محمد المكى : قلت له مرة : جعلت فداك ! لعل إخوانك أن يجلسوا عندك فوق مقدار شهوتك ؛ فان أقمتهم استحييتهم ، وإن تركتهم ثقل عليك مكانهم . وما زالت الملوك تجعل لهذا أمارة ، وتنصب له علامة . وقد قيل هذا لمعاوية بن أبى سفيان ، فقال : آية ذلك أن ألقى الخيزرانة من يدى . وقال يزيد ابن معاوية : آية ذلك أن أستلقى على فراشى . وقال عبد الملك بن مروان : آية ذلك أن أقول : إذا شئتم . وقال سليمان بن عبد الملك : آية ذلك أن أقول : على بركة الله . فاجعل لنا آية تنتهى إليها ، وأمارة لا نجاوزها . قال : آية ذلك أن أقول : ياغلام ، الغداء !

وقال مرة : بئس الشئ الصديق : إن أعطيته أفقرك ، وإن منعته وجد عليك ؛ ومتى وجد عليك ظلماً أغضبك ، ومتى أغضبك أوحشك ، ومتى أوحشك استوحش منك .

وقال أيام ولايته بالأهواز : من وهب المال فى عمله فهو أحمق ، ومن وهب ماله بعد عزله فهو مجنون ، ومن وهب ماله من جوائز مملوكة ، أو من ميراث لم يتعب فيه ، فهو محدود ، ومن وهب من كسبه ، وما استفاد بحيلته وكده ، فذاك المطبوع على قلبه ، المأخوذ بسمعه وبصره .

واحتجب حيناً عن زواره ، ليستعدوا النفقات فيعجزوا ، وليضجروا فيذهبوا . فان أمسكوا عن ذمه فقد أعفوه ، وإن ذموه فقد منعوا الناس منه . فخرج يوماً فقاموا إليه فناشدوه ، وأذكروه الحرمة ، وقرظوه ؛ فجبهم مرة ، وحاجهم مرة ؛ بقلب جامع ، ولسان عضب . فلما رأوا ذلك انصرفوا عنه بجيد اللعن فيه والسب له .

وكيف ألام على بغضه ، وعلى إرغامه ومقته ، وأنا لو أحببته لاستوحشت من الوحدة ، وجئت فى الاسلام ببدعة ؟ وكيف أحبه وأتولاه ، وقد قال الله تعالى : « ومن يتولهم منكم فانه منهم » ، وأعلم أن من أحب الناس فى الله أبغض فيه ، ومن أحب الكرم أحب الكرام ، ومن أبغض اللؤم أبغض اللئام ، ومن أحب الله أبغض من لا يحبه الله !

وبعد هذا كله ، فكيف أحبه وأقصّر فى بغضه وأفترُ عنه ، وهو يزعم أن اسم الكرم كلمة وضعها المستأكلون من العرب ، ولقنها عنهم المولدون ، وأنه لا يعرف للذمام معنى ، ولا للحرمة حقيقة ، وأن هذه الأسماء الموضوعة والصفات المصنوعة ، إنما هى خُدْعة وحيلة ، وخِلابة ومكر ، ومخاريق وباطل ، وأن المغرور من غره المدح ، واستماله حب الذِّكر ، وهشّ للتطرية ، وفرح بالتقريظ . وزعم أن الثناء عرض والمال جوهر ، والمال جسم باق والثناء عرض فان .

وقال : ألا ترى أن ذا المال يعظّم وإن كان غير ذى وجود ، والجواد لا يعظّم إن كان غير ذى مال . وزعم أن الثناء أشبه شئ بالسراب المائع ، وبحلم النائم ، وبأمس الذاهب ، وبأضاليل المنى . وزعم أن مدار الأمر فى الأخبار على النافع والضار . وأن الصدق لا يحسن إلا لأنه ينفع ، والكذب لا يقبح إلا لأنه يضر ؛ فاذا نفع الكذب فقد تحول حكمه ، وإذا ضر الصدق فقد تبدل اسمه . وليس بين نفس الصدق والعقول وَلاية ، ولا بينها وبين الكذب عداوة ؛ ولكن لما كان اتفاق النفع فى الصدق أكثر ، صار عند العوام أحمد ؛ ولما كان ما يتفق بالمضرة فى الكذب أكثر ، صار عند العوام أذم .

فماله لعنه الله ، ثم ما له لعنه الله ! كيف نصب للكرم ونهى عنه ، وتكفل باللؤم ودعا إليه ؟ وكيف اعترض على جميع المتقين ، وبلغ كيده جميع المؤمنين ؟

رأى فى ترتيب المعجم

العربى الحديث

[كتب هذا المقال أديب العراق وفقيد العالم العربى المغفور له الأستاذ طه الراوى وأراد أن يخص به مجلة «الكاتب المصرى» فأعجلته المنية عن إرساله إلينا. وتفضل ابنه الأستاذ هاشم الراوى فأرسله إلينا بعد وفاة والده الكريم ، فكان وصوله إلينا تجديدا للأسى فى نفوس لم تتعز بعد وهيهات أن يدركها العزاء .

ونحن ننشر هذا المقال راجين للفقيد العظيم رحمة واسعة ولأسرته ووطنه العراق وأمته العربية صبرا جميلا .]

لما شعر علماء العربية الأولون بدبيب اللحن فى اللغة المضرية المعربة ، بسبب اختلاط بنيها بحمراء الأمم وصفرائها ، فزعوا إلى جمعها وتدوينها وضبط مشكلها وإيضاح مبهمها ، وسلكوا إلى ذلك طريقين :

الأول — يبتدئ باللفظ و ينتهى بالمعنى .

الثانى — يبتدئ بالمعنى و ينتهى باللفظ .

مثال الأول قولهم : القطار عدد من الابل مقطورة على نسق واحد . والقطر (بكسر القاف) النحاس، والقطر (بضم القاف) الجهة والناحية ، والقطر (بفتح القاف) المطر . ومثال الثانى قولهم : ولد الناقة يسمى الحوار ، وولد الفرس يسمى الفلو . وثمر النخلة عندما يصفر أو يحمر يسمى البسر ، فاذا نضج فهو الرطب ، فاذا تم جفافه فهو التمر . . . الخ .

والطريق الأول يسهل على القارئ فهم ما يمر أمام نظره وعلى سمعه من الألفاظ المبهمة ؛ فان من قرأ أو سمع كلاماً مشتملا على ألفاظ استبهم عليه معناها رجع إلى معجم مؤلف على هذه الطريقة .

والطريق الثانى يسهل على الكاتب وغيره معرفة الألفاظ الدالة على الأشياء التى تقع تحت نظره والمعانى التى تمر بذهنه ولا يحضره اللفظ الدال عليها . فاذا رأى الانسان شيئاً أو تصور معنى ولم يعرف اللفظ الدال عليهما فانه يرجع إلى الكتب المؤلفة على هذه الطريقة . ومن ثم نجد أكثر الناس انتفاعاً بهذه الكتب أولئك الذين يعنون بالترجمة إلى العربية والتأليف فى العلوم العصرية ؛ لأنهم يجدون أمامهم من المعانى ما تحتاج إلى قوالب من الألفاظ لا تحضرهم، فيرجعون إلى هذه الكتب ليهتدوا بها إلى بغيتهم . وقد رأينا أن نسمى الطريق الأول « بالطريق اللفظى » لأن البدء فيه يكون بجانب اللفظ ومنه ينتقل إلى جهة المعنى ، والطريق الثانى « بالطريق المعنوى » لأن البدء فيه يكون بجانب المعنى ومنه ينتقل إلى جهة اللفظ .

ولكل من الطريقين فروع ليس هذا موضع الافاضة فى استقصائها . وكل ما نريد أن نذكره هنا أن الطريق المعنوى هو الطريق الذى مشى عليه رجال الصدر الأول من نقلة اللغة ، فألفوا فى ضروب من المعانى مثل خلق الانسان وخلق الفرس والأنواء والنبات والنخل والكرم إلى غير ذلك من الأنواع . أما التأليف على الطريقة اللفظية فقد كان متأخراً فى الزمان عن التأليف فى الطريقة المعنوية . ويعتبر الخليل ابن أحمد الفراهيدى بن بجدة هذا الطريق حين وضع كتاب«العين» أو وضع خطوطه الأساسية على بعض الأقوال ؛ فقد وجه همه إلى ضبط اللغة وإحصاء كلمها والتمييز بين المهمل والمستعمل من الألفاظ ، وتبعه أبو بكر بن دريد فى جمهرته ، ولكنه لم يتقيد بما تقيد به الخليل من الشروط الدقيقة والقيود الوثيقة معتذراً بقصور همم أهل زمانه وضعف عزائمهم وعدم صبرهم على المجاهدة والمجالدة . وقد حذا حذو هذين الامامين إمام ثالث هو أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التيانى القرطبى المتوفى سنة ٤٣٣ هـ فانه وضع كتاباً أتى فيه على ما فى كتاب العين من صحيح اللغة وزاد عليه ما زاده ابن دريد فى الجمهرة وسماه « فتح العين » . وآخر من سلك هذا المسلك فى التأليف — على ما نظن — أبو الحسن على بن إسماعيل المعروف بابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ فانه ألف كتابه « المحكم والمحيط الأعظم » . ومن أصحاب الطريق اللفظى من سلك فى تأليفه مسلكا آخر غير مسلك الخليل ومن تبعه ، فرتب الألفاظ معتبراً أواخر حروفها الأصلية أبواباً وأوائلها فصولا ، ومن أشهر سالكى

هذا المذهب الجوهرى فى كتابه «صحاح اللغة» ، وتبعه مجد الدين الشيرازى فى قاموسه، وتبعهما خلق كثير . ومن أصحاب الطريق اللفظى من تنكب هذين المسلكين وسلك مسلكا ثالثاً هو أوضح معالم من سابقيه، فبوب معجمه على ترتيب حروف الهجاء ، واعتبر أصول أوائل الكلم أبواباً وما يليها من الحروف الأصلية ثم ما يثلثهما فصولا، فتجد كلمة «أسد» مثلا قبل كلمة «أسر». وهذه قبل كلمة «أسف» ، وهذه كلها قبل كلمة «أشر» . وأول من سلك هذا المسلك فى الترتيب — على ما أظن — أبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ هـ فى كتابه «المجمل فى اللغة»، وتبعه الزمخشرى فى كتابه «أساس البلاغة»، وجاء بعده تلميذه ناصر بن عبد السيد المطرزى المتوفى سنة ٦١٠ هـ فألف كتابه « المغرب فى لغة الفقهيات » ، وسلك فى ترتيبه مسلك شيخه فى أساس البلاغة . وممن سلك هذا هذا المسلك أحمد بن محمد المقرى الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ فى كتابه « المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير » . وكذلك سلك هذا المسلك من مؤلفى المعاجم الخاصة أبو السعادات ابن الأثير فى كتابه «النهاية فى غريب الحديث والأثر». وكذلك فعل الراغب الأصفهانى فى مفرداته . وأتباع هذا المسلك كثيرون فى المعاجم العامة والخاصة، منهم المؤلفون من المعاصرين. والمؤلفون على هذا النمط يعتبرون من الكلمة حروفها الأصلية، فيضعون كلمة اتصل — مثلا — فى باب الواو لأنها من مادة (و ص ل) ومثلها اتأد واتسع واتكأ واتسق واتهم واتكل لأنها من (و أ د) و (و س ع) و (و ك أ) و (و س ق) و (و هـ م) و (و ك ل) . ويضعون كلمة تترى — مثلا — فى هذا الباب لأن مادتها (و ت ر) . وفى هذا ما فيه من العسر على الذين لا علم لهم بمبادئ اللغة وأصول تصريفها .

ولهذا رأى بعضهم أن توضع المعاجم على أسلوب تكون العبرة فيه بحروف الكلمة كلها سواء فى ذلك الأصلية والزائدة ، فتوضع كلمة (تترى) مثلا فى باب التاء والتاء وما يثلثهما، وكلمة (اتقى) فى باب الهمزة والتاء وما يثلثهما ، وهكذا كما فعل واضعو معاجم البلدان ؛ فانك إذا راجعت معجم ياقوت فى كلمة (أسورة) مثلا تجدها فى باب الهمزة والسين وما يليهما ، وإذا طلبت هذه الكلمة فى الصحاح وجدتها فى فصل السين من باب الراء ، وإذا طلبتها فى المصباح وجدتها فى باب السين والواو وما يثلثهما . قالوا : وفى هذا عنت ليس بالهين .

وقد سلك واضعو معاجم الأسماء والطبقات مسلك واضعى معاجم البلدان ؛ فانك تجد فيها اسم (المعلى) مثلا فى باب الميم والعين وما يليهما ، ولو طلبت هذه اللفظة فى القاموس لوجدتها فى فصل العين من باب الواو والياء ، وإذا طلبتها فى المصباح وجدتها فى باب العين واللام وما يثلثهما . قالوا : فلماذا لا يسلك اللغويون فى معاجمهم هذا المسلك على ما فيه من تسهيل المراجعة ولا سيما على أولئك الذين يتعسر عليهم تمييز أصول الكلمات من زوائدها ؟

ونحن نرى أن هذا الرأى على ما فيه من ظاهر جذاب ، غير سديد ؛ لأننا لو سلكنا فى وضع معاجم اللغة هذا المسلك لجاءت ضخمة جداً كثيرة التكرار مضطربة الترتيب والتبويب ؛ وذلك لما فى لغتنا العزيزة من الوفرة فى المشتقات والتنوع فى المصادر والجموع ؛ فاذا أردنا أن نأخذ مثالا على ذلك ما اشتق من مادة (خرج) وما يتصل بها كان علينا أن نثبت كل واحدة من الكلمات الآتية فى موضع يختلف عن موضع أخواتها : (خرج ، يخرج ، خرجاً ، مخرجاً ، مخارج ، خارج ، خراج ، خوارج ، أخرج ، إخراج ، استخرج ، يستخرج ، استخراج ، المستخرج ، أخاريج . . . الخ) . وكل كلمة تذكر فى موضع تحتاج إلى تفسير قائم بنفسه ، وفى هذا ما فيه من التطويل الذى لا طائل تحته ؛ وكذلك القول فى المصادر ، فرب فعل له أكثر من مصدر واحد ، مثل (كتب ، ومصادره كتباً وكتاباً وكتابة وكتبة) فاذا أخذنا بهذا الترتيب المقترح وجب علينا أن نفرق هذه المصادر فى مواضع شتى مع أنها فى الترتيب التقليدى تجمع فى موضع واحد . وكذلك القول فى الجموع ، فرب كلمة لها عدة جموع مثل (كاتب فانك تجمعه على كتبة وكتاب وكاتبين) ، فاذا نحن مشينا على الترتيب المقترح وجب علينا أن نفرق بين هذه الجموع فى مواضع مختلفة مع أن جمعها فى موضع واحد ألصق بحاجة المراجعين من تفريقها على مواضع شتى وتفسيرها فى كل موضع . ولنضرب للقارئ مثلا واضحاً فى هذا الباب ؛ فانك إذا راجعت كلمة (أكمة) مثلا فى المصباح المنير وجدتها فى فصل الهمزة والكاف وما يثلثهما على هذا الوجه : « الأكمة تل وقيل شرفة كالرابية ، وهو ما اجتمع من الحجارة فى مكان واحد ، وربما غلظ ، وربما لم يغلظ ، والجمع أكم وأكمات مثل قصبة وقصب وقصبات ، وجمع الأكم إكام مثل جبل وجبال ، وجمع الإكام أكم بضمتين مثل : كتاب وكتب ، وجمع الأكم آكام مثل عنق

وأعناق[٢] . . » هذه هى طريقة المعاجم التقليدية ، واذا أردنا أن ننهج منهج المعجم المقترح وجب علينا أن نفرق هذه الجموع الخمسة فى خمسة مواضع ، وأن نذكر فى كل موضع شرحاً على نمط الشرح الذى جاء فى عبارة المصباح فى كلمة (أكمة) ، فنقول مثلا فى كلمة (آكام) : «إنها جمع أكم التى هى جمع الاكام التى هى جمع الأكم التى هى جمع الأكمة وهى تل وقيل شرفة كالرابية وهو ما اجتمع من الحجارة فى مكان واحد ، وربما غلظ وربما لم يغلظ » ، وهكذا يلزمنا فى كل جمع أن نرجع به إلى مفرده ثم نشرح معنى ذلك المفرد ، وفى هذا ما فيه من إسراف فى الجهد يمكن الاستغناء عنه بالطريقة المألوفة المبنية على الاقتصاد فى كل شئ . أما القول بأن الكثيرين من الذين يحتاجون إلى مراجعة المعاجم لايهتدون إلى أصل الكلمة فهو من المغالاة بمكان ؛ لأن الذى لا يميز بين الأصول والزيادات ولو على سبيل الاجمال لا يحتاج إلى مراجعة المعاجم ، فالمعاجم إنما توضع لأولئك الذين يملكون حظًّا ولو قليلا من التفريق بين الأصول والزوائد ؛ أما الكلمات التى يتعسر على جمهرة المتعلمين معرفة أصولها فلا مانع أن تذكر فى موضع يسهل على المراجع العثور عليها ثم يشار إلى موضعها الأصلى ، فتوضع كلمة (تترى) مثلا فى موضع تأتى فيه التاء والتاء وما يثلثهما ثم يشار إلى مراجعتها فى مادة (وتر) ، وكذلك يفعل فى كلمة (اتصل) من الوصل و (اتعد) من الوعد وهكذا .

والذى نراه أن العربية محتاجة إلى معاجم تؤلف على الطريقة اللفظية على أنماط ثلاثة : مبسوط ووسيط وموجز : الأول للمتبحرين من العلماء ، والثانى لأوساط المتعلمين ، والثالث للمبتدئين منهم . وكذلك هى فى حاجة إلى معاجم على الطريقة المعنوية مبسوطة ومتوسطة وموجزة ، ليستعين بها الناقلون عن اللغات الأجنبية والمؤلفون فى العلوم والفنون العصرية . وينبغى أن تبسط العبارة فى كل هذه المعاجم بسطاً يوضح المقصود من كل كلمة ، وأن يستعان على الايضاح بالصور ، فاذا أريد إيضاح أعضاء الانسان فى المعاجم المعنوية مثلا يصور الانسان و يشار إلى العضو إشارة تجعله مفهوماً جليا ، وكذلك إذا أريد بيان خلق الفرس أو خلق الجمل مثلا ؛ وهكذا يستعان بتصوير الأشجار والأزهار والبقول وغيرها تصويراً من شأنه أن يعين المراجع إعانة تامة على فهم ما يريد فهماً لا غموض فيه ولا غبار عليه .

ولا شك أن هذه الطريقة تستلزم جهوداً متضافرة من جماعات متآزرة. وأجدر من يعهد إليه بذلك هى المجامع اللغوية التى أنشئت وستنشأ فى الممالك العربية ؛ وقد بلغنا أن المجمع اللغوى فى الكنانة مضطلع ببعض هذه المهمة. كان التوفيق حليفه.

ط الراوى

اهتماماتى ودراساتى العلمية

لما تركت مصر إلى فرنسا فى سنة ١٩٠٧ كان « التطور » من مركباتى الذهنية البارزة ، بل المركب الأول . حتى إنى حين هبطت باريس جمعت طائفة من الكتب التى تعالج هذا الموضوع ، ولكنى لم أستطع فهمها وقتئذ ؛ لأنى أسأت الاختيار فلم أقتن الكتب الابتدائية أو بالأحرى لم أجدها . فلما قصدت إلى لندن وجدت العشرات من هذه الكتب الابتدائية . وكانت جمعية « التعقليين » تنشرها وتبيعها بأثمان التراب بسعر ٢٠ مليما لكل كتاب . فأكببت عليها فى دراسة مثابرة ، مع استخراج الخلاصات وكتابة التعليقات . وقرأت كتاب داروين « أصل الأنواع » . وليس فى هذا الكتاب شىء يشق على الفهم . ولكنه يحتاج إلى التأمل الكثير . وداروين بعيد كل البعد عن التعبير المسرحى ؛ إذ هو متواضع معتدل يكتب فى حذر كأنه يخشى أن يؤمن القارئ بكل ما يقول . وهو الضد لنيتشه فى الأسلوب ؛ فان نيتشه نارى سماوى ، أما داروين فأرضى طينى . وأسلوب نيتشه عاطفى ذاتى حتى حين يهتدى إلى الحقائق الموضوعية . أما داروين فيكتب عن وجدان وتعقل ؛ حتى لتحس أنه ينفض عن نفسه عاطفته وذاتيته كما ينفض أحدنا الغبار عن شخصه .

وليس شك أن حبى لداروين وتحيزى لنظرية التطور ، منذ نشأتى الثقافية ، قد تركا أثرهما فى أسلوبى الكتابى . فقد قيل إن الأسلوب يدل على الجانب الأخلاقى للمؤلف بل يكشف عنه . أى يدل على الاتجاه التفكيرى و إيثار بعض القيم على بعض . وأنا أوثر أسلوب داروين : أسلوب المنطق الصارم والحذر والاعتدال على أى أسلوب آخر يوصف بأنه « أدبى » . وكثيراً ما وصفنى الكتّاب فى مصر بأنى لست « أديباً » ؛ لأنهم لايجدون عندى تلك الزخارف والتزاويق المألوفة فى غيرى من الكتاب . ومع ذلك فانى لا أنكر سحر الأسلوب العاطفى . ولكنى إذا كنت ألتذ السحر أحياناً وأستمتع بما فيه من مهارة

فانى أوثر عليه أسلوب التعقل والوجدان . وأذكر أنى حين قرأت « من الأعماق » تأليف أوسكار وايلد أعجبت بسحره . حتى إنى عندما بلغت الصفحة الأخيرة عدت فوراً إلى الصفحة الأولى أقرؤه ثانية كأنى أستعيد لحناً جميلا وأنغاماً رائعة . ولكنه لم يترك فى رأسى مركبات ذهنية كتلك التى تركها « أصل الأنواع » لداروين . فقد غيرنى داروين . أما أوسكار وايلد وجون روسكين وكارليل من الكتاب الذاتيين فقد نسيتهم ؛ لأنهم جميعاً بعيدون عن الحقائق الموضوعية . وحين أقرؤهم الآن أشعر أنهم يخطبون أو يصرخون أو يتفصحون . فأجد اللذة العابرة فى أسلوبهم ولكنى أحس أنهم ليسوا مفكرين أساسيين . والمفكر الأساسى عندى هو داروين الذى يتحدث فى اعتدال وحذر . وأسلوبه هو الأسلوب الرصين . وأقرب الناس إليه فى هذا الأسلوب هو برنارد شو . وقد سبق أن قلت إن المقاييس للكاتب أن نعرف مقدار ما تركه لنا من المركبات الذهنية ؛ لأنه على قدر هذه المركبات يكون تفكيره محوريًّا أو بذريًّا ، أى إننا لا نأخذ منه المعرفة الجامدة فقط ، بل نأخذ المعرفة النامية التى تنمو وتتشعع فى الخلايا الرمادية من المخ فتتركنا ونحن نفكر ونشتبك فى اشتباكات جديدة لاتفتأ تنبهنا إلى توسع وتعمق فايناع . ومنذ ١٩٠٨ حين قرأت «أصل الأنواع» وأنا فى هذا التوسع والتعمق . فقد درست البيولوجية والجيولوجية بل سيكلوجية فرويد بحافز من داروين . كما أن داروين كان السبيل إلى التعرف إلى هربرت سبنسر . وكان داروين يصفه بأنه « فيلسوف التطور » . والحق أن سبنسر هو المسئول عن تعميم هذه النظرية ونقلها إلى المجتمع ، ولا عبرة بأنه ارتكب أخطاء كثيرة فى التفاصيل . فان الأخطاء أحياناً قد تكون منيرة مثل الاصابات ؛ لأنها تفتح كوة على ناحية لم تكن مفتوحة من قبل . فاذا كان الناظر إليها قد أخطأ الرؤية ، فان فضله لا يزال عظيما لأنه فتح الكوة . وهذا هو ما أراه فى كثير من المفكرين مثل فرويد وسبنسر بل داروين نفسه . فقد نبهنا فرويد فى خطئه عن «مركب أوديب» ، كما نبهنا سبنسر فى خطئه عن وراثة الصفات المكتسبة ، وكذلك نبهنا داروين فى خطئه عن تنازع البقاء . وكل هذه الأخطاء كانت كوات جعلتنا نفكر ونبحث ؛ لأنها فتحت لنا آفاقا جديدة . وقد انتقلنا بها من الميدان البيولوجى إلى ميادين الاجتماع والدين والاقتصاد .

ومن الكتاب البذريين الأساسيين الذين تأثرت بهم ، ومازالت المركبات

الذهنية التى خلفوها فى خلاياى المخية قائمة بل نامية ، كارل ماركس . فقد وصلت إليه عن استغراض ضده من كتّاب «الانفرادية» الذين يقولون بالمباراة الاقتصادية مثل هربرت سبنسر ، وخرجت منه على احترام له واحتقار لهربرت سبنسر . ولكن هذا الاحتقار ، فى هذه النقطة المعينة ، لم ينقص من إكبارى للقوة التفكيرية عند سبنسر . والحق أنها قوة عظيمة جدا ؛ فان نظرته شاملة وهو فيلسوف أكثر مما هو عالم ، ولكنه فيلسوف بعيد عن الغيبيات . وقد احترف هذا الرجل التفكير احترافاً . حتى ليسأم الانسان حين يقرؤه ويكاد يسائل : لماذا هذا الجد ؟ لماذا يجهد ويعرق ؟ ألا يفكر فى إجازة يستريح فيها ؟

والحق أنه لم يفكر فى إجازة . وقد أصيب لهذا السبب بانهيار عقلى تألم منه نحو سنتين . وحتى بعد ذلك كان أحياناً يطلب من ضيوفه ألا يتكلموا بل أن يبقوا فى ضيافته أو رفقته صامتين . . .

وفى هذه السنين كدنا ننسى هربرت سبنسر . ولكن كارل ماركس يزداد بمرور السنين قوة بل حياة ؛ فان نظرياته تحيا فى كل مكان فى العالم . والأزمة العالمية الحاضرة هى أزمة الصراع المنتظر ، أو الوفاق المحتمل ، بين الماركسيين دعاة الانتاج التعاونى وبين الديمقراطيين دعاة المباراة الاقتصادية . ولذلك لا يمكن أحداً أن يصف نفسه بأنه مثقف إذا كان يجهل الماركسية ولو كان يكرهها .

وقيمة الماركسية فى فهم السياسة العالمية والتطورات الاجتماعية والأخلاقية الحاضرة كبيرة جدا . ولكن لها قيمة أخرى فى فهم التطورات التاريخية . والمتعمق فى دراسة ماركس لا يتمالك من الشعور بأنه هو ، لا فرويد ، الأساس الصحيح للفهم السيكلوجى . فان ماركس أثبت أن العواطف الاجتماعية ، أى التى نكتسبها من المجتمع ، أكبر قيمة وأبعث على التغير والتطور وأثبت فى كياننا مما نسميه العواطف الطبيعية . ولذلك لا يقتصر فضل ماركس على أنه جعل الاقتصاد علماً ، لأن الحقيقة أنه جعل كذلك الأخلاق والاجتماع والسيكلوجية علوماً . ولا يستطيع أحد أن يفهم هذه الثلاثة على حقيقتها الفهم الموضوعى إلا إذا كان ماركسيًّا .

داروين وماركس ، كلاهما قد غرس فى رأسى مركبات ذهنية ، وجعلنى أنظر إلى الدنيا و إلى الأحياء فى استعراض علمى وتحليل اقتصادى وسيكلوجى . وعندما

أستبطن إحساسى الدينى أجد أن بؤرة هذا الاحساس هو « التطور » وهذا الاحساس الدينى هو فهم وممارسة . فانى أفهم أننا وجميع الأحياء أسرة واحدة بما فى ذلك النبات ، و أن الخلية الأولى التى نبض بها طين السواحل قبل نحو ألف مليون سنة هى عنصرنا الأول ، وأننا مازلنا ننبض وتتغير فى تجارب لاتنقطع ، وأن سُنتنا هى لذلك سنة التغير ، وجريمتنا هى لذلك جريمة الجمود . ولكن إلى جنب هذا الفهم الدينى يجب أن «نمارس» ممارسة دينية باحترام الحياة أيًّا كانت والتعرف إلى أشكالها وحمايتها من الأميين المستهترين بالطبيعة . هذه الطبيعة التى تكتسب فى ذهنى قداسة كلما فكرت فى غابات أفريقيا أو الهند وما تحوى من تحف الحياة ، أو كلما فكرت فى غياهب المحيط الهادى أو الأطلنطى أو المحيطين القطبيين وما بهما من أحياء يحاول التجاريون ، فى غير شرف، أن يبيدوها بالالحاح عليها فى الصيد .

وكذلك لا أقرأ الجريدة اليومية ولا أسمع عن خبر سياسى أو مشروع لقانون جديد إلا وأنظر إليه بالاستغراض الماركسى من حيث دلالته على النوازع المختفية التى دفعت إليه ، فى حين أن الذى يجهل الماركسية يتطوح ويتخبط فى تقديرات « شخصية » للممثلين السياسيين أو الحربيين . مع أن هؤلاء ليسوا سوى أدوات تأخذ مكانها فى دورة الآلة الكبرى ، فى حركة المجتمع الاقتصادى . ولذلك أيضاً أصبحت فكرة « البطل » فى التاريخ من الفكرات التى كانت تتقهقر فى وجدانى كلما تقدمت فى التحليل الاقتصادى . ولكن يجب أن أعترف أنها مع تقهقرها لم تنمح ، وأنه لا يزال للشخصية قيمتها فى تفكيرى .

وفرق عظيم ، بل عظيم جدا ، بين شخص قد قرأ ماركس ودرس التفسير الاقتصادى للتاريخ ، وبين آخر يجهله . لأن الأول يجد فى أخبار الجريدة اليومية من المعنى والمغزى ما لا يجده الثانى الذى يحسب أن الحوادث التافهة والخطيرة ، والاتجاهات السياسية، والتطور والثورة ، والحرب والسلام ،كلها أشياء تجرى جزافاً .

ويأتى فرويد ، بعد داروين وماركس ، فى إيجاد المركبات الذهنية التى عملت فى توسعى وتعمقى . وعندى أن « مركب أوديب » الذى يعد محور السيكلوجية الفرويدية هو خطأ . ولكنه خطأ مثير ، لأنه نبهنا ، كأنه دسيسة علمية تحركنا إلى البحث والتنقيب فى كهوف النفس المظلمة ، إلى قيمة السنين الأولى أيام الطفولة فى تكوين الشخصية . وقد وصفت أفكار فرويد بحق بأنها

« سيكلوجية الأعماق » ، وهى كذلك وإن كنا نختلف كثيراً عما نجد فى هذه الأعماق . ولولا فرويد لما كان هذا الجيش الذى يتألف من آلاف العلميين الذين يبحثون النفس البشرية فى جميع الأقطار المتمدنة . وقد جمعت بين فرويد وماركس وخرجت منهما بأزكى الثمرات . بل فطنت إلى أن ماركس هو السيكلوجى الأساسى ؛ لأنه يجعل وجدان الفرد ثمرة المجتمع .

وفى حياتنا العصرية لا يستطيع أحد أن يهمل التفكير العلمى ؛ لأن الحضارة الصناعية السائدة هى حضارة العلم . وقد دأبتُ فى دراسة العلوم التى تدور حول التطور أو الاقتصاد أو السيكلوجية أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة ، ولذلك أستطيع أن أتناول كتاباً عن الهورمونات ، أى مفرزات الغدد الصماء ، أو كتاباً عن الايكولوجية ، أى علاقة الحى بالبيئة ، أو كتاباً عن مشكلات الوراثة ، أو كتاباً عن جنون الشيزوفرنيا ، فاقرؤها جميعاً فى رغبة وفهم ولا أجد ذلك الصدود الذى يجده غيرى ممن لم يعنوا بالعلوم .

وكل هذه العلوم هى دراستى المستقلة ؛ لأن ما حضرته من محاضرات فى لندن لا يؤبه به . ومما آسف عليه أحياناً أنى لم أجد المرشد حوال ١٩٠٧ الذى كان يستطيع أن يعين لى منهجاً دراسيا فى العلوم . ولكنى ، بعد التفكير ، أسائل : هل كان يكون أفضل لى لو أنى كنت انغمست فى دراسة علمية تجريبية معينة ؟ ألم تكن مثل هذه الدراسة مانعة بطبيعتها الاخصائية من ألوان أخرى من الثقافة الموسوعية التى أتمتع بها الآن؟ إنى لا أكاد أعرف إخصائيًّا فى علم ما ، نجح فى أن يكون موسوعيًّا ينطلق فى سهولة ويسر إلى رياض الفلسفة والأدب والاجتماع ؛ مع أن كل هذه الميادين ، فضلا عن العلوم ، قد ألفتها وجلت ، بل نقبت ، فيها وفكرت فى تناسقها ، وسرت فيها بروح المتعلم الذى يربى نفسه فى بعد عن الاغترار والزهو . فاذا اعتبرت القيم ، قيم الحياة لا قيم التخصص الثقافى ، فانى أجد أنى نجحت فى تربية نفسى أكثر مما لو كنت قد تخصصت ؛ لأن المتخصص فى الجيولوجية أو البيولوجية أو الايكولوجية قلما يفكر فى دراسة أفلاطون أو قراءة الجاحظ أو دراسة الحضارة الفرعونية . ولكنى أنا بالاتجاه الموسوعى الذى اتجهته قد درست هذه العلوم ، فى غير تخصص ، ولكن مع الاستطلاع الدائم لغيرها من الثقافة ، حتى أنى أقدّر ، مثلا ، عدد المؤلفات التى قرأتها عن حضارة الفراعنة بما لا يقل عن أربعين أو خمسين كتاباً . ولم أترك كلمة مطبوعة للجاحظ لم أقرأها .

ولذلك أستطيع أن أؤلف كتاباً عن جيته أو الاصلاح الزراعى فى مصر أو المسألة الهندية بأيسر عناء .

ولذلك يرى القارئ أنى درست ، لا للثقافة ، بل للحياة . وقد حملتنى دراستى العلمية على أن ألتفت كثيراً إلى المراحل البعيدة التى قطعتها العلوم المادية ، كالطب والهندسة والكيمياء والميكانيات والطبيعيات ، مع تأخر العلوم الاجتماعية، التى حال دون التفكير الحر فيها وتغيير قواعدها ، تقاليد وشعائر وسنن وقوانين تعمل كلها لتجميد تطورنا الاجتماعى . فالاجتماع ، باعتباره علماً ، يعيش على مستوى التفكير فى ١٦٠٠ أو ١٧٠٠ ميلادية ، بل هو فى أقطار آسيا وأفريقيا يعيش على مستوى سنة ١٠٠٠ للميلاد ، فى حين أن الكيمياء أو الطب يسبقانه بنحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة ، ولذلك نحن لا نعيش المعيشة العلمية فى بيوتنا ولا يسود حكوماتنا النظام العلمى . ولو أنه كانت هناك تقاليد وشعائر وسنن وقوانين للكيمياء مثلا ، كما للمجتمع ، لبقى هذا العلم على مستواه حين كان كل همّ الكيماوى أن يحيل الرصاص إلى ذهب . كما أننا لو استطعنا التخلص من تقاليدنا ومن الاستغراضات التى تخدم بعض الهيئات والطبقات لكان فى مقدورنا أن نرتفع بالاجتماع إلى مستوى العلوم التجريبية المادية .

ولهذا أيضاً نجد أن الطالب الذى يدرس الطب نقول له فى صراحة إن الذباب ينقل عدوى الرمد أو الدوسنطاريا ،أو إن لحم البقر الذى أصيب بالدرن تنتقل عدواه إلى آكله من البشر . ولكنا لا نقول لهؤلاء التلاميذ أو الطلبة إن الأجور المنخفضة التى يحصل عليها العمال فى مصر تفشى بينهم الدرن والعمى والموت ؛ لأننا نخشى هنا الاستغراضات الامتيازية والاحتكارية الاقتصادية .

ذات يوم فى ١٩١٨ كنت قاعداً فى الريف إلى قناة صغيرة فى ظل شجرة وإلى جنبى فلاح قد بلغ الثمانين ، وكنت أتأمل يرقات الضفادع وهى تسبح . فسألت الشيخ عنها فاتضح لى أنه لا يعرف أنها ضفادع صغيرة . ثم تشعب الحديث إلى النبات فقال : «إن لكل نبتة من هذه الأعشاب التى تنمو على شطوط القنوات ملكا يحرسها .» ولما نهضت أخذت أفكر فى هذه الرواسب الثقافية التى انحدرت إلينا عن الفراعنة والكلدانيين والبابليين ، وجعلتنا نعيش فى غيبيات تحملنا على النظر المخطئ لحقائق هذا العالم وتباعد بيننا وبين النظر العلمى

الموضوعى . وقلت فى نفسى : هذا الرجل غيبىّ يؤمن بأن العالم حافل بالأرواح التى تحرس الناس والحيوان والنبات . إذن هو من خصوم داروين .

ولكن هذا الفلاح المسن يمثل فى سذاجته المركزة جهل الرجل العادى والمرأة العادية . وكلاهما يعيش بذهنه على رواسب قديمة من العقائد . حتى إن فكرة « القرينة » عند الفراعنة ، لا تزال حية فى أيامنا . أجل ! لقد ذكرت الآن ؛ فقد كنت طفلا لم أتجاوز السابعة أو السادسة، وكنت قد غضبت وصرخت ورفست وأنا على العشاء . فقالت لى أمى تخيفنى : « دلوقت أختك تزعل منك وتضربك » .

وكانت تعنى بأختى هذه « قرينة » الفراعنة ، وقصدت إلى الفراش ونمت بلا عشاء . وإذا بى أحلم أن فتاة قد حضرت وهى تحمل سوطاً ترفعه فى الهواء كى تتحفز لضربى ، فصرخت فى النوم ، وأقبلت إلى أمى فى فزع فأيقظتنى وحضنتنى وجاءتنى بكوب من الماء شربت منه جرعة . ثم أخبرتها عن الحلم ، فأخذت تقبلنى وهى تبكى : «حقك على يا ابنى . أنا كنت بضحك . مفيش أخت . مفيش أخت!.»

ولكن مجتمعنا لا يزال فى أسر هذه القرينة أو ما يشابهها من العقائد التى تتخذ أحياناً أسلوب البحث العلمى . كما نرى مثلا فى أولئك الذين يزعمون أنهم يستجلبون الأرواح فتنقر على المائدة وتتحدث عن العالم الثانى . . . وهذه العقائد تعيش كأنها كابوس للمجتمع تعمل على تجميده وتخويفه حتى لا يتطور . ودعاة الروح هؤلاء لا يختلفون عن تلك الأم الساذجة التى تقول عندما يعثر طفلها : « وقعت على أختك أحسن منك » تمدح الأخت وتسترضيها حتى لا تصيب طفلها بأذى . . .

وهذه القرينة أو هذه الأخت التى أفزعتنى فى نومى ، وهذه الملائكة التى تحرس النباتات عند ذلك الفلاح المسن ، هى ضباب العقل الذى يقشعه العلم . وقد انقشع أو كاد فى أمريكا وأوربا . ولكنه لا يزال يخيم علينا ؛لأن الثقافة العلمية لا تزال بعيدة عنا لم تتنفس هواءها الصافى .

وهذه الثقافة العلمية هى ما أفتأ أرجو أن أجعلها أسلوبى فى الحياة الشخصية والاجتماعية . ولكن لم أخطئ قط ذلك الخطأ المألوف بأن أجعل العلم غاية إذ هو وسيلة فقط . أما الغاية فيعينها الأدب والفن والفلسفة، أى إن غاية العلم هى الدين ، أى كيف نعيش فى مجتمعنا أصلح العيش وأروحه وأقصده وأشرفه .

وقد وضعت كتابى « نظرية التطور وأصل الانسان » ولى مأرب هو مكافحة الغيبيات الشائعة . ونشرته كله مقالات فى البلاغ قبل طبعه كتاباً ، كى أصل إلى أكبر عدد من القراء . ومن الذكريات السعيدة أنى وقفت ذات يوم إلى دكان صغير لا تزيد مساحته على ثلاثة أمتار أشترى لابنى بعض الحلوى ، فعرفنى البائع وأخبرنى أنه قرأ كتابى هذا وفهمه .

ولو أنى وجدت التشجيع لأرصدت حياتى لاخراج كتب شعبية مثل « نظرية التطور » و « العقل الباطن » ونحوهما . وكثيراً ما كنت أتحسر حين كنت أرى مؤلفات العقليين فى لندن . فان كتاب « أصل الأنواع » الذى زلزل به داروين الثقافة الأوربية يباع بأقل من خمسة وعشرين مليما .

وحوالى ١٩٣٠ وجدت أنا والأستاذ فؤاد صروف الفرصة سانحة لايجاد حركة علمية شعبية فى مصر . فعقدنا العزم على تأليف « المجمع المصرى للثقافة العلمية » . وكانت الغاية منه أن يضم جميع المهتمين بالثقافة العلمية ونشرها بين الجمهور . ونجحنا فى المشروع نجاحاً لم نكن ننتظره ، مما دل على أن المجمع أدى حاجة عضوية فسيولوجية فى مجتمعنا . وعقدنا الاجتماع السنوى الأول له وألقيت فيه محاضرة سيكلوجية عن طبيعة التفكير فى ضوء الأحلام فى قاعة الجمعية الجغرافية . ولكنى فى ذلك الوقت كنت أمارس نشاطاً سياسيا مركزاً فى مكافحة إسماعيل صدقى باشا حين ألغى الدستور واستبدل به غيره ،واتفق مع المستعمرين والمستبدين على إعادة الحكم التركى الشركسى الذى حاول عرابى أن يحطمه . وأدى نشاطى هذا فى السياسة إلى طردى من المجمع .

وكان من حظنا السيئ أننا اخترنا معظم الأعضاء من الموظفين . ولذلك حين اختير حسين سرى (باشا) رئيساً لاجتماعه الثانى أرسل إلىّ خطاباً يفصلنى من المجمع « مع الشكر » . وكان وقتئذ وكيلا لاحدى الوزارات ، فوافق جميع الأعضاء « الموظفين » ولم يشذ غير واحد ، غير موظف ، هو الأستاذ اسماعيل مظهر . وجاء فى عقب طردى الصديق زكى أبو شادى يعتذر إلى بأنه لم يجرؤ على مخالفة « وكيل وزارة » ،ولذلك أعطى صوته ضدى ووافق على طردى ، على أنه يعرف أنه ليس من حق المجمع أن يفصلنى لنشاطى السياسى . واتجه المجمع بعد ذلك وجهة إخصائية غير شعبية ، ولذلك لم ينتفع به الجمهور كثيراً .

وعندما أقارن بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية أجد أن القيمة العظمى

للأولى أنها تحريرية ؛ لأن التفكير العلمى يسير على نهج ارتقائى : هذا سيئ فيجب أن نبحث عن الحسن ، وهذا أحسن ولكن يجب أن ننشد أحسن منه بالاكتشاف والاختراع ، والتفكير الارتقائى هو بطبيعته تفكير علمى . وهو لم ينشأ فى أوربا إلا بعد أن اتجه الأوربيون وجهة علمية فى القرن السابع عشر . أما قبل ذلك فلم يكن هناك من يقول بأن الشعوب يجب أن ترتقى وتتغير ، وقد يردّ هنا على بأنه كان هناك طوبويون يتخيلون حالا سعيدة للبشر غير حالهم الحاضرة . ولكن الفكرة الارتقائية لم تنبت قط فى هذه التربة الطوبوية . وإنما نبتت من البذور العلمية .

والثقافة الأدبية ، إذا لم تجد الحافز من العلوم ، تركد . وقد كان هذا شأنها فى العصور الماضية . وسط زراعى راكد يعيش فى ثقافة أدبية راكدة محافظة . أما الآن فالعالم المتمدن يعيش فى وسط صناعى متحرك ، يعيش فى ثقافة علمية متحركة متغيرة .

ومن هنا قيمة التوجيه العلمى فى الثقافة العربية الحاضرة . بل يجب أن يرتفع هذا التوجيه إلى مقام الدعاية .

سلامه موسى

مسألة الهند وقضية الباكستان

سبق أن تناولنا مسألة الهند على صفحات هذه المجلة[1] ، وشرحنا بالتفصيل مراحلها المتعاقبة بصفة عامة ، والآن نعرض إلى ناحية خاصة من نواحيها برزت فى العهد الأخير بروزاً يلفت النظر ، وتكاد لدقتها وتعدد نواحيها أن تغدو قضية مستقلة بذاتها .

تلك هى مسألة الباكستان ، أو مسألة الدولة الاسلامية الهندية المنفصلة التى اتخذتها الكتلة الاسلامية بالهند شعاراً لها ، وجعلتها قبلة أمانيها السياسية .

ولقد سمعنا من السيد محمد على جنة زعيم الرابطة الاسلامية ، وهى الهيئة السياسية التى ينضوى تحت لوائها مسلمو الهند ، عند مروره أخيراً بمصر أقوالا تدلى بما وصلت إليه المسألة الهندية من الدقة ، وبما يعلقه المسلمون الهنود من أهمية بالغة على تحقيق أمانيهم فى مسألة الباكستان .

إن مسألة الباكستان أحدث عناصر المسألة الهندية ، ولم تظهر فى ميدان الصراع بين المسلمين والهندوس بصفة جدية قبل عشرة أعوام ، وكان الداعى إلى ظهورها أسبابا وعوامل سياسية واجتماعية حملت كثيراً من المسلمين المستنيرين على الاعتقاد بأن مستقبل المسلمين فى الهند الجديدة المستقلة وفى ظل الأكثرية الهندوسية الساحقة لن يكون مأموناً أو زاهراً إذا لم يكن للمسلمين أنفسهم ضمانات سياسية وطائفية خاصة تحميهم من طغيان الهندوس .

ولقد سارت المسألة الهندية وسار الكفاح القومى الهندى منذ بدايته فى أواخر الحرب العالمية الأولى على أسس قومية مشتركة وتضامن تام بين الهندوس والمسلمين . وكان السيد جنة زعيم المسلمين الذى يحمل اليوم لواء الباكستان ، فى طليعة المجاهدين يومئذ فى سبيل تحقيق الوئام الدائم بين الطائفتين

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٢ (سبتمبر ١٩٤٦) .

الكبيرتين . وكان ميثاق لكنو الذى عقد بين الفريقين فى سنة ١٩١٦ عنوان هذا الكفاح القومى المشترك ، وهو الذى اتخذته السياسة البريطانية أساساً لوضع الاصلاحات الدستورية التى عرفت باسم قانون مونتاجو وشلمسفورد وصدرت فى سنة ١٩١٩ كخطوة أولى فى معالجة المسألة الدستورية الهندية .

ولكن الحوادث أثبتت فيما بعد أن الأكثرية الهندوسية لا ترى فى الكتلة الاسلامية سوى طائفة من طوائف الأقليات ، وأنها تجرى فى سياستها وتصرفاتها على هذا الاعتبار ، وأن فكرة التضامن القومى التى آمن بها المسلمون حيناً لم تكن



إلا سراباً خادعاً تروج له الأكثرية تمكيناً لسلطانها الذى يدعمه تفوقها العددى الساحق . ذلك أن الهندوس يبلغون زهاء ٢٢٠ مليوناً ، ولا يبلغ المسلمون سوى ثمانين أو تسعين مليوناً .

وقد ظهرت نيات الهندوس بوضوح فى مؤتمر الطاولة المستديرة الذى عقد فى لندن سنة ١٩٣٠ لبحث المسألة الهندية ؛ فقد تمسك الزعماء الهندوس وعلى رأسهم

غاندى بالقاعدة القومية فى حل المسألة الهندية ، وأبوا الموافقة على منح المسلمين أية ضمانات خاصة ، و بذلك أخفق المؤتمر . ولما صدر قانون الهند الجديد فى سنة ١٩٣٥ وأقيمت بمقتضاه حكومات برلمانية محلية فى الولايات الهندية ، عانى المسلمون فى ظل حكومات الأكثرية الهندوسية أشد ضروب الاضطهاد والظلم ، واتخذت هذه الحكومات الهندوسية ضدهم خطة سافرة من الاضطهاد المنظم فى سائر المرافق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وأرغموا فى أكثر من ولاية على مراعاة بعض الطقوس الهندوسية ، وتعالت أصوات المسلمين بالشكوى من هذا الاضطهاد ، ولبث زعيمهم السيد جنة يجاهد لدى نائب الملك ولدى الحكومة البريطانية لرفع هذه المحنة ، حتى قرر نائب الملك بما له من السلطة بمقتضى دستور سنة ١٩٣٥ إلغاء هذه الحكومات الاقليمية ، وذلك فى ديسمبر سنة ١٩٣٩ وكان هذا ظفراً عظيما للمسلمين وللرابطة الاسلامية ، واعتبر يوم الالغاء عيد إنقاذ قومى يتقدم فيه المسلمون بالشكر إلى يومنا .

فى مهاد هذه الظروف والعوامل نشأت فكرة الدولة الاسلامية الهندية المستقلة . وترجع بواعثها كما رأيت إلى الخلاف الجوهرى بين المسلمين والهندوس على المبدأ الأساسى الذى يجب أن يكون عليه دستور الهند المستقلة . فالأكثرية الهندوسية تتمسك بما تسميه المبدأ القومى العام واندماج الأكثرية والأقلية فى أمة واحدة يحكمها دستور واحد ، و يطبق فيها مبدأ الانتخاب العام . وأما الكتلة الاسلامية فتتمسك بالعكس بمبدأ الضمانات الخاصة ، وهى بتعدادها البالغ ثمانين أو تسعين مليوناً لا تعتبر نفسها أقلية بل وحدة قومية وسياسية قائمة بذاتها ، ولكنها إزاء تفوق الهندوس الساحق من الناحية العددية تعارض فى مبدأ الاندماج القومى ؛ لأنه يعنى فى نظرها الوقوع تحت نير الهندوس .

هذا من الناحية السياسية . ولكن الكتلة الاسلامية الهندية ترجع أمانيها فى قيام الدولة الاسلامية المنفصلة أيضاً إلى بواعث تاريخية وأدبية ؛ فقد حكم المسلمون الهند قروناً وأنشأوا لهم بها حضارة زاهرة لها مميزاتها الخاصة ، والكتلة الاسلامية وريثة هذا التراث التاريخى تنظر بعين الجزع إلى احتمال وقوعها تحت حكم الأغلبية الهندوسية . هذا إلى أن الكتلة الاسلامية لها دينها الخاص ولغتها الخاصة ومميزاتها العنصرية والأخلاقية الخاصة ، فكيف يمكن بعد ذلك أن

تسمح هذه الكتلة لنفسها بالانزلاق إلى بحر الهندوس الخضم فيطغى عليها و يطمى سائر مقوماتها ومميزاتها !

والمسلمون الهنود لا يريدون أن يتحرروا من السيطرة البريطانية ليسقطوا بين براثن السيطرة الهندوسية ، ولكنهم يريدون استقلالهم القومى الخاص أسوة بالهندوس أنفسهم .

وقد أخذت أمانى الكتلة الاسلامية تتبلور منذ ظهورها من الناحية الجغرافية ، تبعاً لمواقع الولايات الهندية التى تسكنها أكثريات مسلمة . ومنذ سنة ١٩٣٣ أخذ أحد الزعماء المسلمين وهو السيد رحمت على المحامى ينادى بوجوب استقلال الولايات الهندية التى تضم أكثريات مسلمة فى كتلة جغرافية وسياسية موحدة . ولما كان معظم هذه الولايات يقع فى الشمال الغربى للهند فقد اصطلح على أن تسمى هذه الكتلة من الناحية الجغرافية « باكستان » وهو الاسم الذى أطلقه عليها صاحب الدعوة . ومعنى « باكستان » بلاد « الباك » . وكلمة باك بالأوردية معناها تقى أو طاهر ، وهى ترمز إلى كل ما هو مقدس ونبيل فى حياة المسلم .

وتمثل الأحرف التى يتكون منها هذا الاسم بداية أسماء الولايات الهندية الشمالية الغربية على النحو الآتى :

ب) ترمز إلى ولاية بنجاب
ا) يراد بها « أفغان » ممن يقطنون الشمال الغربى
ك) ترمز إلى ولاية كشمير ، وهى إحدى الولايات المستقلة
س) ترمز إلى ولاية سند
تان) ترمز إلى بلوخستان ، والأحرف هنا فى نهاية الكلمة

وتتلخص دعوة الباكستان فى كلمة واحدة هى قيام الدولة الاسلامية المنفصلة . ومع أنها تتركز من الناحية الجغرافية فى الولايات الشمالية الغربية إلا أنها ترمى أيضاً إلى إدماج جميع المناطق الأخرى التى بها أكثريات إسلامية مثل بنغالة والولايات الوسطى فى هذه الدولة الاسلامية المنفصلة .

ولا ترجع فكرة الباكستان إلى أساس طائفى فقط بل تذهب إلى آفاق أوسع مدى . ويرى فيها الهنود المسلمون اليوم مسألة قومية أكثر منها

طائفية ، وأن قضية الهند الكبرى لا يمكن أن تحل حلا نهائيا إلا على هذا الأساس ، أعنى تسليم بريطانيا والهندوس بأن تستقل الكتلة الاسلامية كأمة موحدة فى هذا النطاق الجغرافى ، وأن يكون للدولة الاسلامية المستقلة (باكستان) نفس حقوق الدولة الهندوسية (هندوستان) ونفس الحقوق التى تتمتع بها الدول المستقلة الأخرى .

وتعتبر حركة الباكستان أول فورة للوعى القومى الاسلامى فى الهند منذ سقوط الدولة الاسلامية المغلوبة . وقد أثرت الدعوة فى عقول الشباب المستنير أعظم تأثير ، وذاعت بين جماهير المسلمين ذيوعاً عظيما ، حتى أصبحت شعار الأكثرية العظمى من المسلمين . وقد أعلنت الرابطة الاسلامية فى مؤتمر لاهور فى سنة ١٩٤٠ عزمها الذى لا يتزعزع على التمسك بميثاق الباكستان .

ويسود بين الكتلة الاسلامية الهندية اليوم شعور عميق بأنها تكون أمة مستقلة بذاتها وبخواصها ، وأن لتراثها السياسى والاجتماعى أهمية لا يمكن الاغضاء عنها ، وأن موقفها وأمانيها أضحت تكوّن عنصراً حاسماً فى أية تسوية توضع لحل القضية الهندية .

تلك هى وجهة نظر الكتلة الاسلامية الهندية فى شأن قضيتها القومية ، وتلك هى البواعث والاعتبارات التى يرجع إليها تمسكها بقيام الدولة المسلمة المستقلة .

وقد أشكل على الكثيرين فهم موقف مسلمى الهند ، ورأى البعض فى اعتراضهم على قيام الدولة الهندية المتحدة وتمسكهم بقيام الدولة المنفصلة خروجاً على الاتحاد القومى وإهداراً للمبادئ الوطنية وممالأة للاستعمار البريطانى . ولكن هؤلاء لم يفهموا المسألة على حقيقتها ، ولعلهم بعد استعراض هذه البواعث والاعتبارات القومية التى يسوقها المسلمون تبريراً لموقفهم يصححون هذا التصوير الخاطئ لفهم قضية الباكستان .

وقد اهتم الزعماء الهندوس بأمر هذه الحركة الاسلامية القومية ، وأخذوا يتوجسون شرا من عواقبها ؛ لأنها تحول دون بغيتهم فى سيطرة الأكثرية الهندوسية على مصاير الهند الجديدة ، وهم يحاولون كسب السياسة البريطانية إلى جانبهم ، وإقناعهم بأن هذه الحركة أو أية حركة مماثلة أخرى إنما هى خطر على مصير الهند المتحدة ومصالح بريطانيا ، كما أنها خطر على مصير الأقليات الهندوسية فى الولايات الاسلامية .

وقد كسب الهندوس فيما يبدو الجولة الأولى فى هذه المعركة العنصرية السياسية ، وتقدمت الحكومة البريطانية إلى الهند بمشروع التسوية الجديد فى مايو الماضى خلواً من كل ضمانة خاصة للأقليات . وخلاصته أن تؤلف فى الحال حكومة هندية مؤقتة يتولى سائر مناصبها الهنود ، وتقوم بوضع دستور الهند الجديد جمعية تأسيسية تمثل فيها الطوائف الكبرى كل منها حسب نسبتها العددية ، وأن يقوم الدستور الجديد على أساس اتحاد قومى يشمل الهند البريطانية والولايات المستقلة مع اختصاص مشترك فى شؤون الدفاع والمواصلات والسياسة الخارجية ، وأن يقوم مجلس تشريعى مشترك ، وأن تحتفظ الولايات بالاشراف على الشؤون المحلية الأخرى ، وأن تؤلف حكوماتها المحلية الخاصة على أساس القواعد الدستورية .

وهكذا استبعد مشروع الباكستان من التسوية الجديدة ، وأهملت مطالب المسلمين الانفصالية . وكان من جراء ذلك أن عارضت الرابطة الاسلامية هذه التسوية بكل قواها و رفضت أن تشترك فى تنفيذها ، وقامت الوزارة الهندية الجديدة دون اشتراك الرابطة الاسلامية فيها ، وقامت الجمعية التأسيسية أيضاً دون أن يشترك فيها نواب الرابطة الاسلامية . و يبلغ عدد أعضاء هذه الجمعية ٣٨٩ وفقاً للنسبة العددية لمختلف الطوائف ، منهم ٨٠ نائباً مسلماً . وقد افتتحت فى اليوم التاسع من ديسمبر الماضى ، ولم يشترك فى أعمالها سوى ٢٢٢ نائباً منهم ٢٠٥ من نواب حزب المؤتمر الهندوسى وستة نواب مسلمين من المشايعين لحزب المؤتمر . وعلى ذلك فلا يمكن أن يقال إن هذه الجمعية التأسيسية تمثل الهند تمثيلا صحيحاً ، وهى لا تمثل بوضعها الحاضر سوى الأكثرية الهندوسية .

وقد حاولت الحكومة البريطانية قبيل افتتاح الجمعية التأسيسية بأيام قلائل أن تبذل مجهوداً أخيراً للتوفيق بين المسلمين والهندوس ، فدعت البانديت جواهر لال نهرو زعيم حزب المؤتمر ورئيس الوزارة الهندية الجديدة والسيد محمد على جنة زعيم الرابطة الاسلامية إلى لندن ، وجرت بينهما و بين مستر أتلى رئيس الحكومة البريطانية محادثات لم تسفر عن أية نتيجة . وعرض البانديت نهرو على الجمعية التأسيسية يوم افتتاحها مشروعاً لاعلان الهند جمهورية اتحادية ذات سيادة ، وأن يشمل دستورها المستقبل كل أراضيها ، وأن يقوم على مبادئ ديمقراطية محضة ؛ فوافقت الجمعية على اقتراحه . وفى الوقت الذى يصرح فيه البانديت نهرو وزملاؤه

الزعماء الهندوس بأنهم لن يوافقوا مطلقاً على تحقيق مشروع الباكستان أو الدولة الاسلامية المنفصلة ، يصرح السيد جنة زعيم الرابطة الاسلامية بأن مشروع الباكستان قد غدا بالنسبة لمسلمى الهند مسألة حياة أو موت ، وأن المسألة الهندية لا يمكن أن تحل على أسس عادلة دائمة إلا بتحقيق هذا المشروع .

وما زال كل من الفريقين عند موقفه . على أنه يبدو أن حزب المؤتمر وإن كان قد ظفر فى الجولة الأولى باستبعاد مشروع الباكستان من دستور الهند الجديد ، يقع الآن من الناحية العملية فى مأزق حرج ، ولا يستطيع المضى فى مهمته مطمئنا . فقد رأت الجمعية التأسيسية من جانبها وكل أعضائها الحاليين من ممثلى حزب المؤتمر ، أن ترجىء البحث فى دستور الهند المستقبل إلى موعد آخر ، ليتسنى لنواب الرابطة الاسلامية والولايات المستقلة أن يشتركوا مع الجمعية فى وضعه إذا شاءوا ، ومن جهة أخرى فان بعض الزعماء المعتدلين من الهندوس يشيرون إلى حل وسط يمكن الأخذ به ، وهو أن تفصل بعض الولايات الهندية المسلمة فى وحدة سياسية مستقلة على أن يكون ذلك بموافقة الجمعية التأسيسية ، لا بموافقة الحكومة البريطانية ، وذلك تمشياً مع نظرية المؤتمر فى وجوب الأخذ بالمبدأ القومى العام .

ولسنا نعرف ماذا يكون موقف الرابطة الاسلامية من هذا الحل الجزئى . ولكن الذى لا ريب فيه هو أن أى حل للمسألة الهندية لا يحقق فيه أمانى الكتلة الاسلامية بصورة مرضية لا يمكن أن يقوم على أسس مستقرة . ومن العسير أن تغفل السياسة المستنيرة إرادة تسعين مليوناً من البشر .

محمد عبد الله عنان

جولدتسيهر أبو الدراسات الاسلامية[1]

بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على وفاته

فى الثالث عشر من نوفمبر الماضى تمت خمس وعشرون سنة على وفاة أجناتس جولدتسيهر المستشرق العالمى الفريد الذى عد فى آخر حياته أبا الدراسات الاسلامية المصرية . فقد قضى ج . مخلفاً تراثاً علميًّا ضخما يبلغ زهاء ٦٠٠ كتاب ومبحث[2] فى الدين الاسلامى وفلسفته ، وتصوفه وشيعته ، وتاريخ مذاهبه وفرقه ، وفى أدب العرب ولغتهم وفى مواضيع أخرى . وإنى لأشهد أنى فى كل ما قرأت لج . من البحوث العلمية لم أقع على صفحة واحدة تخلو من شئ جديد لم يسبقه إليه أحد ، ولا سيما الشواهد التى جمعها من مصادر ومظان شتى بين قديمة وحديثة . أجل ! إن كمية إنتاج ج. العلمى لجديرة بالاعجاب والتقدير . غير أن ما يخلد ذكره ويرفع مكانته بين باحثى الشرق ومحبيه ليست كمية إنتاجه العلمى بل ابتكاره طرقاً جديدة فى درس التمدن الاسلامى وتطوره . قال العلامة المستشرق ك . ه . بيكر فى رثائه لج . — وكان بيكر حينئذ وزير المعارف فى بروسية ، ورثاؤه من أحسن ما كتب عن ج. [3] — « مهما تكن التطورات والتعديلات التى تطرأ على بحث الاسلام فى المستقبل فما لا شك فيه أن هذا البحث سيقوم دائماً على الأسس والمناهج التى وضعها ج. »

---

(١) كتب هذا المقال باللغة العربية المستشرق المعروف الأستاذ . س . د . غويطاين خاصة لمجلة «الكاتب المصرى» .

(٢) أحصى برنرد هيلر فى كتابه « مؤلفات أجناتس جولدتسيهر » باريس ١٩٢٧ ، ٥٩٢ مؤلفاً ومبحثاً . غير أن هيلر سها عن بعض البحوث ومنها المقالات التى وضعها ج. بالعبرية ، وسيأتى ذكرها فيما يلى .

(٣) رجع الأستاذ عبد الرحمن بدوى إلى ذلك الرثاء فى الفصل الذى كتبه عن ج. فى كتابه «التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية» الطبعة الثانية سنة ١٩٤٦ ، ص ٣٠٨-٣١٩ .

ولد ج. فى سنة ١٨٥٠ فى إحدى مدن المجر . غير أن أصل أسرته سفارادى أى من الأندلس . وقد هاجرت هذه الأسرة — كـكثيرات غيرها — من جنوب أوربا إلى هولندا ، ومنها انتقلت فى القرن السابع عشر إلى همبورج فى ألمانيا . وفى النهاية استقر فرع منها — وهو الفرع الذى ينتسب إليه ج . — فى بلاد المجر التى كانت فى ذلك الحين جزءاً من الامبراطورية النمساوية . فلا عجب إذن أن يتقن ج. اللغتين المجرية والألمانية من صغره . ثم درس العبرية وهو طفل على معلم خصوصى أقام فى دار والديه . وقد لبث ج . يذكر هذا المعلم شاكراً مطنباً طوال حياته ويردد : إن كنت قد فزت بشئ من الأخلاق الحميدة فانما يرجع ذلك إلى اثنين : إلى مطالعتى الدائمة فى كتاب الهداية إلى فرائض القلوب (وهو كتاب فلسفى أخلاق وضعه الحاخام بحاى بالعربية) وإلى معلمى موسى الذى كان مثالا للورع والتواضع مع أنه كان يضربنى كلما غلطت أيسر غلطة فى تلاوة التوراة . وطبقاً للمعتاد فى ذلك الوقت درس ج. اللغتين اللاتينية واليونانية وأجادهما . وقد أعانه إتقانه هاتين اللغتين كثيراً على بحثه فلسفة القرون الوسطى وسائر علومها ؛ فقد تجد مراجع كلاسيكية وافرة واردة فى معظم كتبه يضاف إلى ذلك أنه كتب بحوثا خاصة لقضية تأثير الفكر اليونانى فى العالم الاسلامى ، مثل مقاله الممتاز عن العناصر الأفلاطونية الحديثة والأجنوسطية فى الحديث أو بحثه عن موقف الاسلام القديم من العلوم اليونانية[١] .

كان ج. ناضج العقل وهو صغير ؛ فقد طبع أول كتاب له ولما يَعْدُ الثانية عشرة من عمره . ما رأيت هذا المؤلف ولكن من التلخيص الفرنسى الذى وضعه له البروفسير برنهرد هيلر فى كتابه « مؤلفات جولدتسيهر » يتبين أن طريقته كانت علمية محضة . وموضوعه تطور الصلاة فى الدين الموسوى وإلغاء الزيادات المتأخرة التى أضيفت إليها على مرور الزمن . نشر ج . وهو شاب يدرس فى إحدى المدارس الثانوية قطعاً مترجمة عن اللغة التركية إلى المجرية . وكذلك نقل — وهو طالب فى الجامعة — قطعاً عن اللغة الفارسية إلى العبرية . ومما يلفت النظر مقالة نشرها وهو ابن تسع عشرة سنة فى جريدة عبرية أسبوعية كانت تصدر فى باريس قابل فيها بين طريقة البيضاوى فى تفسير القرآن وطرق

(١) ترجم هذين المقالين إلى العربية الاستاذ عبد الرحمن بدوى فى كتاب التراث اليونانى السابق الذكر .

الشرح للتوراة فى التلمود . وأضاف إلى ذلك قوله : إن بحث هذه الطرق وعلاقات بعضها ببعض أمر مفيد جداً . ولا شك أن من يتناول هذا البحث الواسع العميق يستحق الشكر . ونحن نعرف اليوم من كان الرجل الذى تناول هذا البحث الواسع العميق . وبعد مرور أكثر من خمسين عاماً على نشر تلك المقالة أصدر جولدتسيهر فى سنة ١٩٢٠ كتابه العبقرى « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين» الذى أنجز فيه وعداً قطعه على نفسه وهو شاب فى العقد الثانى من عمره.

درس ج. المشرقيات فى بودابست عاصمة المجر على فامبيرى ، وهو مستشرق يهودى الأصل اشتهر بسياحاته الجريئة فى تركستان وغيرها من بلاد آسيا الوسطى ، و بتاليفه الكثيرة عن اللهجات التركية والحياة الاجتماعية والسياسية فى بلاد الشرق . وقد أخذ ج . عن هذا الأستاذ علاقته الحية المباشرة بالشرق الحاضر . ومع أنه ما كان أحد يضاهى ج. فى كثرة المطالعة للكتب والمخطوطات القديمة ، فانه لم يزل يتتبع تطور الشرق المعاصر إلى يومه الأخير . وكثيراً ما كان يفسر ظاهرات مبهمة مذكورة فى المصادر القديمة على ضوء الحياة الشعبية العصرية فى الشرق . غير أن ج . خلافاً لأستاذه فامبيرى ما كان يتدخل فى الأمور السياسية مطلقاً ، وكان يرفض رفضاً باتًّا كل محاولة ، مهما كان مصدرها ، ترمى إلى استغلال مكانته ونفوذه لأغراض سياسية .

وفى سنة ١٨٧٠ فاز ج. بالدكتوراه وهو فى العشرين من عمره من جامعة ليبتسيك باطروحة لغوية . وفى السنين التالية لها نشر عدة كتب ومقالات عن درس اللغة عند العرب وغيرهم . ولكن اللغة كانت عند ج. وسيلة لا غاية . وما كانت عنايته الجوهرية الرئيسية إلا بالأفكار وتطورها من جهة ، والحياة — الحياة الدينية والحياة الشعبية — من جهة أخرى . وما مرت أربع سنوات على نشر أطروحته حتى وضع كتابين بشرا بأنه سيكون مؤرخ الاسلام المستقبل : كتاباً بالمجرية فى العروبة والشعوبية ، وآخر بالألمانية فى مؤلفات مذهب الشيعة والجدل بين المذهبين الشيعى والسنى . وفى ذلك الحين سنحت له الفرصة بالسفر إلى الشرق ، فزار سوريا وفلسطين ومصر ، وتوثقت عرى الصداقة بينه و بين بعض علماء دمشق و بعض شيوخ الأزهر . وقد استمرت تلك الصداقة إلى آخر أيامه . غير أنه شكا فى كتاب أرسله إلى صديق له أثناء الحرب العالمية الأولى أن أكثر أصدقائه الخصوصيين فى الشرق قد توفوا ولم يبق منهم على قيد الحياة إلا القليل .

وبعد رجوعه من هذا السفر الخصب عالج ج . موضوعاً شاقا واسع الأطراف أبعده كل البعد عن بحوثه الاسلامية ، وهو كتاب دافع فيه دفاعاً حماسيًّا عن الشعوب السامية ، ورد على أرنست رينان الذى زعم فى كتابه المشهور « تاريخ اللغات السامية » أنه ليست للساميين ميثولوجيا — أى أساطير — لأنهم عديمو الخيال الفنى . و بيّن ج. فى كتابه ضخم اسمه « الميتوس — أى الأساطير — عند العبريين » أن الميثولوجيا درجة من درجات التطور الانسانى لا بد أن تجتازها كل أمة فى حين من الأحيان . واستشهد على ذلك بكثير من قصص الكتاب المقدس وغيره من المصادر السامية مثبتاً أن الساميين كغيرهم من الأمم كانوا أصحاب أفكار خيالية ميثولوجية قبل أن تنشأ فيهم الدعوة الدينية . وقد صادف هذا الكتاب إقبالا حسناً فى وقته ، وترجم على الفور إلى اللغة الانكليزية . واليوم بعد كشف الآثار البابلية الأكادية ، ولا سيما بعد حل رموز ألواح رأس الشمرة فى شمالى سوريا ، نقدر أن نقول إن رأى ج. كان أقرب إلى الصواب من زعم رينان . غير أن ج . لم يلازم بعد ذلك هذا النوع من البحوث طويلا بل رجع إلى الدراسات الاسلامية والعربية التى قصر عليها جهوده طيلة عمره . ونظراً للعلاقات الوثيقة بين الدينين الاسلامى والموسوى واللغتين العربية والعبرية كان من طبيعة الأمور أن يجعل هذا العالم الاسرائيلى الكبير نصيباً من عنايته لبحث هذه العلاقات . نذكر سلسلة مؤلفة من أربع وثلاثين مقالة عنوانها بحوث يهودية عربية نشرت فى مجلة الدراسات اليهودية الفرنسية أثناء عشر سنوات (١٩٠١ — ١٩١٠) أو مقالته « فكرة يوم السبت فى الاسلام » أو بحوثه الكثيرة عن تأثير الأدب العربى فى الشعر العبرى والفلسفة اليهودية فى القرون الوسطى . ولكن ج . إنما كان عزمه شديداً أن يتخصص فى دراسة الاسلام والأدب العربى فقط . وفى كتاب بعث به ج . إلى صديق له شجعه على تناول مواضيع يهودية كتب ج. متفكها : إنى خلقت تحت نجم هاجر — أم إسماعيل — وكتب علىّ أن أستنفد جهدى فى أدب حفدتها العرب ودينهم .

وقبل أن نعرض لنتيجة هذا الجهد الكبير الفريد يجدر بنا أن نصف بايجاز ظروف حياة ج . الخارجية منذ رجوعه من سفره إلى بلاد الشرق الأدنى فى سنة ١٨٧٤ إلى حين وفاته فى سنة ١٩٢١ . سبق ج .أن أحرز إجازة التدريس فى جامعة بودابست منذ عامه الثانى والعشرين . غير أن نفوذ الدوائر الدينية

كان حينئذ قويا جدًّا فى تلك الجامعة ، ولم يكن يعين فيها حتى عالم بروتستنتى مدرساً رسميًّا إلا بعد الكثير من المتاعب ، فكيف يعالم يهودى ؟ لذلك اضطر ج . إلى أن يبحث له عن عمل خارج الجامعة ، فشغل منصب سكرتير الطائفة الاسرائيلية فى تلك المدينة الكبرى طوال ثلاثين عاماً . و بالرغم من عدم الفراغ والراحة أثناء أحسن أوقات حياته ، و بالرغم من عمله الادارى المرهق الذى يكرهه وضع ج. فى تلك السنين كتباً عديدة ومئات البحوث واشتهر فى العالم حتى صار ثقة فى الاسلام والآداب الاسلامية . وأخيراً فى سنة ١٩٠٤ عين مدرساً رسمياً فى جامعة بودابست ، وانتخب رئيساً للقسم الأدبى فى الأكاديمية المجرية ، ونال تشريفات أخرى منها لقب دكتور شرف من جامعتى كامبريدج الانكليزية وأبردين الأسكتلندية وعضوية شرف فى المجمع العلمى المصرى .

عانى ج . عناء شديداً حتى بلغ فى النهاية هذه الدرجة الرفيعة . غير أنه ما كان من المتذمرين . كان هذا الرجل صاحب توكل وصبر . وقد مهر رسائله بخاتم فيه الآية القرآنية الواردة فى سورة يوسف « فصبر جميل والله المستعان » وإنه لفى وسع كل عربى مثقف اليوم أن يقدر طرفاً من الخدمة التى أداها ج . لدراسات الاسلام بعد أن ترجم اثنان من مؤلفاته المهمة إلى اللغة العربية ، وهما : « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين » وهو آخر كتاب له صدر فى حياته وكتاب « العقيدة والشريعة فى الاسلام » الذى سبقه بعشر سنوات ونشر سنة ١٩١٠ .

لقد قيل إن من المحتمل أن يكتب تاريخ الفكر الدينى الاسرائيلى بصورة وصف تطور التفسير للتوراة على مرور الأجيال ؛ لأن كل شئ فى اليهودية يبدأ من التوراة وكل شئ يرجع إليها . فأخذ ج . هذه الفكرة ونقلها إلى البحوث الاسلامية . وعلينا أن نذكر أن كتابه « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين » كان آخر كتاب وضعه وهو النتيجة الناضجة لدراسات قام بها خلال خمسين سنة تقريباً . لم يدع ج . فرعاً من فروع العلوم الاسلامية إلا عالجه . أما فى آخر عمره فقد استرعى اهتمامه ذاك الأصل الذى بدأ منه كل شئ فى الاسلام وإليه يرجع كل شئ وهو القرآن وتفسيره . وأهمية التفسير : أن آراء كل جيل من أجيال الاسلام و بواعثه النفسية لا بد أن تبدو بأوضح طريقة فى شرح الكتاب الذى هو أساس الدين وحجته فى كل زمان .

ونرى ج . يقف أولا عند اختلاف القراء القدماء فى قراءات القرآن موقناً أن هذه الاختلافات فى كتابة القرآن وتشكيله ربما تعبر فى الواقع عن اختلاف الآراء والبواعث . ونراه يسهب فى الكلام عن تفسير الطبرى الكبير الذى يقع فى ٣٠ مجلداً ؛ لأن هذا الأصل النفيس يشف عن أفكار الاسلام القديم الأصلى . و يتبعه بشرح المعتزلة أهل العدل والتوحيد ، وتأويل الصوفيين الذى فيه شئ من طرق التأويل التى اخترعها فيلون الفيلسوف الاسكندرى ، كما يتحدث عن تفسير الشيعة على مختلف فروعها . ويختم الكتاب بفصل كبير عن النهضة الحديثة فى مصر وسائر البلاد العربية وتركية وفى بلاد الهند وتأثيرها فى التفسير العصرى للقرآن .

فى رسالة بعث بها ج . إلى صديق له فى آخر أيامه شكا إليه المتاعب التى عاناها فى وضع هذا الكتاب : « كم ليلة أحييت وكم سنة أبليت فى إعداد هذا المبحث الجاف » . بل لنسمع ما قاله عنه بيكر فى رثائه المشار إليه سابقاً : « كتب ضخمة عظيمة الحجم كدنا نحن نعرف أسماءها قرأتها أنت يا ج . من أولها إلى آخرها ، وحددت مكانتها من تطور الاسلام . لذلك حق لك شكرنا وشكر هذا الفرع من علوم الاسلام الذى ما كان معروفاً منه قبلك إلا القليل . »

لست أرى ضرورة إلى أن أسهب فى الكلام عن كتاب ج . الآخر الذى حظى بالتعريب ، أعنى كتاب « العقيدة والشريعة فى الاسلام » ؛ لأن هذا الكتاب من أمهات المصادر العلمية التى تجب تلاوتها على كل من يريد أن يتثقف فى شؤون الشرق . قسم ج. الكتاب ستة أقسام ، خصص أولها للقرآن وأوائل الاسلام ، وثانيها للفقه والمذاهب الأربعة الرئيسية وغيرها من المذاهب ، والقسم الثالث للالهيات والعقائد ، والرابع للزهد والتصوف ، والخامس للشيعة وللفرق الاسلامية الأخرى ، والسادس للحركات الدينية الحديثة عند المسلمين . وكان ج . قد وضع مثل هذا الكتاب باللغة المجرية فى سنة ١٨٨١ أى قبله بثلاثين عاماً ، فجاءت فيه فصول لم يكررها فى تأليفه المشهور . وأهم هذه الفصول فصل عن الآثار الفنية الاسلامية وعلاقاتها بالفكر الاسلامى ، وفيه فائدة طائلة . ترجم كتاب العقيدة والشريعة فى الاسلام إلى اللغة الانكليزية فى أميركا أثناء الحرب العالمية الأولى ، فطبعت هذه الترجمة ، وأحرقت كلها لأنها كانت زاخرة بالأغلاط . وترجم الكتاب إلى اللغة الفرنسية أيضاً . وما كانت هذه الترجمة فيما

أعرف تخلو من المآخذ كذلك . ولا أقدر أن أقول شيئاً عن الترجمتين الروسية والمجرية . أما الترجمة العبرية الأولى التى صدرت قبل عشرين عاماً فقد اضطررت أن أشهد أن الحرق كان أولى بها أيضاً (ستصدر فى هذه السنة ترجمة عبرية جديدة) . ولعل ج . شعر بأن حظ كتابه سوف يكون على هذا النحو ؛ لأنه لما بعث به إلى المطبعة كتب إلى بعض أصدقائه يقول : « يقشعر جلدى من متاعب تصليح المسودات (البروفات) ومن حماقة القراء فى المستقبل » . يدل ذلك كله على أن هذا الكتاب يحتاج إلى الدرس و إمعان الفكر مع أنه واضح العبارة جذاب الأسلوب .

وضع ج . هذين الكتابين فى أيام شيخوخته بناء على طلب تلقاه من جامعات ودوائر علمية شتى . فكتابه « العقيدة والشريعة فى الاسلام » عنوانه فى الأصل « محاضرات عن الاسلام » ؛ لأن الكتاب أعد ليكون سلسلة من المحاضرات تلقى فى أميركا . ومن جهة ثانية قبل دعوة جامعة ابسالا فى بلاد السويد حيث ألقى محاضرات أخرى أخرجها بعد ذلك بصورة كتاب « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين » . فمن العجب أن ج. مع أنه خلف كما ذكرنا زهاء ٦٠٠ كتاب ومبحث ومع أنه كان أستاذاً موفقاً جداً ومحدثاً طلق اللسان — من العجب أنه لم يكن معنيا إلا بالبحث والاستكشاف والعثور على معلومات ما سبقه إليها أحد ، ولم يكن يعنيه كثيراً أن يلخص نتائج دراساته و ينشرها للجمهور . لذلك فمن أراد أن يعرف ج. حق المعرفة و يستفيد من جهده العلمى تمام الفائدة فعليه أن يكتفى بمطالعة كتابه التلخيصى الشامل عن الاسلام الذى وضعه وهو طاعن فى السن ، بل عليه أيضاً أن يرجع إلى مباحثه الاختصاصية العبقرية التى ابتكر فيها طرقاً جديدة فى دراسة الاسلام . لا نقدر أن نشير إلى هذه المباحث إلا فى غاية الايجاز . وفى الابتداء يجدر بنا أن نتكلم عن كتابه المشهور « مباحث إسلامية » الذى صدر فى مجلدين سنة ١٨٨٩ و ١٨٩٠ ، والذى عالج فيه ظواهر شتى فى الحياة الدينية والاجتماعية فى الاسلام ، منها «المروءة والدين» أى النضال العنيف بين روح الجاهلية العنصرية الأرستقراطية و روح الاسلام الداعية إلى المساواة الديمقراطية . وهو موضوع كان قد كتب عنه من قبل بالعبرية فى بحثه « العروبة والشعوبية » السالف الذكر . و إنما أردنا أن نلفت النظر إلى بحثه عن الحديث الوارد فى ذلك الكتاب لأنه مثال واضح لمنهجه المبتكر .

من المشهور أن مع الأحاديث الصحيحة الحقيقية نقلت أحاديث أخرى كثيرة شهد علماء الاسلام أنها ضعيفة أو موضوعة . فلنسمع رأى ج . فى هذا النوع من الأحاديث . صحيح أن هذه الأحاديث لا قيمة لها أو أن قيمتها ضئيلة لمعرفة عصر النبى وأصحابه . أما لمعرفة الآراء والبواعث النفسية التى كانت تسود فى العصور التى وضعت فيها تلك الأحاديث فهى أصدق مصدر وأفصحه . لأن المرء ما كان ليضع شيئاً و ينسبه إلى النبى وأصحابه إلا وهو معتقد اعتقاداً قويا أن هذا الشئ حق وفى مصلحة الاسلام . و بناء على هذه الطريقة وضع ج . تطور الاسلام فى قرونه الأولى وضعاً مفصلا كل التفصيل ، توجد خلاصة منه فى كتابه « العقيدة والشريعة فى الاسلام » .

وما عدا الحديث عالج ج. كثيراً الفقه والعقيدة . من المشهور أن تقسيم أهل الاسلام إلى المذاهب الأربعة الرئيسية إنما هو نتيجة تطور امتد قروناً عدة . فلإيضاح هذه القضية رأى ج. أن يبحث مذهباً ليس من المذاهب الأربعة الكبيرة ، وهو مذهب الظاهريين ، أى مذهب من كان يقول بظاهر الكتاب فقط ، وكان يرفض تأويل القرآن وما يستنتج منه . هذا الرأى الظاهرى له علاقة بالشريعة والعقيدة معًا . ولذلك كان كتاب ج . فى الظاهرية الذى صدر فى ١٨٨٤ بحثاً مركباً من دراستى الفقه والإلهيات . وأن هذا الكتاب أول بيان مسهب لماهية الفقه فى دين غير الدين المسيحى ؛ ولأجل ذلك أثر تأثيراً كبيراً و يعتبر إلى اليوم من أحسن ما كتبه ج. وجدير بالذكر أن علماء المسيحيين الذين كتبوا عن اليهودية وبالأخص جورج فوت مور فى مؤلفه المهم *Judaism* إنما كانوا يعتمدون على هذا الكتاب لإيضاح خصائص الدين الاسرائيلى . ومن بحوث ج. الأخرى فى الفقه والعقيدة كتابه (١٩٠٢) عن أبى تومرت المهدى مؤسس حركة الموحدين فى المغرب ، درس فيه خصائص الفقه المالكى وآراء المهدى الجديدة المتعلقة به ، وكتاب عن رد الغزالى على الباطنية وهى فرقة متطرفة من فرق الشيعة الاسماعيلية (١٩١٦) .

ولا بد من الاشارة إلى بحوث ج. فى التصوف . فى كتابه *An Introduction to the History of Suffism* وهو بحث عن تقدم الدراسات الصوفية فى أوربا حدد البروفسور اربرى مقام ج . فى هذا التقدم قائلا : إن ج. هو الذى أوضح بإسهاب الفرق العميق بين الزهد (يعنى حركة

العباد الزهاد السذج القدماء) و بين التصوف الفلسفى الفكرى الذى ربما تأثر بالآراء الأفلاطونية الحديثة والبوذية الهندية . غير أننى أريد أن أذكر من مباحث ج. بحثاً آخر لم يرد فى كتاب اربرى ، برهن فيه ج. على أن الحد بين التصوف القديم غير المركب والتصوف الأحدث الفلسفى ليس قطعيا ؛ إذ توجد حتى فى الحديث القديم آراء ليست بعيدة عن الأفكار الأفلاطونية الحديثة التى بدت بعد ذلك فى التصوف . وهذا المثال يدل على أن بحوث ج. بحر لا نهاية له يصعب أن يحيط به أحد . ولذلك لو قام عالم ونظم فهرساً لأهم الأعلام والمواضيع الواردة فى مباحث ج . لأدى خدمة جليلة للدراسات الاسلامية .

وهنالك ملاحظة عن شئ استغربه غير واحد ممن قرظ ج. حيا أو رثاه بعد وفاته . وهو أن ج. قد كتب كثيراً عن العلاقات بين الأديان ؛ فانه وضع بحثين باللغة الألمانية عن تأثير المسيحية فى الحديث وغيره من أصول الدين الاسلامى ، ونشر مقالة بالفرنسية عن المجوسية والاسلام ، ومقالة بالمجرية مسهبة عن نفوذ البوذية الهندية . غير أن هذا العلامة الذى كان يشهد على نفسه أنه ما كان يمر به يوم إلا وهو يدرس قطعة من التلمود والذى جاء بمئات من المقابلات بين ظاهرات فى الاسلام واليهودية منبثة فى مباحثه ، لم يخص تأثير اليهودية فى الاسلام بمبحث على حدة . كان سبب ذلك فى رأيى رغبته فى الابتعاد حتى عن مجرد التهمة بالتعصب والإيثار . لأن ج. كان رجلا منصفاً وربما كان يخشى أن يخل بالانصاف مبحث من هذا النوع .

ذكرت أن ج. زار مصر فى أيام شبابه ، وأن عرى الصداقة توثقت بينه وبين بعض علمائها . وبذلك تمت علاقاته بهذه البلاد . فلما أسست الجامعة المصرية فى سنة ١٩٠٨ حرص مؤسسها الكريم الأمير فؤاد — الذى تسلم عرش مصر بعد ذلك — على أن يجذب إليها أشهر المستشرقين ، فوجه إلى ج. رسائل يعرض عليه التدريس فيها ، ثم سار إلى بودابست حيث كان يقيم ج. ليفاوضه شخصيا وليحمله على قبول عرضه ، وقد جرى ذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٩١١ . وج . يتحدث مراراً فى رسائل بعث بها إلى أصدقائه عن الشرف العظيم الذى أنالته إياه زيارة الأمير المليك .

غير أن ج . الذى كان قد بلغ العقد السابع من عمره التمس من الأمير المليك أن يعفيه من هذا الشرف ، وأن يعهد بهذه المهمة الخطيرة إلى علماء أحدث منه

سناً ، ولا سيما أنه كانت لديه مواد علمية كثيرة جمعها خلال السنين الطويلة التى قضاها فى الخدمة الإدارية ، وكان شديد الرغبة فى تنقيحها وإصدارها فى حياته . ومن أهم هذه المواد كتابه القيم « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين » وكتب وبحوث أخرى سبق ذكر بعضها .

إن ج. لم يحظ بالعودة إلى مصر شخصيا ، بل تمكن من العودة إليها بصورة أفضل وأعظم دواماً ، إذ ترجم اثنان من أحسن مؤلفاته إلى اللغة العربية ، وقام بهذا المشروع خير من يصلح له وهم طائفة مختارة من علماء مصر والأزهر الشباب الذين أضافوا إلى ثقافتهم العربية الاسلامية العميقة ثقافة أوربية واسعة كذلك .

ويسرنى أن أورد نبذة مما استقبل به عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين صدور كتاب « العقيدة والشريعة فى الاسلام » باللغة العربية إذ يقول :

« وما من شك فى أن الذين يقرءون هذا الكتاب من المثقفين العرب لن يجدوا فى قراءته لذة ومتعة فحسب ولكنهم سيجنون من هذه القراءة ثمرات لا يستطيع كثير منهم أن يجنيها من قراءة كتبنا القديمة التى بعد العهد بينها وبين عقلنا الحديث . »

فانى لك أى ج. أن تسمع هذه الشهادة التى يشهد لك بها من هو أهل لتقدير خدماتك للاسلام والعرب . وهنيئاً لك أن يقال عن كتابك هذا الذى وضعته للمثقفين من أهل أوربا وأميركا والمتخصصين فى الدراسات الدينية بأنه يستطيع أن يكون كذلك وسيلة مجدية حتى للمثقفين العرب لفهم غابر دينهم وتاريخه . وأحسبك ما كنت تطمح أن تنال ثواباً أعظم من هذه الترجمة وهذا التقدير .

ويستطيع علماء مصر أن يجعلوا هذه الخدمة أعم إذا نهضوا لترجمة تلك الكتب التى نشرها ج. بلغات غير عالمية ولا سيما بالمجرية ، ومنها « مكان عرب أسبانيا فى تاريخ الاسلام ومقارنته بمكان عرب الشرق » و « تاريخ علم اللغة عند العرب » وفصل عن « الآثار الاسلامية وعلاقاتها بتطور الفكر الاسلامى » من كتاب بالمجرية عن الاسلام سبق ذكره . ومبحثه « فن كتابة التاريخ عند العرب » و « تأثير البوذية فى الاسلام » .

وفى الختام أحب أن أقر بأن ج . كان يعتقد أن دراسة الأديان لا تهم المتخصصين فقط بل عامة المثقفين كذلك : لقد كان بحث الأديان ديناً له . وقد

تعرض ج. لهذا الموضوع فى كتابه « ماهية اليهودية وتاريخها » الذى صدر بالمجرية بعد وفاته وتوجد خلاصة عنه بالفرنسية فى كتاب « مؤلفات جولدتسيهر » السابق ذكره .

أجل ! لقد كان ج. المثل الأعلى للبحث المنزه الذى لا ينطق عن الهوى ولا يسأل الأجر ، إنما هو ابتغاء وجه الحق وطلب العلم ، لا العلم لأجل العلم فحسب ، بل العلم المؤدى إلى تهذيب الأخلاق وهداية الناس إلى ربهم .

س. د. غريطاين

TROUBADOURS
ET POETES HISPANO - MAURESQUES
ETIEMBLE

التروبادور وشعراء الأندلس

حينما تحدث دى بيللى Du Bellay عن شعر التروبادور قال: « ماأحقره ! دعنى من كل هذه التوابل التى تفسد علينا مذاق لغتنا ، والتى ليس وراءها نفع إلا أن تكون شاهداً على جهالتنا . » وهكذا أصدر حكمه على الشعر البروفانسى فى استهانة وجور نجدهما عند نقاد القرن السابع عشر نحو هذا الشعر . وبعد أمد طويل ، فى نهاية القرن التاسع عشر، رُدّ على أناشيد الجستْ chansons de geste وقصص المائدة المستديرة وشعر التروبادور اعتبارها فى صورة مضطربة مختلطة ، وذلك تحت تأثير عامل الخوف الشديد الذى دفع الطوائف المرشدة إلى الأسف على القرون الوسطى والترحم على أيامها الجميلة . فأصبح الشعر البروفانسى فجأة شعراً فرنسيا له حكمته وقيمته . وشرع العلماء الأجانب – تحت تأثير الدافع الوطنى قبل العلمى – يكشفون عن ماض حافل لهذا الشعر ، فيرجحون تارة أنه من أصل يونانى رومانى ، ويقطعون تارة بأنه من أصل سِلْتى . ومع ذلك فالمسرفون فى العصبية القومية لم يقبلوا الاعتراف بهذا النسبَ . والأمر عندهم أن شعر التروبادور بموضوعه وأسلوبه ظهر فجأة ظهور المعجزة دون مقدمات ، فكأنه زهرة بغير ساق ولا جذر . (وكان الألمان – الذين اهتموا لبرتراند دى بورن Bertrand de Born أو بير ڤيدال Peire Vidal – يريدون أن يثبتوا العنصر القوطى . وهذا للأسف أثر من آثار العصبية القومية) . وبالرغم من كل هذا فالمفكرون المتازون منذ نصف قرن يرفضون تلك الأحكام من أساسها . فأوجين باريت Eugène Baret وآخرون بعده يؤكدون أن التأثير العربى وحده هو الذى يستطيع أن يفسر لنا السر فى ظهور هذا النوع من الشعر ، وهم فى ذلك يتفقون مع رأى كثير من النقاد الايطاليين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وخاصة باربيرى Barberi الذى كتب بحوثاً عن ازدهار الشعر العربى عند الاسبان والبروفانسيين .

ولا يستطيع اليوم أى أوربى مثقف أن ينكر ما يقال من أنه فى الوقت الذى حمل فيه الغزو الجرمانى إلى الغرب الاضطراب والوحشية كان تأسيس الخلافة القرطبية هو الذى سمح لأوربا بأن تحيا فيها الثقافة مرة ثانية . وكان من آثار ذلك أن أصبح حوض البحر الأبيض مركزاً للعلوم الرياضية والطب والفلك والكيمياء والفلسفة . ولقد قال بحق ألكسندر كوريه Alexandre Koyré : « إن العرب كانوا أساتذة الغرب اللاتينى ومثقفيه، ولم يكونوا مجرد واسطة بينه وبين الشرق اليونانى كما شاع القول واستفاض . فلولا ابن سينا ولولا ابن رشد لكان ظهور القديس توما أمراً مستحيلا ، وفى اتهامه مرتين بمشايعته لتفكير أحد (الوثنيين) دليل على ذلك . وأى مصير كان ينتظر المخطوطة الوحيدة من كتاب أقليدس لولا وجود العرب الذين جعلوها حتى القرن السادس عشر مرجعاً فى قرطبة يرحل إليه الراحلون ؟ ولم يكن هنالك من علم إلا العلم الذى فى الكتب العربية ، كما أعلن ذلك روجر بيكون Roger Bacon . ولما كانت كل الثقافات الأدبية والعلمية فى القرون الوسطى المسيحية موسومة بخاتم الاسلام وعلامته ، فيكون عجيباً جدًّا لذلك أن ينبثق الشعر البروفانسى فى أرض فرنسية فجأة وينبت من تلقاء نفسه .

لقد نشر الأستاذ روبرت بريفو Robert Briffault منذ عشرين عاماً مؤلفاً ضخما عن أصول العواطف والمؤسسات الانسانية . وهو اليوم يتحفنا بكتاب كبير ركز فيه البراهين على ما تميل إليه من أن شعر التروبادور إنما هو وليد الشعر العربى . قال المؤلف : « قبل أن يترنم شاعر من شعراء التروبادور بأول أناشيدم فى بروفانس بنحو قرن من الزمان كان أدباء الأندلس قد تحمسوا لنوع جديد من الشعر اعتبر ظهوره بينهم ثورة أدبية » . لقد مجدوا فيه جمال المحبوب كما تغنوا بجوره وقسوته وبذلة العاشق وكآبته . ومن ناحية أخرى هنالك فى قصور الوزراء والخلفاء ، كانت النساء الجميلات — وفيهن أنشدت أشعار — قد شغفن بجمع المخطوطات ، وأولين شعراءهن الحماية والرعاية ، وكن أيضاً ينظمن الشعر (هكذا كانت ولادة ابنة المستكفى ، وهكذا كانت عائشة بنت أحمد) . أما عن الموضوعات التى أحدث فيها هذا الشعر تجديداً فهى أغانى الصباح L'aubade وأناشيد الربيع . وأما ما حدث من تجديد فى الشكل فهو أنه حول القصيدة القديمة الطويلة بأبياتها التقليدية إلى مقطوعات تتألف كل مقطوعة من أربعة

أجزاء ، يشترك الثلاثة الأول منها فى قافية متشابهة ، ويتخذ الجزء الرابع — وهو مايسمى بالسمط — قافية جديدة تتكرر فى آخر كل مقطوعة . ومضوا أبعد من هذا فأحدثوا تغييراً فى لغة الشعر لتتلاءم مع أنواعهم الجديدة . يشهد بذلك ديوان ابن قزمان الذى التزم اللغة العامية فيه ، وتشهد بقية الآثار التى استخدمت فن الزجل .

وفى تلك العصور كانت الصلات الوثيقة قائمة بين الولايات الأسبانية (مسيحية وإسلامية) وبين ما نسميه بالعالم البروفانسى أى بروفانس وقطلونية وإمارة تولوز . وكان أمراء هذه الولاية الأخيرة يعيشون فى دائرة النفوذ الأسبانى أكثر من خضوعهم لملوك الفرنجة . ولم يكن هنالك تعصب دينى يحول بين أهل بروفانس وبين أهل قرطبة . وأكثر ملوك النصرانية إخلاصاً لدينهم كانوا لا يدّعون حين يحاربون الأمراء المسلمين إلا أنهم يريدون توحيد المملكتين تحت تاجهم ،أى الملك النصرانى والأمارة الاسلامية ، وهما ما كان يعبر عنهما وقتئذاك (بالملتين) . وكذلك كان الشأن فى حركة الاسترداد riconquista فالفرسان العرب كثيراً ما ساهموا فى تلك الحركة التى أظهرت فيما بعد على أنها النصر المبين للدين الحق على جموع الكافرين . وكان أهل بروفانس أقل من غيرهم عصبية للوطن والدين ،فكان أفرادهم فى القرن الثانى عشر يحترمون أهل قرطبة المعاصرين لهم ويتعاملون معهم .

وأول شاعر معروف من شعراء التروبادور هو جيوم صاحب مدينة بواتييه الذى ولد سنة ١٠٧١ فكان تبعاً لذلك معاصراً لابن قزمان . وكان جيوم هذا مشهوراً يتحدث عنه كل الناس . وكان فوق ذلك حليفاً لأمراء ليون ، وقد أمدهم بمعونته أحياناً . فهل يعقل ألا يتأثر رجل كهذا بأسبانيا المسلمة وهو الذى أوغل فيها حتى بلغ غرناطة وقرطبة ؟ وتأكيداً لذلك نرى أن نظام القوافى فى أغانى الصباح البروفانسية وهو ببا — ححا — اا يشبه قوافى الزجل أو هو متأثر بها مقلد لها ، وكان نظام الزجل اا — ببب ا — ححح ا [١] ونرى

---

(١) اختلاف حروف الهجاء يدل على اختلاف القوافى التى فى آخر الشطرات ، وعدد الحروف وترتيبها يدل على عدد القوافى وترتيبها . فحرف ال (ا) يشير إلى الأسماط التى تتكرر قافيتها فى المقطوعات وال (ب) وال (ح) إلى قسيم السمط وهو الذى يسميه ابن سناء الملك فى « دار الطراز » ، «لبيت» ، والذى يحسن أن نسميه بالغصن اقتباسا عن ابن خلدون فى مقدمته وابن بسام فى الذخيرة . والسمط يسمى عند ابن سناء الملك بالقفل . (المترجم)

أيضاً موضوعات شعر التروبادور وقواعده هى نفس موضوعات الشعر العربى وقواعده : إنهم يتغنون بعذاب الحب وآلامه ، ويتغنون بمحاسن المرأة وما يثيره جسدها من فرح ولذة . لقد رفع شعراء التروبادور منزلة الحب فوق مواثيق الزواج وعقوده . وإن قيل إنهم بذلك هونوا من شأن الأمانة الزوجية واتهموا الغيرة على العرض بأنها جلافة ، أمكن أن يدافع عنهم بأن إخلاصهم للدين على حقيقته ، أو قل — وهو الأرجح — إن إخلاصهم لتعاليم الفروسية فى الحب التى سنها شعراء الأندلس هو الذى حملهم على هذا . إن الأخلاق فى تلك كانت على جانب من التحرر والتساهل ، شكت منه الكنيسة حين قالت : «إن أكيتانيا ليست إلا مباءة واسعة للاثم والفجور» . ومعنى هذا أن العفاف الذى أرادت المسيحية أن تجعله الفضيلة العليا لم يكن محل رعاية دقيقة من الناس . حقا أن التروبادور أرغموا شيئاً فشيئاً على التوفيق بين الموضوعات والأخلاق التى أورثها لهم العالم العربى ، وبين إلحاح يزداد صرامة من كنيسة متجهمة عابسة . ولكنهم عرفوا مع ذلك كيف يحتفظون حتى فى أغانيهم المهذبة ببعض الصفات الجسدية البريئة التى ترامت إليهم من خلف جبال البرانس .

وعلى الضد مما استطاع أن يكتبه عدد من النقاد المعجبين لم يكن الشعر البروفانسى يتغنى بامرأة خيالية ، ولم يكن يجرى وراء الأشياء المقدسة . ولكنه كان يتغنى فى صراحة وفى غلظة أحياناً بلذة معانقة امرأة جميلة عارية تحيط صاحبها بذراعيها . واستطاع هذا الشعر ، استجابة لما فيه من إحساس جنسى ومن فجور أحياناً ، أن يعلن أن ليلة من ليالى الغرام تساوى فى قيمتها الجنة المفقودة . وفجأة تنعكس الأمور ، فبدلا من أن يمجد الشاعر عشيقته ويصف بياض صدرها أخذ يقدم المدائح «للعذراء» التى استقطرت ثديها العذب وقدمت لبنه الأبيض لراهب صغير كى يشفى من مرضه . فماذا حدث ؟

هذه هى القصة : كان من نتائج الاتصال بين العرب والبيئات البروفانسية أن ارتقى هذا القسم من فرنسا إلى مستوى ثقافى — حوالى سنة ١٢٠٠ — أصبحت به إمارة تولوز على رأس الممالك المتحضرة الغنية الشاعرة المزهرة . ولم يكن هذا يرضى أتباع ملك قشتالة (وهو دومنيك دى جزمان الملقب بكذاب قشتالة) . فأشار هؤلاء على البابا إينوسنت الثالث فأعلن الجهاد الصليبى ضد هذه الأراضى الفرنسية التى عرف الناس فيها كيف يحيون (لقد أعلن من قبل ترتوليان أن مملكة

السموات هى وطن الخصيان) . واستجابة لدعوة الأب المقدس (البابا) انقض أهل الشمال على وطن التروبادور . فكم كان صرعى الحديد والنار والعذاب ؟ إنهم عشرات الألوف ، ويحتمل أن يكونوا قد بلغوا مائة ألف . إن أبناء سان دومنيك أنجزوا ما بدأ به سيمون دى منتفورد . ومن سنة ١٢٠٩ إلى سنة ١٢٥٠ محوا كل آثار تلك الحضارة التى نضجت قبل الأوان ، والتى «كان يبدو أنها اختيرت لتقود أوربا » . فلما تمت إبادتها انتقل إلى إيطاليا شرف القيام بحركة النهضة بدلا من تولوز التى كان ينبغى أن تقوم بها . وصادر أساقفة الدومنيك أناشيد الباطل أو أشعار التروبادور ، وألقوا إلى هؤلاء الشعراء الأمر بأن ينظموا التسابيح الدينية بدلا من تلك التى قدمت طعمة للنيران . فمضى ذلك الشعر الغنائى الذى أنتجته بروفانس ، والذى تفتحت فيه عبقريتان : عبقرية العرب وعبقرية الفرنسيين وحل محله بغير حق شعر تعبدى ولد فى أحضان الخوف . وهو الشعر الذى نريد من صاحبنا جوستاف كوهين أن يعتقد بأنه قد استنزف دماء القرون الوسطى[١] وأرهقها .

هذا هو كتاب الأستاذ بريفو كما يبدو لى . وتستطيع أن تحذر ما فيه من ثروة وغنى . ويضيف المؤلف إلى ذلك أن هذا الاقتران النادر بين ثقافتين ينبغى أن نرجع الفضل فيه إلى ما كان لدى الأمراء الأمويين من حرية وشك دينى ، وما كان عليه الخلفاء العباسيون الأُوَل من ميل يقوى أو يضعف إلى مذهب المعتزلة . وفى الحق أن بروفانس أيضاً قد أصيبت بهذه المذاهب المكروهة ، وذلك قبل سنة ١٢٠٩ وهى السنة التى أعلن فيها الجهاد الصليبى ضد طائفة ألبيجوا Albigeois وضد التروبادور أهل السوء والضلال . وبفضل العقل ، الذى يعرف كيف يستفيد مما هو أجنبى ، استطاع أهل بروفانس أن يفهموا العرب وأن ينتجوا شعر التروبادور . فهل نستطيع ، مسترشدين بهذا الماضى المجيد ، أن نتآخى عقولا وأن نتعاون لنهتف يوماً ما على شواطئ بحرنا الأبيض ، الذى هو ربيب الاسلام والغرب ، بشعر جديد يتجلى فيه فن جديد من فنون الحياة !

نقلها عن الفرنسية عبد العزيز محمد الاهوانى   ابنامبل

(١) انظر ــ والاولى ألا تنظر ــ كتاب جوستاف كوهين : « الازدهار الكبير للقرون الوسطى » Gustave Cohen, *La grande clarté du Moyen-Age.*

بعد انقضاء عامين

١ — الموسيقى

يا قلبُ ، شأنُك والسّماعَ عجيبُ | جانبتَ مجلسه وكان يطيب
كم شاقك النغَمُ البديع كأنه | رَجْعٌ لأفلاك الفضاء مُجيب
يعلو بهمّك ساعةً فوق الدُّنا | ترتادُ جَنّاتِ العلا وتجوب
فاليومَ مالك ليس يعزف عازفٌ | —ياقلبُ— إلاّ هاج منك وجيب
لا تستخفّك نغمةٌ مجبورةٌ | نشوى بأفراح الحياة صَخوب
إلا ذكرتَ شريكَ أنْسك في الثرى | فغصصتَ ، يعصِرُكَ الأسى وتذوب
وزفرتَ زَفْراً كالشواظ من اللظى | وشَرِقتَ بالعبرات وهى صبيب
يا قلبُ ، لا حَرَجٌ ولا تثريبُ | إنْ ساعةٌ مرّت وأنت طروب
فاستأنفِ الدنيا بما تحلو به | قد سُرَّ —إن يوماً سُرِرتَ— حبيب
هيهات ! ذاك هو الرشادُ وحكمُه | لو أنّ قلباً للرشاد يثوب

٢ — ذكرى دعاء

بِسَمعى مقالٌ خافتُ الجرْس أوّاهُ | يدوّى إذا غشّى على البيت مُمساهُ
مقالُكِ فى التوديع آخرَ ليلةٍ | بصوتٍ كأدنى الهمس : «باركَكَ الله»

لقد عشتِ — يازوجى — ومتِّ رضيةً بعيشٍ لنا ما كان بالود أحلاه
دعاؤك ما أحراه منىَ بالرضا يؤدِّى إلى قلبى هـواك فأهواه
يُعاد على سمعى ، فأسكن برهةً إليه ، وأستأنى مع الليل ذكراه
وتسترسل الذكرى وتنبعث الرُّؤى تُجسّم لى الماضى وهيهات أنساه
فأرثى لحالى اليومَ أرملَ موحَداً وقد غاب عن بيتى سناه ومَحياه
وأرثى لعيشى عاطلَ القلب من هوى فكل الهوى قد بات فى الترب مثواه
يضعضع حسّى من دعائكِ وقعُه ويُعجز عقلى من دعائك معناه
وأسهر ليلى باكياً متفجّعاً أسائل نفسى : « فيمَ بارك لى الله ؟ »

٣ — حلم شاعر

يا ضيعةً للسجايا الغُرِّ والشِّيمِ إن تَبلَ ذكراكِ — يازوجى — مع الرمم
وقفٌ على نشرها ما امتدّ من أجلى وجهدُ ما بلّغَتْهُ طاقة الكلم
أطيل تَوْصافَها للشعر فى نسقٍ جمِّ الحياة غذته مهجتى ودمى
وكل همّىَ أن تحيىَ كما خلدَت نظائرٌ لك بين العُرب والعجم
فما عسانى ، أمُستولٍ على أملى أوْ لا ، فيابؤس لى من عيشٍ منهزم
لكم تأملتُ فى شعرى أسائله سؤال منتقدٍ للشعر متهم :
« تراك خلّدتها — ياشعر — فى النغم ؟ تراك أنقذتها من سطوة العدَم ؟
وتلك معجزةٌ — ياشعرُ — تعرفها فاهدِف إليها بما يجرى به قلمى
ما طاب لى بعد زوجى سعىُ منتبهٍ فإن يَطِبْ بعدها حلمٌ ، فذا حلمى »

عبد الرحمن صدقى

طبيب القرية

كنت فى موقف عصيب . فقد كان ينبغى أن أرحل على عجل لعيادة مريض ينتظرنى فى قرية تبعد منا عشرة أميال ؛ وكانت عاصفة جليدية هوجاء تحتل الفضاء الممتد بيننا ؛ وكان عندى مركبة خفيفة كبيرة العجلات ، وهى خير ما يصلح لمثل هذه الطرق فى الأرياف ؛ ووقفت فى فناء الدار ، متدثراً بمعطفى المصنوع من الفراء ، حاملا علبة الأدوات الجراحية فى جيبى ، متأهباً للرحيل . غير أن شيئاً واحداً كان ينقصنى : ذاك هو الفرس . . . فقد هلك فرسى البارحة تحت وطأة البرد . وأرسلت خادمى تطوف القرية عسى أن تجد من يعيرنا فرسه . ولكنى كنت أعلم أنه سعى مقضى عليه بالاخفاق . ومكثت بلا أمل هامداً فى مكانى ، تزداد شرايينى تصلباً ، وتترا كم فوق كتفى طبقات الجليد ، حتى لمحت خادمى تقترب فارغة اليد إلا من مصباح ينير أمامها الطريق . . . وأى عجب فى هذا ؟ . . . وأين هو ذاك الذى يعير فرسه فى هذه الأيام لرحلة تمتد عشرة أميال ! وعبرت الفناء ثانية ، لا أستطيع التفكير فى شئ . و إذ أنا هكذا شارد البال معذب النفس ركلت بقدمى باب حظيرة الخنازير المتحطم ، فانفتح متخبطاً ولم تك هذه الحظيرة قد استخدمت منذ سنوات ، فدهشت للرائحة والدفء المنبعثين منها . ورأيت فى الداخل مصباحاً شاحب الضوء مشدوداً إلى طرف حبل . ثم لمحت رجلا أحدب الظهر قابعاً فى أحد الأركان يدير لى عينيه الزرقاوين ووجهه المنبسط .

واقترب منى الرجل زاحفاً على يديه وقدميه ، وسألنى :

— أتريد أن ألجمهما ؟

وكانت الخادم بجوارى ، فصاحت مازحة :

— حقا أنه لا يدرى إنسان بكل مايحتويه بيته !

وضحكنا معاً . وسمعت السائس ينادى الخيل . وسرعان ما ظهر فرسان قويان يحبو أحدهما خلف الآخر ، حتى إذا وصلا إلى باب الحظيرة طأطآ رأسيهما وانسلتا بحركة رشيقة من المنفذ الضيق المنخفض . فلما انتصبا ، بدهنى منهما فراعة القوام .

والتفتُ إلى الخادم وقلت :

— ساعدى السائس .

وسارعت الخادم المطيعة إلى اللجام تقدمه للسائس . ولكن ما إن اقتربت منه حتى أمسك بها وانقض بوجهه على وجهها . فصرخت الفتاة ولاذت بى . ورأيت خدها وقد طبع عليه باللون الأحمر صفان من الأسنان . فصحت غاضباً :

— أيها الوحش ، أتريد أن ألفعك بالسوط !

ولكنى تذكرت على التو أنى أمام شخص لا أعرفه ، ولا أعرف من أين أتى ، وأنه تقدم لمعونتى حينما تخلى عنى الجميع . وكأنما الرجل قد قرأ ما يدور بخاطرى ، فلم يحنقه وعيدى ، بل التفت إلى ، ولم يزل منهمكا فى عمله ، وقال فى بساطة :

— تفضل واركب . . .

وكان فى الواقع قد أعد كل شئ .

وتذكرت أن عربتى لم تحظ قط بمثل هذين الفرسين الرائعين؛ فصعدت مبتهجاً . ثم نظرت إلى الرجل وقلت :

— سأمسك أنا باللجام ، فأنت لا تعرف الطريق .

فأجاب :

— بكل تأكيد . . . فلست ذاهباً معك ، بل سأمكث مع روزا .

وصاحت روزا محتجة . فلما شعرت بمصيرها المحتوم على يدى الرجل ، فرت هاربة إلى داخل المنزل .

وسمعت صوت السلسلة تشد ، والقفل يوضع وهى توصد باب المنزل . ورأيتها تطفئ نور البهو ، ثم أنوار الحجرات جميعاً ، كيما تخفى نفسها .

والتفت للسائس وقلت :

— إما أن تأتى معى أو أعدل عن الرحيل بالرغم من ضرورته العاجلة . فلست أرضى أن أدفع لك هذه الفتاة ثمنا لرحلتى .

وكان كل جواب الرجل أن صاح فى الفرسين وصفق بيديه ؛ فانطلقت بى المركبة كأنها قطعة من الخشب يحملها سيل جارف . ومع ذلك فقد سمعت باب منزلى يتحطم تحت ضربات السائس ، ثم امتلأت أذناى وعيناى بطنين تشعب وانتشر حتى استحوذ على جميع حواسى . ولكن ذلك لم يدم أكثر من لحظة . ولكأن باب غرفة المريض يطل على باب غرفتى ؛ إذ سرعان ما رأيت

نفسى قبالته . ووقف الفرسان لا يريمان . وأقبل والدا المريض تتبعهما أخته ، فانتزعونى من المركبة انتزاعاً . ولم أستطع أن أفهم شيئاً من أقوالهم المرتبكة المختلطة . وكان الهواء فى غرفة المريض خانقاً . ورأيت المقلاة تحترق دون أن يعيرها أحد انتباها. وأردت أن أفتح النافذة ، ولكنى تذكرت أنه ينبغى أولا أن أفحص المريض . وكان الصبى ناحل الجسم فارغ العينين عارى الكتفين ، ولكنه لم يكن بارداً ولا ساخناً . وما إن اقتربت منه حتى زحف ورفع رأسه وتعلق بعنقى ثم همس فى أذنى :

— دعنى أموت يادكتور .

وتلفتُّ حولى ؛ ولكن أحداً لم يسمع قول الصبى . ورأيت الوالدين واجمين مطرقين فى انتظار حكمى . وكانت الأخت قد أحضرت مقعداً لأضع عليه علبة الأدوات الجراحية . وفتحت العلبة وقلبت النظر فى الأدوات ؛فى حين كان الصبى لا يكف عن الايماء إلى بيده تلميحاً بوصيته . وأمسكت بملقاط ، وفحصته على ضوء الشمعة ، ثم أعدته إلى مكانه . وقلت لنفسى ناقماً : حقا أن الآلهة فى مثل هذه الظروف لا يضنون علينا بمعونتهم . . فهم يرسلون لك فرساً بدل الفرس المفقود ، بل يتكرمون عليك بفرس ثان كى يتيحون لك الذهاب إلىأبعد مما تريد. وهم يهبون لك سائساً بأبخس الأثمان . . .

وعندئذ فقط تذكرت روزا . ماذا أفعل ؟ كيف أنقذها ؟ كيف أخلص جسدها من وطأة هذا السائس ، وهى تبعد عنى عشرة أميال ، ولدى فرسان لا سلطان لى عليهما ؟ فرسان يرفعان عن نفسيهما اللجام ، ولا أدرى كيف يقطعان السلاسل ، ثم يطلان برأسيهما من خلال النافذة ويراقبان المريض دون أن تزعجهما صرخات الأسرة . . .

وقلت لنفسى : سأعود فى الحال ؛ كأنما كان الفرسان يدعوانى للعودة .

ولكنى مع ذلك تركت الأخت تنزع عنى معطفى . وقدموا لى كأساً من الشراب . وربّت الأب على كتفى ؛ وكأن فى تقديم هذا الكنز الثمين مايسوّغ رفع الكلفة بيننا . فأومأت بالرفض ، لا لسبب سوى أنى شعرت بنفسى أختنق إذ أدخلنى الرجل فى نطاق ذهنه الضيق . ودعتنى الأم إلى جوار المريض ؛ فأطعتها . وبينما كان أحد الفرسين يرسل صهلة عالية فى فضاء الغرفة ، وضعت أذنى على صدر الصبى الذى ارتعش لملمس لحيتى المبتلة . وما لبث أن تحول شكى

يقيناً ؛ فهذا الغلام لا داء به . وربما كان مصاباً بعض الشئ بفقر الدم ، ولكنه مع ذلك معافى البدن ، ولا أفضل له من « علقة » كى ينتصب على قدميه . إلا أنى لست من رجال التربية ولا من رجال الاصلاح ، فتركته آمناً فى فراشه . إنى أحد الموظفين التابعين لسلطات المنطقة . وإنى لأقوم بواجبى إلى آخر ما ينبغى ، بل إلى الحد الذى يوشك أن يتعدى معه ما ينبغى . فمع أجرى الضئيل ، لا أضن قط بمعونتى على الفقراء . على أن هذا كله لا ينسينى روزا . وبعدها ، فلعلنى انتصحت بالغلام وطلبت الموت أنا أيضاً . وماذا عسى أن أفعل هنا فى هذا الشتاء الذى لا ينتهى ؟ لقد نفق حصانى ، ولم أجد أحداً يرضى أن يعيرنى فرسه ، فلم يبق أمامى غير حظيرة الخنازير . ولولا أن شاءت المصادفة أن أجد خيلا فى هذه الحظيرة ، لاضطررت أن أوثق بعض الخنازير إلى عربتى ، هذا هو مجمل قصتى . وأخذت أهز رأسى حسرة وأنا أتأمل وجوه الأسرة . إنهم لا يعلمون شيئاً من كل هذا . وإن علموا به فلن يفهموا معناه . إنه من اليسير أن نحرر لمرضانا البطاقات ؛ ولكن العسير حقا هو أن نفهم الناس ، ونحمل الناس على فهمنا .

وهكذا انتهت مهمتى . ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يقلقنى الناس فيها بلا مسوغ . وقد تعودت ذلك ؛ فسكان المنطقة جميعاً لايكفون عن طرق بابى طوال الليل وآناء النهار . ولكن الفاجع فى هذه المرة أنى أرغمت على التخلى عن روزا ، هذه الفتاة الباهرة التى عاشت كل هذه السنوات فى بيتى دون أن أعيرها إلا أقل الانتباه . . . ومس قلبى الشعور بجسامة هذه التضحية من جانبها ، حتى أوشكتُ — لولا جهدى فى ضبط عواطفى — أن أنقضّ على هذه الأسرة التى عاقتنى عن إنقاذ روزا . ولكنى بعد أن أقفلت علبة أدواتى وأمسكت بالمعطف استعداداً للرحيل ؛ ثم رأيت الأب والكأس فى يده ، والأم التى خيبتُ ظنها ، يغصان بالبكاء ويعضان شفاههما ؛ ورأيت الأخت تمد لى منشفة ملوثة بالدماء ؛ إذذاك شعرت أنى على استعداد للتسليم بأن الصبى قد يكون مريضاً . واقتربت منه ، فبادرنى بابتسامة عريضة كما لو كنت قد جلبت له أطيب الطعام . . . آه ! ها هما الفرسان يعودان للصهيل . ولا بد أن هذا الصوت قد أوحت به السماء ليسهل الكشف عن الأدواء . فالآن حقا أبصر العلة ؛ والغلام مريض ما فى ذلك شك . لقد رأيت جرحاً طويلا عريضاً فى اتساع طبق فنجان ينكشف أمام ناظرى فى الجنب الأيمن عند ارتفاع العجز . إنه قرمزى اللون ، تتعدد

الظلال الثقيلة فى وسطه ، وتخف تدريجيا عند أطرافه فى شكل حلقات متعرجة ، وتتجمع فى أقنيته الدماء بغير انتظام . هكذا كان يبدو الجرح من بعد . أما عن كثب فالأمر أدهى . ومن يستطيع أن يحدق فى هذا دون أن ينطلق الصفير من فمه ! لقد أبصرت ديداناً فى حجم الخنصر ، مخضبة بالدماء ، تتلوى أجسامها، وترفع رؤوسها الصغيرة البيضاء ، وتختلج سيقانها الدقيقة التى لا حصر لها فى قاع الجرح . . . ولكنى ، أيها الغلام المسكين ، لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً . لقد عثرت على الجرح الخطير ، هذا الجرح الذى يفتك بك . وقد أبدت الأسرة اغتباطها إذ رأتنى مشمراً عن ساعد الجد . همست بذلك الأخت فى أذن الأم ، والأم فى أذن الأب ، والأب فى أذن زائر انسل على أطراف قدميه تحت ضوء القمر المنسكب من الباب المفتوح ، رافعاً ذراعيه حتى يحتفظ بتوازنه .

ويبدو أن هذه الحياة الزاخرة المضطربة فى باطن الجرح قد استأثرت بلب الصبى ، فتوقف لحظة عن النشيج ، وسألنى متوسلا :

— ألا تنقذنى !

وهذا هو العجيب من أمر الناس فى بلدى ؛ فهم دائماً يطلبون المستحيل من الطبيب . لقد تضعضع إيمانهم القديم القويم . وبينما يجلس القسيس عاطلا فى بيته ينسل أثوابه الكهنوتية الواحد بعد الآخر ، يطلب من الطبيب أن يأتى بالمعجزات . . . ولكم مع ذلك ما تشاءون . ولست أنا الذى قدمت لكم نفسى ، ولكنى لن أصدكم إذا ابتغيتم أن تتخذونى أداة لتنفيذ غاية مقدسة . وماذا فى وسعى أن أفعل خيراً من هذا ، ولست إلا طبيباً قروياً شيخاً ، اغتصبت خادمته ! وهاهم أولاء القوم يقبلون على بجموعهم ، أفراد الأسرة وكهول القرية ، فينزعون عنى ملابسى . على حين تحتشد أمام المنزل فرقة من التلاميذ على رأسهم أستاذهم ، فينشدون فى لحن لا أسلس منه هذه الأغنية :

جردوه من ملبسه
كى يحسن التطبيب
واقتلوه إن لم يفلح
فما هو إلا طبيب
ما هو إلا طبيب . . .

وهأنذا أقف عارياً ، أنظر فى رباطة جأش إلى وجوه القوم ، ممسكا لحيتى بيدى ، وقد مال رأسى إلى أحد الجانبين ، وكنت أشعر أنى سيد القوم جميعاً ؛ ولكن ذلك لم يُجْدِنى فتيلا . فقد أمسكوا برأسى وقدمى ، وحملونى إلى الفراش، وأرقدونى ناحية الحائط بجوار الجرح الخطير . وبعدئذ غادروا الغرفة جميعاً وأسكتوا المنشدين ، ومرت السحب فحجبت القمر . وانبعث حولى دفء الفراش . وقد ألقى الفرسان ، كالظلال ، رأسيهما على النافذة .

وسمعت من يهمس فى أذنى ويقول :

— لا أخفى عليك أنى غير مطمئن إليك . فلقد قذفت إلى هذا المكان قذفاً ، ولم تحملك إليه قدماك . وعليك بدلا من أن تساعدنى ، أن تدفعنى إلى الانكماش فى فراش الموت . ولو تركت لنفسى عنانها ، لانتزعت عينيك من رأسك . . .

فقلت :

— هذا حق ؛ و إنه ليبعث على الخجل . ولكنى لست إلا طبيبا ؛ فماذا أستطيع أن أفعل ؟ صدقنى إذا قلت إن الدور الذى أقوم به ليس بالهين ولا باليسير . . .

— أينبغى أن أقنع بمثل هذا الاعتذار ؟ إنى مرغم للأسف على الرضا به . بل لا مفرّ لى من الرضا فى جميع الأحوال . فلقد أتيت إلى هذا العالم لا أملك غير هذا الجرح الجسيم ، ولم أجلب للعالم شيئاً سواه . . .

وأجبته قائلا :

— إن آفتك ياصاح أنك لا ترى كل ما يدور حواليك . وأستطيع أن أنبئك ، أنا الذى طفت بغرف المرضى جميعاً ، أن جرحك ليس من الخطورة كما تتوهم . لقد أصابتك فقط نقرتين من معول . وهناك آخرون كثيرون يكشفون عن جوانبهم دون أن يصيخوا باذانهم إلى ضربات المعول فى الغابة ، بل إنهم ليصيبهم الصمم إذ يقترب من جوانبهم المعول .

— أهناك حقاً مثل هؤلاء القوم ، أم أنت تخدعنى وأنا فى هذيانى ؟

— بل هناك مثل هؤلاء القوم . وخذها كلمة من طبيب حلف اليمين . بل احملها معك إلى العالم الآخر . . .

وكان أن سكت وحملها إلى العالم الآخر . ولم يبق إلا أن أفكر فى أمر نفسى . وكان الفرسان لا يزالان فى مكانهما . فهرولت أجمع ملابسى ومعطفى

وعلبتى ، جمعتها ولكنى لم أرتدها ، حتى لا تضيع لحظة من وقتى . و إذا ما ركض الفرسان بالسرعة نفسها التى أحضرانى بها ، فلسوف أقفز من هنا إلى دارى فيما لا يتجاوز غمضة عين . وقذفت بملابسى إلى العربة ؛ ولكن المعطف ذهب إلى أبعد مما أردت ، فاشتبك من كمه بقضيب العربة الخلفى . لا بأس . . . وقفزت إلى ظهر أحد الفرسين . وأخذت حطام اللجامين تسلف الأرض . وقد كاد ينبت كل رباط بين الفرس والفرس ، وبين الفرسين والعربة المتعثرة خلفنا وفى طرفها معطفى الزاحف على الجليد .

وصحت بالفرسين أن يسرعا . ولكنهما سارا فى تثاقل الكهول خلال هذه الصحراء من الجليد . وبقى صوت الأغنية الجديدة ، أغنية الأطفال المخطئين ، يترامى إلى أذنى فترة طويلة من الزمن . وكانوا ينشدون قائلين :

ابتهجوا أيها المرضى .
فها قد عادكم الطبيب .

ولم أبلغ قط دارى . وهكذا فقدت زبائنى الذين لاحصر لهم . وسوف يغتصبهم ولا شك خلفى . ولكن ذلك لن ينفعه . فالسائس اللعين يعيث فى بيتى ، وقد أمست روزا فريسته . ولست أحب إمعان التفكير فى هذا الموضوع . وهأنذا أضرب فى الأرض ، ومعى عربة من صنع البشر وفرسان خارقان للطبيعة . إنى أضرب فى الأرض وأنا الرجل الشيخ ، شريداً عارياً لا يقينى لباس من برد هذا العصر التعيس . وأرى معطفى يزحف خلف العربة ، ولكن يدى لا تبلغه . ولن يتحرك لمعونتى واحد من أولئك المرضى الأوغاد المترنحين . . . لقد غدر بى ! لقد غدر بى ! وكفانى من ذلك مرة . لقد أخطأت عندما استجبت لنداء الطارقين . ولا مرد لما ارتكبت .

فرانز كفكا

نقلها إلى العربية رمسيس يونان

حول مشروع بحيرة طانا[1]

تعتبر بحيرة طانا أهم حوض من حياض المياه فى الحبشة . و يقول أصحاب الاختصاص إن تنظيم مياهها يعود بالفائدة على أراضى السودان الواسعة لتطور زراعة القطن . وقد أولت كل من الحكومتين المصرية والسودانية اهتمامها بدراسة بحيرة طانا منذ أوائل هذا القرن ، فتوضحت الفائدة التى تعود من هذا للسودان ومصر و كذلك للحبشة .

تاريخ المشروع

وقد شغلت بحيرة طانا الكاشفين والباحثين من الأوربيين منذ زمن بعيد ، ولكن المعلومات التى جمعها هؤلاء لم تكن كافية حتى تسمح بتفكير جدى للاستفادة من البحيرة وإمكان استغلالها ؛ لذلك لم تكد الحال تستقر فى السودان بعد القضاء على ثورة المهدى سنة ١٨٩٨ حتى أرسلت حكومة السودان بعثة إلى بحيرة طانا لاستكمال دراستها وأتبعتها بثانية وثالثة .

وقد خصت بريطانيا بحيرة طانا بالعناية ووضعتها فى المكان الأول بين المسائل عند عقد معاهدات أو اتفاقات مع أتيوبيا أو مع دولة من الدول المستعمرة فى شرق أفريقيا .

ففى سنة ١٨٩١ نصت بريطانيا فى معاهدة سرية بينها و بين إيطاليا على أن تحتفظ ببحيرة طانا ، وتترك لأيطاليا الحرية فى سائر بلاد الحبشة .

وفى ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ أمضى الامبراطور منيليك معاهدة مع بريطانيا اتفق فيها على الحدود بين أتيوبيا والسودان . ولم يفت اللورد هرنجتون ممثل بريطانيا أن ينص فى المادة الثالثة بأن « يتعهد جلالة الامبراطور منيليك الثانى

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٦ (يناير ١٩٤٧) .

ملك ملوك أتيوبيا لحكومة جلالةملك بريطانيا ألا يقيم أى مشروع أو يسمح باقامته على النيل الأزرق أو على بحيرة طانا أو على السوباط ، من شأن هذا المشروع أن يحجز جريان الماء فى النيل ، بدون الاتفاق مع حكومة جلالة ملك بريطانيا وحكومة السودان على ذلك » .

كما نصت المادة الخامسة على أن يمنح منيليك لحكومة جلالة ملك بريطانيا وحكومة السودان حق إنشاء خط حديدى على الأراضى الأتيوبية يصل السودان بأوغندة ، وهو الخط الذى قصد به وصل القاهرة بمدينة الكاب .

وقد كان منيليك يداهن الانجليز و يلاطفهم . وقد أثرت عنه هذه العبارة : الانجليز كالقط ، إن أنت داعبته ارتاح إليك وإن أردت انتزاعه وثب عليك .

و بعد أن ضمنت بريطانيا جانب أتيوبيا وجهت همها لتسوية المسألة مع جارتيها فى أفريقيا الشرقية . وقد تم الاتفاق بين بريطانيا و إيطاليا وفرنسا فى ديسمبر سنة ١٩٠٦ ، ووافقت على نصوص معاهدة سنة ١٩٠٢ ، كما اتفق على أنه إذا حدث أى تغيير فى الحالة القائمة فى أتيوبيا فان الحكومات الثلاث تحمى المصالح البريطانية . ونصت المادة الرابعة على الاعتراف بمصالح بريطانيا العظمى ومصر فى حوض النيل و بخاصة ما يتعلق بتنظيم مياه النيل وفروعه . كل ذلك مع اعتبار المصالح المحلية ومراعاة المصالح الايطالية . كما نصت على الاعتراف بمصالح إيطاليا فى إريتريا والصومال الايطالى ووصلهما بخط حديدى . ونصت المعاهدة أيضاً على احترام مصالح فرنسا فى الصومال الفرنسى وحماية مصالحها فى ربط جيبوتى بأديس أبابا بخط حديدى .

خرجت أوربا من الحرب العالمية الأولى منهوكة متعطشة إلى القطن لترويج صناعتها ، فارتفعت أسعار القطن ارتفاعاً كبيراً ، و بدأ التنافس بين أمريكا و بريطانيا فى أسواق المنسوجات ، و بدأ كل منهما فى البحث عن الطريق إلى القطن ، فاتجهت الأنظار مرة أخرى إلى حوض النيل وبحيرة طانا . وعملت بريطانيا على التوسع فى زراعة القطن فى مصر والسودان . والتفتت إلى أتيوبيا ، فكونت فى ديسمبر سنة ١٩١٨ شركة توصلت إلى الحصول على امتيازات لزراعة القطن فى المقاطعات المحيطة ببحيرة طانا . وكان غرض الشركة الحقيقى مراقبة تجارة أتيوبيا كلها . فاغتاظت فرنسا و إيطاليا لهذا واحتجتا على هذا الاحتكار . وأعارت

فرنسا أتيوبيا المال الكافى لرد ما كانت الشركة قد دفعته ثمناً للتعاقد . وكذلك أثارت إيطاليا فى مؤتمر الصلح مسألة مصالحها فى الحبشة ، وأرادت أن يفصل المؤتمر فى العقبات التى أقامها الانجليز فى تفسير المادة الرابعة من معاهدة ١٩٠٦ لأن حاكم السودان يقول إن النص على حقوق بريطانيا المائية فى بحيرة طانا يعطيها حق تنظيم مياه البحيرة كما يتراءى لها وحدها . ولم تصل إيطاليا إلى حل هذه المسألة ، فطالبت أن تعطيها الحبشة تعويضاً عن خسائرها فى الحرب.

واضطرت بريطانيا أمام الصعوبات التى أثارتها إيطاليا وفرنسا أن تحل الشركة وتبحث عن سياسة أخرى ، فحاولت أن تثير حرباً داخلية فى أتيوبيا بتشجيع ليج ياسو بالمال ، والراس سيوم بالسلاح . على أن ولى العهد الراس تفرى مكونن (الامبراطور الحالى) أحبط مساعيها . ولما لم تفلح بريطانيا فى هذا أيضاً حولت سياستها من العنف إلى اللين ، فعرضت على أتيوبيا فى ديسمبر سنة ١٩٢١ أن تنزل لها عن زيلع ميناء حرة فى مقابل أن تمنحها امتيازات على بحيرة طانا ، فرفضت أتيوبيا . وقد أثار هذا غضب بريطانيا ،فقامت بحملة على صفحات الجرائد توجه اللوم فيها إلى أتيوبيا وتندد بسياستها الداخلية وفساد الحكم فيها وانتشار تجارة الرقيق . وقد قصدت بذلك أن تنتدبها عصبة الأمم على أتيوبيا . وأفسدت عليها فرنسا خطتها ، وتقدمت بطلب إلى عصبة الأمم أن تقبل أتيوبيا عضواً فيها ، وقد أجيبت إلى ذلك فى سبتمبر سنة ١٩٢٣ . ولم تر بريطانيا بدًّا من التزام الصمت وانتظار الفرص .

وكان التنافس قد بلغ أشده بين بريطانيا وأمريكا على البترول والكاوتشوك والقطن ، وكانت أتيوبيا تبحث عن مخرج من بين براثن المستعمرين فرحبت بأمريكا عندما طلبت إليها أن تمنحها امتيازات على بحيرة طانا . وقد تم ما أرادته أمريكا سرًّا ، فشرعت فى دراسة أراضى المقاطعات المحيطة بالبحيرة لتزرعها قطناً .

ولما أيقن الامبراطور من وقوف أمريكا إلى جانبه اطمأن على بلاده ولم يعد يحسب لبريطانيا أو إيطاليا حساباً . ولذلك لم يتأثر الامبراطور لما علم فى سنة ١٩٢٥ بالاتفاق الذى تم بين بريطانيا وإيطاليا بشأن أتيوبيا . فقد تبودلت الرسائل فى شهر ديسمبر من ذلك العام بين الوزير البريطانى فى روما وموسولينى باعتباره وزير خارجية إيطاليا ، فطلبت بريطانيا مساعدة إيطاليا لها واستعمال نفوذها لدى الحكومة الأتيوبية لتتمكن من الحصول على امتيازات على بحيرة

طانا ، وإنشاء طريق للسيارات من الحدود السودانية إلى البحيرة لنقل الأدوات والعمال .

فوافقت الحكومة الايطالية ، على أن تساعدها بريطانيا فى الحصول على امتياز من الحكومة الأتيوبية لمد خط حديدى من حدود إريتريا إلى الصومال الايطالى . وبذلك أصبحت اتفاقية سنة ١٩٠٦ نافذة بعد أن صرح اللورد كيرزون قبل ذلك بسنتين (أى سنة ١٩٢٣) بأنها ملغاة .

وقد قابل مشروع الخزان فى ذلك الوقت معارضة قوية من الكنيسة الأتيوبية ، وقد بينا القيمة الدينية والتاريخية للكنائس والديارات الموجودة فى الجزر ؛ إذ خافت الكنيسة أن تطغى المياه على كثير منها إذا تحولت البحيرة إلى خزان . ولم يكن لولى العهد فى ذلك الوقت (الامبراطور الحالى) من الأمر ما يكفى لاقناع الكنيسة بقبول تنفيذ المشروع .

ووضحت سياسة أتيوبيا لدى بريطانيا فى التسويف وإظهار الصعوبات التى من شأنها أن تعوق البدء فى تنفيذ المشروع . ولم يكن هذا الاتجاه جديداً فى سياسة أتيوبيا ؛ فقد عرف حكامها وشعبها فى التاريخ بتحفظهم الشديد فى معاملة الأجانب والتشكك فى أغراضهم . وهذا سر من أسرار احتفاظ أتيوبيا باستقلالها فى وجه مطامع الدول المستعمرة . وكانت ترمى سياسة أتيوبيا دائماً على ألا تمنح امتيازاً فى أرضها إلا إذا عاد عليها بفائدة مباشرة ، أو إذا اضطرتها إليه عوامل سياسية .

ظلت بريطانيا متحيرة فى موقف أتيوبيا ، حتى كشفت فى سنة ١٩٢٧ بفضل قلم مخابراتها السرية عن اتفاقية أتيوبيا السرية مع أمريكا ، فثارت ثائرتها ، كما ثارت ثائرة إيطاليا وفرنسا ، فاحتجت لدى أمريكا وأتيوبيا وذكرتهما بمعاهدة سنة ١٩٠٢ التى تعهدت فيها أتيوبيا ألا تقيم أى مشروع أو تسمح باقامته على البحيرة دون أخذ موافقة بريطانيا والسودان . فتراجعت أمريكا وأوضحت لبريطانيا بأن المشروع لم ينفذ بعد ، ومن الممكن الاتفاق على كيفية تنفيذه . وقد تم الاتفاق فى سنة ١٩٢٩ بين ممثل الشركة الأمريكية وممثل حكومة السودان ووزير خارجية أثيوبيا على أن تدرس الشركة المشروع تمهيداً لوضعه موضع التنفيذ . وقد طلبت الحكومة الأثيوبية أن يكون نقل الأدوات اللازمة للبناء عن طريق جيبوتى إلى أديس أبابا لا عن طريق السودان .

وتعهدت الحكومة أن تقوم بتعبيد طريق للسيارات يمتد من أديس أبابا إلى البحيرة . و بذلك تم للحكومة الأتيوبية ما أرادت من أن يقوم بتنفيذ المشروع دولة غير الدولة المستعمرة للبلاد المجاورة لها . وتم لبريطانيا أيضاً ما أرادت من تنفيذ المشروع على أى وضع مع عدم ارتياحها إلى الشركة الأمريكية .

ولما لم تجد أتيوبيا فى أمريكا سنداً قويا بل رأتها قد تفاهمت مع بريطانيا ، حولت نظرها إلى اليابان التى كانت فى حاجة شديدة إلى القطن لتغرق الأسواق العالمية بمنسوجاتها . فأبرمت معاهدة تجارية فى سنة ١٩٢٧ بين أتيوبيا واليابان . وأرسلت اليابان بعثة سنة ١٩٣٢ لدراسة بحيرة طانا واستئجار مناطق واسعة حول البحيرة لزراعة القطن ، وطلبت أن تعفى جميع الأدوات اللازمة من الرسوم الجمركية والضرائب . وتوثيقاً للعلاقات تمت خطبة أحد الأمراء الأتيوبيين لابنة أحد أصحاب الأعمال من اليابانيين ، وكسب اليابان كثيراً من الأصدقاء فى أتيوبيا وراجت تجارتهم فيها . فأغضب هذا بريطانيا ، وأمكنها أن تقضى على تلك الصداقة بعد سنتين من قيامها ، كما صرح وزير خارجية الحبشة سنة ١٩٣٤ بأن الزواج لم يتم بين الأمير الأتيوبى والفتاة اليابانية تحت ضغط دولة أجنبية .

وفى ديسمبر من سنة ١٩٣٤ قررت الحكومة الأتيوبية سحب الإمتياز من الشركة الأمريكية . فلم يقع هذا الخبر من الناس موقع الغرابة ؛ لأن المناوشات بينها وبين إيطاليا كانت قد بدأت فى ولول فأعلنت فى الصحف أنها ستقوم بتعبيد الطريق بين أديس أبابا والبحيرة التى كانت قد وعدت بها الشركة الأمريكية سنة ١٩٢٩ . ثم لجأت إلى بريطانيا تعرض عليها امتياز تنفيذ المشروع لكى تسترضيها لتقف إلى جانبها إذا هى دخلت فى حرب مع إيطاليا . وفى سنة ١٩٣٥ دعت أتيوبيا كلا من بريطانيا ومصر والسودان لعقد مؤتمر فى أديس أبابا للوصول إلى اتفاق حاسم فى مسألة مشروع بحيرة طانا . ولكن الحكومات الثلاث طلبن تأجيل الدعوة حتى تنجلى الحالة السياسية .

وقد أظهرت إيطاليا من جهتها فى يناير سنة ١٩٣٥ للحكومة البريطانية أنها ربما تدخل فى حرب مع أتيوبيا ؛ ولذلك فانها تعطى بريطانيا ومصر الضمانات الكافية لحماية مصالحهما فى بحيرة طانا ، وقد صرحت بذلك فى عدة مناسبات ، على حد قولها .

وفى اليوم السابق لعرض مسألة النزاع بين أتيوبيا وإيطاليا فى عصبة الأمم

أعلنت الصحف فى ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ قرار مجلس الوزراء فى مصر بفتح اعتماد ٣٦ مليوناً من الجنيهات لتنفيذ مشروع السنوات الخمس للتوسع فى إنشاء الخزانات على النيل ومنها خزان بحيرة طانا .

وأعلنت الحكومة الأتيوبية أنها منحت شركة سويسرية امتيازاً لمد طريق من أديس أبابا إلى كورموك على حدود السودان يتم فى سنتين . ثم اقترحت على الوزير البريطانى فى أديس أبابا أن أتيوبيا مستعدة لمنح بريطانيا امتياز البحيرة لقاء دفع ثلثمائة ألف جنيه انجليزى . ولكن بريطانيا أعلنت أن الحالة السياسية لا تسمح بالمفاوضة فى مسألة مشروع طانا .

وقد عطل حرب الحبشة تنفيذ المشروع ، كما عطل بناء الخط الحديدى الممتد من أسمرا إلى مجدشو مخترقاً الحبشة لوصل القاهرة بمدينة الكاب بعد تكملة مسافات قصيرة من كسلا إلى أجوردات ومن مجدشو إلى نيروبى . وضعف أمل بريطانيا ومصر بعد جهاد ثلث قرن فى تحويل بحيرة الكنائس إلى بحيرة استغلال .

ولما استتب الأمر لايطاليا فى الحبشة أسرعت إلى إرسال بعثة لدراسة البحيرة رغبة فى استغلالها على وجه يتفق ومصالح إيطاليا فى أفريقيا الشرقية مع مراعاة مصالح البلاد التى تصلها مياه البحيرة .

والآن وقد عادت الحالة السياسية فى أتيوبيا إلى وضعها القديم ، نلاحظ أن السياسة البريطانية التى استمرت فى جهادها منذ أوائل هذا القرن لتحقيق هذا المشروع قد فترت أو تراخت أو تبدلت . فهل سبب ذلك عدم استقرار الأمور بين بريطانيا ومصر ، أو اتجاه جديد فى سياسة بريطانيا بالاضافة إلى السودان الجنوبى دون الشمالى ، أو كما يقال بأن أرض الجزيرة التى كانت أساس التفكير فى المشروع لن تستفيد كثيراً منه بحسب ما جاء فى التقارير الأخيرة ، أو يكون هناك من الأسباب ما نجهله ؟

لكن الوقائع أثبتت اتجاهاً جديداً فى السياسة البريطانية . كانت بريطانيا تحرص على ذكر بحيرة طانا فى نصوص المعاهدات أو الاتفاقات التى تجرى بينها وبين أتيوبيا أو بينها وبين الدول ذوات المصالح هناك . وقد رأينا المعاهدة الأخيرة المبرمة بينها وبين أثيوبيا فى ديسمبر سنة ١٩٤٤ أهملت ذكر بحيرة طانا إهمالا تاما ، فاتجهت اتجاهاً جديداً تعلله سياستها فى السودان الجنوبى وتحقيق فكرة الصومال الكبير .

المشروع

والت وزارة الأشغال المصرية إرسال الفنيين من الانجليز إلى بحيرة طانا منذ أوائل القرن الحالى ، فرجعوا بنتائج بحوثهم وكتبوا تقاريرهم . ومع اختلافهم فى التفاصيل أجمعوا على ضرورة إنشاء خزان بحيرة طانا للفائدة المحققة التى تعود منه على السودان ومصر . وقد أرسلت الوزارة سنة ١٩٢٠ بعثة إلى البحيرة تحت إشراف يلال وجرابهام بقيت سنة كاملة هنالك لتتمكن فى أثنائها من دراسة البحيرة دراسة دقيقة . فرجعت البعثة بنتائج باهرة وبحوث قيمة وملاحظات مختلفة ، وبخاصة من الناحيتين الجوية والمائية . وقدنشرت هذا ضمن مطبوعات وزارة الأشغال سنة ١٩٢٦ . وكذلك نشر قسم الطبيعيات بالوزارة ما يتعلق بمستوى مياه البحيرة فيما بين سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٣٣ تحت إشراف هرست وفيلبس .

ولم تقنع بعثة جرابهام بالبحوث العلمية فحسب بل اقترحت طريقة استغلال مياه طانا ، باقامة سد يحوّل البحيرة إلى خزان لكى يمكن توزيع مياه النيل الأزرق بحسب اقتراح سابق لبعثة باكلى سنة ١٩١٥ . واقترحت إقامة سد عند منبع النيل الأزرق يرفع مستوى مياه البحيرة مقدار خمسة أمتار يحجز وراءه ١٤ ملياراً من الأمتار المكعبة تكفى لتعويض مياه النيل الأزرق فى أشهر الانخفاض .

ولما تحصلت الشركة الأمريكية على امتياز تنفيذ المشروع أرسلت بعثة على رأسها روبرتس سنة ١٩٣٠ على نفقة حكومة السودان ، ثم سنة ١٩٣٣ على نفقة الحكومة المصرية لدراسة المشروع من الناحية العلمية ولتكملة بعض المجسات والمقاييس .

وقد أسرعت إيطاليا لما آل إليها الأمر فى الحبشة بارسال بعثة يرأسها داينيلى أقامت عند البحيرة سنتى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ ، فدرست كل ما يتعلق بالبحيرة دراسة وافية من الناحيتين العلمية والاقتصادية . وكان رائدها فى دراستها اعتبار الحبشة مستعمرة إيطالية يجب أن تستغل لصالح إيطاليا أولا . وقررت فيما قررت أن أثر خزان بحيرة طانا فى النيل الأزرق لرى السودان ومصر غير محقق ؛ لأن الغرين الخصب لايأتى من البحيرة بل من روافد النيل

الأزرق . وقد استبعدت الحكومة الايطالية تنفيذ المشروع بالطريقة المقترحة ، وادعت بأن هذا يمنع أفريقيا الشرقية الايطالية من الاستفادة من أهم مواردها المائية . ووجهت همها لاستخراج التيار الكهربائى من مراكز تبدأ عند انحدار مياه النيل الأزرق من اينجيريار ، واقترحت أن يكون مركز مثلا عند مساقط طيس وها وآخر عند انحدار رافدى الثور والثول . واقترحت البعثة مشروعاً اخر استمدت فكرته من اقتراحى دوبوى الذى زار البحيرة سنة ١٩٠٢ ، وشيسمات الذى زارها عدة مرات بين سنة ١٩٢٦ وسنة ١٩٢٩ ، وهو شق قناة من خليج زوداى جرار فى غرب البحيرة تحمل المياه إلى رافد البلاس . وينشأ عن ذلك عدة مراكز لاستخراج التيار الكهربائى ورى منطقة واسعة تصلح لزراعة القطن . ويمكن أن تستخدم القناة لخفض مستوى البحيرة ؛ وبذلك يمكن الاستفادة من الأراضى الواسعة الخصبة الناشئة عن الانخفاض .

ومما يسترعى الالتفات أن الفنيين من الطليان اعترضوا على تنفيذ المشروع ، بأن هناك عوامل وظواهر مختلفة لا تزال مجهولة أو غير مضبوطة . فالمشروع مقبول من الناحية النظرية ، ولكن هناك نقصا شائنا فى دراسة الشبكة المائية الواسعة الممتدة على النيل الأزرق من البحيرة إلى الحدود السودانية ، كما يحتاج تنفيذ المشروع إلى معرفة أحوال المياه فى النيل الأزرق معرفة دقيقة .

الفائدة

إن إقامة سد عند منبع النيل الأزرق من البحيرة سيجعل من البحيرة خزاناً يحتفظ وراءه بكمية من المياه تتجمع فى الفجوة الطبيعية المحيطة بالبحيرة . ولن يضر ارتفاع الماء فى البحيرة إلا بعض الكنائس والديارات الموجودة فى بعض الجزر .

والمقترح أن يرفع السد مستوى الماء فى البحيرة من مترين إلى خمسة ، وترتفع كمية المياه من ستة مليارات من الأمتار المكعبة إلى أربعة عشر ونصف مليار يستفاد منها بنحو ١٢ مليار من الأمتار المكعبة ، أى ثلاثة أضعاف ما نحتفظ به فى خزان أسوان تقريباً .

وتحجز المياه فى موسم الأمطار من شهر يونيه إلى شهر سبتمبر ، وتصرف بحسب الحاجة فى أشهر الانخفاض الثمانية .

وستكون الفائدة المباشرة لهذا المشروع زيادة الأراضى المزروعة فى السودان ومصر زيادة كبيرة . وكذلك يمنع حجز مياه البحيرة فى موسم الأمطار خمسة فى المائة على الأقل من مياه الفيضان .

وقد رأت الحكومة الأتيوبية أن تنفيذ المشروع سيعود عليها بالفائدة . فانه من الناحية الصحية سيقضى ارتفاع الماء على المستنقعات المنتشرة هناك والتى تعتبر موطن جراثيم الملاريا . كما سيسبب تصريف المياه الكشف عن منطقة واسعة حول البحيرة مغطاة بالغرين صالحة للزراعة ، وسيعم الرخاء جميع أهالى المنطقة نتيجة لما سيصرف من المال فى دفع أجور العمال ووسائل النقل .

فالمشروع فى ظاهره و باطنه مفيد كل الفائدة لمصر وأتيوبيا ، وهو مفيد للسودان على أى حال ، لا يحتاج فى تنفيذه إلا أن تستأنف المفاوضات بين مصر وأتيوبيا ، وبخاصة بعد أن ذللت عقبة المواصلات . فقد مهد الطليان أيام احتلالهم لأتيوبيا طريقاً للسيارات يبدأ من أديس أبابا إلى أديس ألم فدبرا مرقص ، ثم يمر بغرب البحيرة متجهاً إلى مدينة جوندار فى شمالها ، ومنها إلى أسمرا فمصوع . كما مهدت طريقاً من حدود السودان إلى أديس أبابا ماراً بأديس ألم .

مراد كامل

اللحن الضائع

كان من منهاج حياتنا اليومى أن نلتقى . وكانت الندوة مقهى أنيقاً بشارع أكسفورد فى لندن . وكان للقائنا ميعاد موقوت لم نتخلف عنه طوال سنوات التحصيل الثلاث الطيبة التى قضيناها فى تلك المدينة الخالدة . وكان هو يمضى أكثر ساعات نهاره وطرفاً من الليل فى مختبر تجاربه الكيمياوية ، وكنت أنا أمضى مثل ذلك من أيام الشباب الجاد فى مكتبات الجامعة الحاشدة . وكان حرصنا على اللقاء فى الندوة المختارة عظيما ودائماً على رغم كل ما قد يستجد من الظروف . وكنا نتفق كثيراً فى مجالس السمر العامرة تلك ، وكنا نختلف كثيراً أيضاً ، وقد نمضى عنها غضاباً وقد نمضى فرحين . ولكننا كنا نعود ، فى الركن المعين والموعد الموقوت . ولم أنقطع أنا عن السعى إلى تلك الندوة منذ تعارفنا ، ولم ينقطع عن مثل ذلك صاحبى غير مرة واحدة ! وما كانت هذه المرة لتذكر لو لم تكن على النحو الذى تمت عليه . ومع بعد العهد بما قد تم وبالجو العامر بالسعادة الذى كان يغمرنا يومئذ ، فما زالت ذكراها عالقة بذهنى كأنها وقعت بالأمس القريب ! لقد انفرط بعدها عقد صفائنا ، وما أحسب أنه عائد أبداً . . .

. . . فى مساء اليوم السابق لانقطاعه كنا جلوساً على العادة فى الندى المختار . وكان الحديث يشتمل على أفانين شتى من الجد والفكاهة ، وقطع من الموسيقى المزجة تنتشر فى جو الندى ، ومن حولنا صخب الناس ، وضجيج السيارات وهمس رواد المكان . وفجأة أدارت العاملة الموكلة بالاسطوانات اسطوانة لم يلبث صاحبى عند سماعها أن وقف حديثه بغتة لأجلها ، وأنصت إنصاتاً نقله مما حوله إلى جو خاص . وأمضى فى سهومه نحواً من دقيقة تجهمت فى خلالها أسارير وجهه الأسمر ، وانعقد حاجباه واتسعت عيناه السوداوان ، وارتسمت على جبينه آثار الرجوع إلى حلم قديم . ثم أدار وجهه نحوى وقال : « اصغ . . هذه

قطعة من قطع ريمسكى كورساكوف الخالدة . هذه « شهر زاد » ؛ عروس الشرق تتهادى فى موكب زفاف غربى . »

وأنصتّ — ولم يكن لى علم كعلمه بالموسيقى — فأعجبنى ما سمعت ، واستخفتنى ألحانها ، وخيل إلى أنى فى جو علوى ، لا هو شرق خالص ولا غربى خالص ، بل مزاج إنسانى رفيع . وأنصت أيضاً فشعرت أنى لا أسمع هذه الألحان سمعاً فقط ، ولكن حواسى الخمس جميعاً قد تمازجت فهى حس واحد واستحسان أتم لهذه الأنغام .

ونبهنى صاحبى ، قال : « اسمع هذا الترديد » وجعل يساير الاسطوانة بصفير أوقعه بحساب الموسيقى الرائعة ، هذا ترديد لليالى الألف التى قضتها شهر زاد المرأة الحكيمة مع الملك الفذ شهر يار . ومضى وقت — لست أدرى ما مداه — ثم تخافتت الألحان وتخافتت حتى غمرتها ضجة المكان . وظل صاحبى ساهماً ، يعاود صفيره بين آونة وأخرى . ولم أشأ أن أقاطعه ؛ فقد كانت تنم هيأته على استحسان ماهو فيه ، وكنت أنا أيضاً قد استحسنت اللحن فأعجبنى ترديده فسكتّ وأصغيت.

ثم أفاق صاحبى من حلمه ، وقال : « هذا اللحن كان ضائعاً — أعنى من ذاكرتى — وقد وجدته وسأجدها معه ! هذا اللحن الذى هزك هنا وسط لندن قد كان هزنى من قبل . لقد سمعته قبل ست سنين على حفافى الصحراء فى مصر الجديدة . وظل فعله يستجد فىّ كلما سمعته وأينما سمعته . وقد حفظت الترديد كما حفظت أكثر أنغام القطعة . وكان من رأيى إذا جلست وحدى أن أعيدها على نفسى . وذات مرة — وقبل أن ألقاك بعامين — كان القطار يقلنى من باريس إلى هذه الأرض ، ولم أبال الناس الذين معى أول الأمر ، فطاف بذهنى أن أردد لحنى المختار ، ففعلت ، وظللت أعيد ترديده وأنا أستطيب ذلك ، حتى ذكرت أن ذلك قد لا يطيب لمن حولى ، فكففت خجلا . وكنا ثمانية ركاب فى المقصورة : شابين مصريين وزوجتيهما وأنا وثلاث سيدات بينهن إنجليزية واحدة . وقد بادرتنى الانجليزية — وكانت أصباهن وأحلاهن — فقالت : « عفواً ، أليس هذا الترديد من قطعة شهر زاد ؟ » قلت : « بلى ! بعينه » . فردت تقول : « رائع ! » قلت : « صدقت » . واستمر الحديث بيننا ، وجر الحديث إلى معرفة ، والمعرفة إلى دعوة لبيتها ، ثم أفضى ذلك إلى صداقة لم تلبث أن انقلبت حباً آخر الأمر . وكانت شمس مصر الحبيبة لم يزل أثرها فى نفسى وقلبى ، ودفئها

الذى يبعث الحياة كنت لا أزال أنعم به ، فكان حي من أثر ذلك عنيفاً . . . »

قال صاحبي : « وفجأة ألفيتنى ذات يوم أفقد اللحن الأثير ، وأفقد دين فى ذلك اليوم نفسه ! »

. . . قال : « كنا قد اتفقتنا على أن نلتقى على رصيف إحدى محطات القطار الكهربائى تحت الأرض ، وتوافينا فى الموعد المضروب ومضيت بها إلى حديقة سان جيمس ، وكان يوماً تضن بمثله الطبيعة على الناس فى انجلترا : زانته الشمس الساطعة ، وانقشعت عن وجه السماء الغيوم غير قطع صغيرة زادت زرقتها روعة . وكانت ساعة المغرب تاجاً لذلك النهار المشمس ، فقد تجمعت دكنة الغيوم وزرقة السماء وذهب الأصيل لاخراج مشهد من المشاهد النادرة فى تلك الآفاق . وكنا — دين وأنا — نستجلى ذلك المشهد فى مجلسنا فى الحديقة حتى غابت الشمس واضمحلت حمرة الشفق ، ثم لم تلبث الظلمة أن خيمت بعد أن غلبت بقايا النور فطمستها ، فأمسينا فى عتمة تتبين العين من خلالها الأشباح لا تفاصيل المرئيات . واستدارت دين نحوى وقالت : « أعجبك المشهد الجليل ؟ »

« قلت : نعم ! قالت : نعم وحسب !

«والواقع أن «نعم» وحدها لم تكن تكفى للاعراب عن شعور المرء و إعجابه بما قد رأى فى ذلك المساء ، غير أن عاملين اجتمعا بغم ثقيل على صدرى فى تلك الساعة فجاء الجواب مختصراً على هذا النحو ؛ فغلبة الظلام على النور تكرب نفسى دائماً ؛ وقد سعيت إلى التفريج عنها باللحن الأثير فضاعت كل محاولة عبثاً لاستعادته يومئذ ، لم أستطع قط أن أذكره ، وفقدته ، وفقدتها معه أيضاً كما قلت . فقد اشتد الضيق بصدرى حتى لم أكد أطيقها ، فكان كل جواب صدر منى لها خشناً ، وكل عبارة قاسية ، وكل لفظة وخزاً أليماً لنفسها الرقيقة . وقد أدهشها ذلك منى ، وتلطفت بى ، وحاولت أن تترضانى وتستأنسنى ، فلم يجد ذلك . و أمست آثار الظلماء تخيم على ، وفقدان اللحن يكربنى . وقد حاولت دين أن تذهب ما بى بمحاولات شتى من عندها ، فاقترحت أن نسير فى مماشى الحديقة الناضرة ، فقمت و إياها ، وكان الظلام قد أحكم إرخاء سدوله وشمل الحديقة كلها ، وأطبقت معه الغيوم على السماء إطباقاً ، فانتشرت كثيفة على صفحتها ، وحجبت كل نجم كان قد بدأ متلألأ فيها . وسرنا فى الماشى التى كانت تبدو كالأخاديد

السود ، وأوغلنا ونحن ساكتان وكل همى أن أستعيد لحنى الضائع لأسترد بذلك طمأنينة نفسى ، ولكن كل محاولة كانت باطلة . وبدا لى أن كل جهد أبذله فيضيع يزيد كرب نفسى ويبعدنى عن اللحن بعداً ينضاف إلىّ به هم جديد . وشعرت أنى فى ذلك الجو الذى لفه السكون والظلام حبيس، وأن رئتىّ لا تجدان من الهواء الطلق كفاية تعينهما على التنفس ، فأنا أختنق . فالتفتت إلى دين وقلت لها : « دين ! إنى تعب . جد تعب ؛ فهل تأذنى لى فى الاضطجاع على العشب خمس دقائق فقط ؟ »

« قالت وقد أخذتها الدهشة : ولماذا ؟ ولكنه مبلول وأخشى عليك البرد . فلم أجبها وأفلتّ يدى المشبوكة فى يدها وجلست متخاذلا ، ثم ما لبثت أن اضطجعت .

« كان المشهد رائعاً :ظلمات شاملة فى السماء، تتلقاها أشباح الشجر القائم عند ملتقى الأفق فى الجانب الشرقى ، ويقابلها من الغرب خط من الأنوار المنبعثة من الشارع البعيد . وكنت — وأنا مضطجع — أستطيع أن أتبين قوام دين الجميل وبعض قسمات وجهها ، وبخاصة بريق عينيها وطرف أنفها ، وكانت تطل على من عليائها ، فكأنها مخلوقة هابطة من الظلمات العلا . . أعنى السموات . وظللت مدة وأنا سادر أتأمل وأحلم ، وقد اختلطت الحقائق فى عينى بالرؤى ؛ فقد كان للظلماء التى صبغت كل شئ بلون حجابها القاتم أثر فى ذلك الخلط .

« فى تلك الضجعة على أعشاب حديقة سان جيمس فقط تبينت أن البشر خلق علوى وأن موضعه السموات . لقد رأيت الأرض نجماً سابحاً فى فضاء رحب كما يصورها الفلكيون حقا . إذاً فليس بين أرضنا الأم وبين نجوم السموات من فرق فى الأصل . . كل شئ بدا لعينى يمتّ بصلة للأشياء الأخرى التى فى هذا الكون : الأرض والانسان والنبات والنجوم كلها خلق واحد ومادة واحدة.

ونبهنى من حلمى صوت دين الرقيق يقول : « مضت عشرون دقيقة . وأخشى أن يصيبك البرد فقم . » وسكتت ، فجعلت أصداء كلماتها تتردد فى أذنى وفى نفسى . وقمت فخرجنا وتعشينا وعاد إلى نفسى بعض هدوئها وإن كنت ما أزال شاعراً بأن فى قرارتها شيئاً نفيساً مفقوداً . »

قال : « ومضت على تلك الليلة قرابة ثلاث سنين . لم أذكر اللحن الضائع ولم أر فى خلالها دين . ولم أسع إلى سماع الأسطوانة التى تحفظه — وذلك

ميسور — لأن سحر المصادفة يضيع منى وتفوتنى متعته . كانت المصادفة هى التى وافقت بينى وبين دين وهذا اللحن ! وقد مضى اللحن وضاع وسط ملايين من ألحان الكون الرحب التائهة . ومضت دين أيضاً وضاعت وسط هذه الملايين من سكان لندن . وما بى من حيلة إلى خلق المصادفة ، و إن كنت قادراً على إيجاد اللحن . ولكنى أرى المصادفة قد جاءت الآن : عاد اللحن ، و إنى لعلى يقين بأنها هى أيضاً ستعود . »

فى الليلة الثالثة غاب صاحبى على غير عادته عن الندى ، وامتد أمد غيابه أسبوعاً بأكمله . وقد قلق أصحابى لغيابه ، وافتقدوه وافتقدته أنا أيضاً بأشد مما افتقدوه ، ولكن كان فى نفسى من حس الطمأنينة بالتقاء الحبيبين وعودة الصفاء بينهما ما لم يكن مثله فى قلوب الآخرين . . . وصح ما قد توهمت وأحسست ، فقدتبينت أنه نعم بصفاء لقياها طوال ذلك الأسبوع ؛ وعاد ليطمئننا ثم يستأذننا فى الغيبة من جديد . . . وكان ذلك إيذاناً بانفراط العقد ، وقد كان !

فخرى شهاب

انطلاق . . .

[إلى الذين أرادوا شراء قلمي
فباعوا ضمائرهم]

إني اعتصرتُ مدامعي من مهجتي — وسكبتُها لخواطري قربانا
وأقمْتُ محرابي ... وكان خطيئةً — عند الورى فأحلتُه إيمانا
لي مَذْهَبُ الغرّيد... أنشد فرحتي — وشقاوتي وأبثها ألحانا
أنا طائرٌ متفرّدٌ .. بصبابةٍ — فاضتْ على أنغامه تحنانا
يا هذه الدنيا عبدتُكِ مخلصاً — وتخذْتُ بين رياضكِ الأفتانا
لي ذلك الأفق المذهَّبُ . . والضحى — والفجرُ يخفقُ... والدجى سهمانا
لي هذه الشمسُ الكبيرة أحرقتْ — سحباً همَتْ فوق الثرى إحسانا
لي ذلك البحرُ العظيمُ وما طوَتْ — أحلامُهُ فرحانَ أو غضبانا
هذي السماءُ تجملتْ لي فارتدتْ — عند الغروب وشاحها ألوانا
وتزينتْ لي في الظلام فنسَّقت — بالأنجم النشوى لها تيجانا
الليل ... كم أوقفتهُ مترنحاً — والنايُ قد صيّرتهُ سكرانا
والنور . . كم أذهلتُه فتقدست — منه بشائرُ تغمر الأكوانا
والزهر ... كم أرقصته فتفتّحت — أكمامُه وتضوّعت بستانا
هذي أغاريدي... فسَلْ عنها الهوى — والحب والأفراح والأحزانا
إني وهبْتُ لكلِّ معنىً غنوةً — وأقمتُ تمثالا له فتّانا
غنّيتُ حتى للدمامة مرسلاً — في كلِّ ناحيةٍ دمى ألحانا
هذي أغاريدي ... فكيف بحبسها — وأغصُّ لا أرضى لها إذعانا

هذى أغاريدى ... فكيف بحبسها   وأرى السما قد أرهفتْ آذانا
هذى أغاريدى تفورُ بأضلعى   وتشُقّ مُنْفَسَحاً لها ظمآنا
لبيك يا قلمى مسطرَ شقوتى   ومسرتى للخالدين بيانا
لبيك ياقلمى ... غمَستُكَ فى دمى   وبثثتُ منك مشاعرى ألوانا
أنا لا أغنىّ للجمادات التى   ضاقتْ بها تلك القبورُ هوانا
تمشى فتحسبها نفوساً ... إنها   كُتَلٌ تدبّ على الثرى أبدانا
هل غيّضوا النهر المبارك سيره ؟   أم صَيَّروا هذا السحاب دخانا ؟
هل أوقفوا ركبَ الحياة ؟ وأطفأوا   شمسَ الأصيل ؟ وبدّلوا الإنسانا ؟
هل صيروا الليل البهيمَ صحيفةً   بيضاءَ ؟ أم هل أنبتوا الكثبانا ؟
هيهات ... لن يقووا على حبس الذى   فى خاطرى متدفقاً ... هتّانا !
أنا طارحٌ عنى عباءةَ مجدهم   ولقد بُليتُ بحمْلِها أكفانا
خلعتْ لأشواق الحياةُ قناعها   وأباحتِ السرَّ الخفىَّ عِيانا
وتسرَّب الوجدانُ بى متغلغلاً   خلفَ المدى متطلعاً حيرانا
ياروحَ هذا الكونِ ... إنى عابدٌ   لكَ ناثرٌ صلواته قربانا
أستقبل الدنيا وفى شبّابتى   نغمٌ يقدّس ما أرى ألحانا
وأحبُّ هذا السهل مُنْبَسطاً ، كما   أهوى الجبالَ وأعشَقُ الوديانا
وأقاسمُ الليلَ الحزين شجونه   وأساجلُ الفجرَ الجميلَ حنانا
وأطيرُ حتى أستحيل غمامةً   وأرفُّ طيراً شادياً لهفانا
قد عشتُ هذا الكون بين جوانحى   وتمثلتْه مشاعرى ألوانا
حريتى مِلكى ولستُ مُخلفاً   إلا السجون وخلفها السجّانا !

عبد الرحمن الخميسى

الأختان

كان لى بنتان ، كبراهما سمراء ، هيفاء ، فاحمة الشعر ، باسمة الثغر ، لها وجنتان ورديتان ، وعينان دعجاوان ، وجسم نحيل . ولدتها أمها سهلة ، فجاءت إلى هذه الدنيا سهلة ، وخرجت منها سهلة . وكانت وهى رضيع كثيرة البكاء ، قليلة النغاء ، تتبرم أمها ببكائها مع أنها البكر ، وتضيق بصراخها ؛ فلما أدركها الفطام هدأت ، واطمأنت ، وألفت المناغاة ، واعتادت الابتسام . فكنت إذا دخلت البيت أقبلت علىّ ، واندفعت إلى ، وأسلمت إبطيها ليدى ، وارتفعت عليهما إلى شفتى ، فأقبلها ولا أشبع من التقبيل ، وأحتضنها وأضغطها على صدرى ، وأناغيها ، وتستغرقنى المناغاة ، حتى تصرفنى عن الطعام والشراب ، فتتبرم أمها كما كانت تتبرم ، ويسخطها نغاؤها كما كانت تسخط على بكائها ، وتضيق بفرحها الذى يصرف أباها عن زاده كما كانت تضيق بترحها .

كانت إذا جرت اندفعت ، وإذا اندفعت تعثرت ، وإذا تعثرت همت فى الحال وهبت ، واندفعت واصطدمت ، وبكت ، ثم لا تلبث أن يعاودها الابتسام. وكانت وهى دون العاشرة مثلها وقد جاوزتها حركة ، نشيطة ؛ لاهية ، عابثة؛ لا تفارقها عينى ولا حى ، ويهفو إليها فى الغيبة قلبى ، وأخشى على نحولها من عبث الأيام وعوادى الأسقام ، وأرعاها كما أرعى النبتة الرقيقة الدقيقة ، وأسقيها ماء الحياة من معين حياتى ، فهى الفراشة المتنقلة ، الطروب ، الهابطة ، الطائرة ، التى تجعل فصولك جميعاً ربيعاً ، ولا تذكرك أبداً بخريف الحياة .

وكانت روحية إذا حل الشتاء أطل وجهها النضير المستدير الجميل من فروها الوثير ، فرأيت لعينيها بريقاً يدفئ قلبك ، ولثغرها نوراً خليقاً بالاجتلاء ، ولورد خديها ناراً من وهج ذكاء ، ولطلعتها معنى يشع بالرجاء . كلها حرارة دافئة دافقة ، من نار ونور ، ونشاط وحبور ، قد قدر فى اللوح المسطور أن يكون كله نزيل القبور .

وولدت حورية بعد مولد روحية بعامين اثنين ، وتعسرت ولادتها فترة قدرية ، ولبثت أياماً لا تعرف لها هوية ، ثم أشرقت طلعتها ندية بهية ، وتفتحت

الملامح عن وجه ملىء ، وخلق هنىء ، وهدوء ملحوظ ، فكأنها خبرة الأيام اكتسبت قبل الخبرة ، ونهية المرام اكتملت قبل الحسرة .

وكانت حورية متعة أمها ، أثيرة عندها ، لا تبكى فى الرضاع على نقيض أختها ، إذ وُضعت تواضعت ، و إذا حُملت تهالكت ؛ لا تكلف أمها مشقة ولا ترهقها عسراً ، تحبو إلى غير غاية ، وتقف بلا غاية ؛ وتظل الساعات لا يسمع لها حس ، لا تزعج ولا تنزعج ، إذا أبطأ عليها الرضاع وهمت بالصياح استدركت وأسعفت . فكانت على الجملة الطفلة التى تنشدها الأم : هدوءٌ واستسلاماً ، ورضا وقناعة ، وسكوتاً يعينها على تصريف ما خلا الطفولة من شئون .

وكبرت حورية واكتنزت وربت بيضاء ، شقراء ، زرقاء العينين عميقتهما ، لا يدرك لعمقهما مع الصفاء قرار ، فريدة تمثل لوناً مرهوباً من ألوان الجمال . تميل إلى الوحدة ، ولا تأنس إلى الأتراب ، وتتجنب الضيف ، وتتعرض للعتاب ، وتعود من كل ذلك بسمعة النافرة ، وسخط النسوة ، حَذِرة متسترة لا يعرفها الرجال .

ونضجت الأختان كبراهما متأخرة ، والصغرى مبكرة ؛ وتبدت فتنتهما قبل الأوان ، وتفتحت الزهرتان عن مختلف الألوان ، وتعددت فيهما الشيات ، وتعارضت السمات . وكنت أعنى بتتبع نشأتهما منذ الصغر ؛ وأرعى نموهما حتى الكبر ، فخشيت كل الخشية على روحية ، ولم ينشغل بالى من نحو حورية . وتعقبت سلوك الأولى فى السن العاتية ، فرضيت عنه واطمأننت إليه ؛ لأنه لم يعلق به غبار ، فهى سريعة الخطى لا يدركها هراء الغوغاء ، وهى ذكية الفؤاد لا يزهيها إطراء ؛ وهى فاضلة لا يميلها إغراء .

وخطبها فى الثامنة عشرة شاب من خريجى الفنون الجميلة ، وشغف بها ، وخالطت فنه ، وأذكته ، وعلق عليها وعلى مستقبله الآمال الكبار .

وجاء الشتاء كعادته لينضر خديها ، و يروى وردتيها ، فرماها على غير عادته بداء عضال ، فازداد ضرام الخدين لكنه حال لونهما ، وشابت حمرة الوجنتين صفرة فيما يليهما ، وكابد جسمها النحيل نحولا فوق نحول ، وطال اعتكافها والتزامها الفراش . وفى ساعة صافية من ساعات النهار وقف بعتبة الحجرة زائر غريب ، لا عهد للسعيد بزيارته ، أو لعله لا يزور إلا السعيد : ملك أبيض الثوب ، ناصع البياض ، مخفوض الجناح ، يمد ذراعيه إلى روحية فى حنو المشتاق ، فتسلمه الروح ! فى عمر الزهرة ، وطور الفكرة ، لم تصبح بعد

حقيقة . وتتجلى السماء من حجرة روحية ، وينشر الملك الجناح وقد ضم إلى صدره روحها الطاهرة قبسا من نور ، أو جذوة من نار ، ما كاد الملك يصعد بها حتى أظلمت الدار ، وخبت النار من الجسم الهامد الممدود .

أيها الدمع ! ما بال العين المتفجرة والسيل الجارى قد كتب على مائه أن يغيض ! ما بال الذهول والطرف الساهى قد منع الماء أن يفيض ! أيقف الجمود كذلك بالباب يطلب فريسته فلا يجد ما يتملكه سوى المحزونين ؟ أتذهب قرة العين فلا تبكيها العين ، ولا تذرف عليها الدمع السخين ؟

أيتها العين تفجرى كما غِضْتِ ! أيتها الجيوب انشقى !

ويرتفع الذهول ، ويرتفع الصياح ، وينسكب الدمع الغزير ، إلا حورية فيأبى الذهول إلا أن تكون الضحية ؛ فهى فاغرة فاها ، جاحظة عيناها ، لا حراك بها ، ولا حياة فيها ، أو لا دلالة فيها على الحياة .

وتفتقد حورية بعد ذلك فتلفى فى مخدعها مطرقة ، يزداد انزواؤها ، ويتعاظم انطواؤها ، وقد سارت من قبل هذه السيرة فلم يطمع أحد أن تتبدل سيرتها . لكن ابنة السادسة عشرة توشك اليوم أن تذبل نضرتها ، ويوشك لونها الزاهى أن يغيب ويتولاه الشحوب .

ويقع ما كان يوشك أن يقع فيجف العود ، ويسير فى البيت خيال بعد أن كان المثال ، وتنقلب العاقلة المقلة مكثارة ، والصامتة ثرثارة مهزارة ، والمتئدة متعجلة متسرعة . ويخرج الوقار المطبوع عن طبعه فتبدو الخفة وتنقشع العزلة ، وتقبل حورية على الضيف تسرف فى تحيته ، ويراها الأتراب فيبدهها العجب العجاب ، وتتساءل أحورية هذه أم روحية ؟ أيها الموت الطالع علينا فى ثوب الملك ! لقد اختطفت بدل الروح روحين ، فحملت إحداهما إلى السماء ، وخلفت الأخرى على الأرض شوهاء ، فسلبتنا كل غراء !

أيتها الروح التى فى السماء أدركى الروح التى على الأرض ، فما عاد ينفعها البقاء فى دار الفناء !

كان لى بنتان ، كبراهما توفيت ، وتنكرت الصغرى ، ولم يبق منهما سوى الذكرى . والذكرى تؤلم المحزونين ، وتنفع المؤمنين ، وترفع إلى عليين . فاللهم ألحقنا بالسابقين !

محمود الدسوقى

خطرات فى الفنون الجميلة

الفن لغة : الكثرة والأنواع والألوان ، ومنه الأفنان والفينان والأفانين والفنون . ولعل أحدث مشتقات هذه الألفاظ وأقربها إيضاحاً لتلك المعانى ما اصطلح العامة على التعبير عنه بالتفنين والتفانين . والسائر أن الفن يحمل معنى الفنون ، وأن مدلول اللفظ مفرداً لا يختلف كثيراً عن مدلوله جمعاً ، فلا غضاضة أن يقال فن الأدب وفنون الأدب . ولا فرق فى المعنى بين فن العمارة وفنون العمارة . ولكن مدلول اللفظ أخذ ينكمش من جهة و يعم من جهة أخرى . والذى أعتقده أن تفسير كلمة « الفن » قد وقف عند حد كل معرفة لم تنحصر أطرافها فى أسس محدودة ، أو أنه كل معرفة قبلت التنوع فى شكل من أشكال التجديد والاقتباس ، أو الزيادة والحذف . أى إننا إذا أردنا أن نطبق هذا المعنى بصفته العامة ، أصبحت العلوم كلها ، وأصبحت أنواع المعرفة كلها تدخل فى نطاق الفنون . ولكننا فى صدد تحديد المعنى لا تعميمه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتمييز اللفظ أو نعته . فلنتفق على أن نميز الفنون بأبوابها ، كما اتفقنا على أن نميز العلوم بخواصها ، فنفرق بين علوم الحيوان والنبات والطبيعة والكيمياء والرياضة ، كما يجب أن نفرق بين فنون الأدب والحديث والفروسية والتجميل والطباعة ، فلكل من هذه المصطلحات مدلول واضح صريح ، ولعل الأمر كذلك فيما يتصل بالفنون الجميلة .

و يبدو لى أن الذى يقصد بالفنون الجميلة هو كل معنى متجسم من خواطر الرأى والفكر التى ترمى إلى التعبير عن الجمال وعن الحسن من الأشياء . ومع ذلك فأنا مقتنع بأن هذا التفسير ناقص غير واضح ، أو أنه أكثر إجمالا مما يذهب الفكر إليه عند ذكر الفنون الجميلة . فالشعر والغناء والرقص والموسيقى والتصوير الآلى تجسيم لمعنى من معانى الجمال ، ومع هذا فالحديث فى الفنون

الجميلة لا ينصب عليها فى أغلب الأحيان ؛ إذ أن الكتاب والأدباء والعلماء قصروا مدلول الفنون الجميلة ، فى اللغات الأوربية ، على فنون العمارة والنحت والتصوير ، وهى التى يعبرون عنها فى مصطلحات تلك اللغات بما تطابق ترجمته الحرفية لفظى الفنون الجميلة Beaux-Arts, Fine Arts, Die schönen Kunste والخير أن نتبع ما اتبعه هؤلاء الكتاب والأدباء والعلماء ، وأن نتفق على ما اتفقوا عليه . أما الفنون التى تتصل بالعمارة والنحت والتصوير أو تتفرع منها فقد أطلق عليها اسم الفنون التطبيقية ، أى التى تطبق صفات الفنون الجميلة على نواحى الصناعة ، وهى فنون الخزف والأثاث والحديد المطروق والحفر على العاج والخشب والنسيج وما شابه ذلك .

وكذلك اتفق علماء الفلسفة والتاريخ فى أوربا على تفسير الفنون الجميلة بأنها كل ما يعبر عن الجمال ، مما تخرجه يد الانسان ، بعد التفكير أو الخيال ، من مادة طبيعية أو صناعية ، لها صفة البقاء والدوام . ولسنا نجد هذه الصفات كلها مجتمعة إلا فى تلك الفنون التى ذكرتها . فالشعر مثلا يفقد صفتين أو ثلاثاً من هذه الصفات . فأنت تحس بجمال الشعر دون حاجتك إلى صياغته من مادة طبيعية أو صناعية ، كما أنه ليس لليد التى تسجل شعر الشاعر أثر فيما قد ينطق به هذا الشعر من جمال . والشعر كذلك تعوزه صفة البقاء ؛ إذ أن الشاعر يستعين بأداة خارجة عن موهبته الشعرية لتحقيق هذه الصفة . وقد يبدو غريباً أننا حين نخرج الشعر من الدائرة الاصطلاحية للفنون الجميلة ، نستطيع أن ندخل فى هذه الدائرة نفسها ذلك الخط الذى ينقش به الشعر فى رسم بديع ، لأن فى الخط نفسه جمالا سجلته يد الخطاط ، بعد سعى وإيحاء وتفكير ، وأصبحت له من الحجارة أو من الجلد أو من الورق أو من القماش الذى نقش عليه صفة من صفات البقاء والدوام .

ولست فى هذا أفضل فناً على فن ، أو أقارن فناً بآخر ، ولكنى أسعى إلى تحديد معنى لمصطلح الفنون الجميلة ، وأود أن أساير اتجاه اللغات الأوربية ، فهذه المادة حديثة العهد فى لغتنا وفى آدابنا ، وجدير بنا ألا نرمى بالخلط فى الكلام عنها والبحث فى أبوابها ، مادام لنا على كل حال مخرج لكل فن فى تمييزه، وما دام علماؤنا وأدباؤنا يتحدثون عن أجيال بعيدة عن فنون الأدب والشعر والموسيقى ، وعن أنها فنون جميلة . لا نزاع فى ذلك ، ولكنى أعرف أنهم أطلقوا

عليها يوماً لفظ الفنون الجميلة ذاته ، أو لفظ الفنون مجرداً ، من غير نعت أو تمييز لكل لون من ألوانها .

ولعل فى إيضاح تلك الصفات الخمس للفنون الجميلة ما يبرر حصر مدلول هذا اللفظ على ما ذكرت من فنون العمارة والنحت والتصوير . فصفة الجمال شرط بديهى يفرضه تخصيص هذه الفنون بنعت « الجميلة » . وسنعود إلى الادلال ببعض خطرات عن الجمال . و بديهى أيضاً أن يشترط فى تلك الفنون تدخل يد الانسان فى إخراجها . فقد تبدو صخرة فى الفضاء ، عن قرب أو عن بعد ، على هيئة تمثال بديع ، تتحرك مشاعرنا لرؤيته ، ولكنها الطبيعة هى التى نحتت هذه الصخرة فأخرجت منها صورة التمثال ، فهو تحفة من تحف الخليقة ولا سبيل إلى حصره فى دائرة الفنون الجميلة . و إلى هذا فالطبيعة من حولنا كلها جمال و إبداع و إيحاء لرجل الفن ولمنتجات الفنون . أما أنها يجب أن تكون مصوغة من مادة طبيعية أو صناعية ، فذلك تفسير لصفة تجسيم تلك الفنون للجمال والمادة وسيلة التجسيم ، ولهذا عرفت الفنون الجميلة بالفنون المادية أو الملموسة .

والفكر شرط واجب لتقدير الفنون كما هو شرط واجب لتكوينها . والفكر ينصب على الكلمة فى أوسع معانيها ، فتشمل الخيال كما تشمل اللعب واللهو . فقد يلهو الطفل و يجسم عجينة من الطين أو يسطر خطوطاً على قطعة من الورق ، فتتجلى من هذه أو تلك صورة بديعة يعدها بعض الناس تحفة فنية رائعة . ولكن الصورة التى تتركها على القرطاس رقعة من حبر مسبوك ، سقط عفواً عليها وسال ، وتشكل على صورة من الصور ، ليست من الفن فى شىء ؛ إذ لم يحدد الفكر هذه الصورة ، ولم يشكلها الخيال . وكذلك قد يقطع الرجل من الجبل قطعة من الحجارة ليرص منها أساساً لبيت ، أو ليجسمها فى شكل من الأشكال ، وقد تترك هذه القطعة فى صخر الجبل فجوة أو تجعدات تتجمع منها صورة جميلة ، ولكن لم يكن للخيال أو للفكر فضل فى صياغتها ، فهى فلتة من عمل الفنان وليست تحفة من تحف الفنون .

وأخيراً تشترك فنون العمارة والنحت والتصوير فى صفة البقاء . فالبناء الذى يشيد فى مناسبة خاصة ليهدم بعد ذلك تنتفى منه صفة الفن الجميل . والتمثال الذى يصاغ من الشمع فيوقد و يسيل ، أو من الحلوى فيؤكل و يلتهم ، ليس له موضع فى متحف للفنون .

وليس الأمر أمر اتفاق على لفظ شامل لفنون جميلة ثلاثة ، إذ أن العمارة والنحت والتصوير فنون تتفق معانيها ومراميها ، وترتبط أسبابها بنتائجها ، بحيث لا غنى عن تحديد اسم شامل لها ، ولا مفر من تمييزها عن بقية الفنون بتلك الصفة البارزة وهى الجمال .



قناع رأس من فنون الكونغو البلجيكية يبين مدى اختلاف تقدير الشعوب لمعنى الجمال تبعاً لاختلاف درجة تهذيبهم وثقافتهم

وقد اختلف الناس فى تقدير معنى الجمال وتفسيره ، وكان اختلافهم هذا تابعاً لاختلاف مقدار تهذيبهم وثقافتهم . ولهذا قد يكون من الصعب تعريف الجمال تعريفاً دقيقاً . ويرى الفلاسفة أنه الانسجام بين أجزاء الشئ المختلفة ، أو النسبة المعينة بينها . أو أنه الصلة التى تربط حساسيات النفس فتحركها ،

والوحدة الوجدانية التى تجمع بين صلات مشاعرنا المختلفة ، فتدخل عليها الفرح والبشاشة ، أو الاعجاب والتقدير ، أو الراحة والطمأنينة ، أو أى شعور آخر يرفعنا عن عالم المادة .

والجمال والفنون صلة بين المشاعر والحساسية من جهة ، و بين الذكاء والفكر من جهة أخرى . وهذا هو السبب فى اتفاق تقدير الناس للجمال ، إذا استوى تهذيب أفكارهم ، وارتقى إلى درجة السمو . كما أن هذا هو السبب فى اختلاف تقدير الناس لفكرة الجمال ، وفى تطور هذه الفكرة فى مختلف الأمم على مدى العصور والأجيال .

ونضيف إلى درجة اختلاف الحساسية وتباين المشاعر ، و إلى اختلاف درجة سمو الفكرة والتهذيب التى بلغتها الشعوب ، سبباً آخر لاختلاف تقدير الجمال ، هو مبلغ الاتقان الذى وصلت إليه تجارب كل أمة فى وسائل فنونها ، ومدى الصلة التى تربط تجارب هذه الأمة بعناصرها الطبيعية و بنظمها الاجتماعية . فقد كان للعبيد مثل عليا للجمال غير المثل العليا التى تشبع بها أصحاب البشرة الصفراء من أهل الصين واليابان . وكان لقدماء المصريين فكرة فى الفنون غير الفكرة التى تعلق بها سكان بابل وآشور .

ولكل وطن من الأوطان فنون تختلف فى مادتها وفى روحها وفى أشكالها اختلاف بلاده فى طبيعتها وفى مظاهرها وفى تكوينها . فنرى السقف المسطحة تنتشر على المبانى فى بلاد صحا الجو فيها ، وأقيمت السقف منحنية أو مقوسة أو مدبية فى بلاد اشتدت الأمطار فيها وقسا البرد . ونرى بلاداً أخرجت تحفاً من الزجاج لأن طبيعتها أوحت لها ذلك وأسدتها بوسائله ، وأخرى علقت بفنون السجاد ، وأخرى مهر أهلها فى صناعة الأخشاب وفى فنونها ، وأعمدة الجرانيت الضخمة فى الفن المصرى ، غير أعمدة الرخام الرشيقة فى بلاد الاغريق . وبلاد أقامت عمائرها من الحجارة ، وأخرى أقامتها من الآجر ، وغيرهما ترفعها على عمد من الخشب . فالطبيعة عامل رئيسى من العوامل التى تشكل الفنون ، وهى لهذا من العوامل التى تؤدى إلى اختلاف تقدير معانى الجمال.

وليس الفن فحسب تقليداً للطبيعة ، ونقلا لمظاهرها ، وتعبيراً لحقائقها ، بل هو فوق هذا صورة سامية لها ، وتمثيل مجسم لصفة هامة من صفاتها ، وفكرة خاصة لظاهرة من ظواهرها تلك التى كان للفن الفضل الأول فى اكتشافها ،

والتى كان للفنان الفضل البارز فى اتخاذها وسيلة تربط الحقائق والطبيعة بالمشاعر والأفكار ، وتجعل منها مثلا عليا هى الجمال .

والديانة عامل رابع لاختلاف تقدير معنى الجمال . فالعلاقة قوية بين الفن والديانات والاعتقادات ، بل إن الفنون لم تشب وتنم وتزدهر إلا بانتشار



أعمدة الجرانيت الضخمة فى بهو رمسيس الثانى بمعبد الكرنك ، تجسيم للعقيدة وتحقيق لما تقدمه الطبيعة من مواد ووسائل للفنون

الديانات . وإذا كان الفن قد وصل إلى درجة عالية من السمو عند الاغريق ، فما ذلك إلا لأن الصلة كانت وثيقة الارتباط بين الفنون وبين اعتقادات الاغريق الدينية ، تلك الاعتقادات التى كانت تجعل من الطبيعة مثلها العليا ، والتى كانت تضفى الجمال على الحياة . وإنا لنلحظ مدى الشعور الدينى فى

تطور الفنون ، ونرى مدى هذا الشعور فى أعمال رجال الفن ، مهما تباينت دياناتهم ، أو اختلفت اعتقاداتهم أو أفكارهم الدينية . وإذا كان بعضهم قد نزعوا أحياناً من قلوبهم هذا الشعور الدينى ، فهم إنما استعاضوا عنه بفكرة شخصية قوية ، تخلق الصلة بين ابتكاراتهم الفنية ، وتبعث فى نفوسهم الحس والشعور.

فاذا كانت الديانة والعقائد تجمع بين أسباب التفكير فينا ، وإذا كانت الأخلاق والشرائع تقرب وسائل الارادة منا ، فان الفن هو الذى يوحد مشاعرنا ، ويوجه طريقة إحساسنا .



أفروديت إلهة الحب والجمال تولد من جوف الطبيعة ، وتنبثق من أحضانها ، تجسيد للمثل العليا فى حياة الاغريق

هذه العوامل الأربعة : الحس وما يتبعه من اختلاف المشاعر ، والذكاء وما يتبعه من اختلاف درجة التجارب ، والطبيعة وما يتبعها من اختلاف الوسائل ، والديانة وما يتبعها من اختلاف العقائد ، هذه العوامل الأربعة ، وكثير غيرها مما يدخل فيها أو يتشعب منها ، ترتبط فيما بينها ارتباطاً وثيقاً . فالدين فكرة وشعور معاً . والشعور قد ينبعث عن عقيدة ، وقد يتولد من الذكاء . والتجارب مظاهر للذكاء قد تتحكم فيها العقيدة والشعور . والطبيعة ترتبط بكل هذه العوامل ، فتحرك بعضها ، وتتحكم فى البعض الآخر ، وتلونها جميعاً بألوان من صبغها .

إذا كانت هذه الأسباب قد أدت ، كما قدمنا ، إلى اختلاف الناس فى تقدير قيم الجمال ، وفى تحديد معانى الفنون ، فانها تدلنا على أمرين : الأمر الأول أن الفن عالمى غير شخصى ، وجماعى غير فردى ، أو أنه رابطة من روابط الجماعة ، ومظهر من مظاهرها . فكل عمل فنى يكون جزءاً من مجموعة فنية تفسره وتوضحه ، وهو ليس منعزلا بنفسه ، فيصح الحكم عليه منفرداً . وقد كانت الحضارات المختلفة ، حضارة المصريين وحضارة الاغريق وحضارات الاسلام وحضارات المسيحية ، كانت هذه الحضارات تدرس فيما مضى منفصلة ، كل منها قائمة بذاتها ، فأصبحت اليوم ، بفضل تاريخ الفنون ، تظهر كأنها مقاطعات إمبراطورية واحدة ، أو كأنها أجزاء لا تنفصل من عالم فرد واحد .

ولكل فنان شخصية ذاتية ، كما أن له عادات وميولا خاصة ، تظهر فى مجموعة أعماله ، ولكن الفنان نفسه ليس منعزلا بدوره ، فهو عضو من أسرة كبيرة مكونة من رجال الفن فى الوطن الذى يظله ، وفى الزمن الذى يعيش فيه . ولهذه الأسرة كذلك ميزات وصفات فنية تنعكس فى أعمال جميع أفرادها ، وتنتمى إلى مجموعة أكثر عدداً واتساعاً ، وهى مجموعة الجمهور الذى يحيط بها ، والذى يتفق معها فى الذوق والمزاج ؛ فما رجال الفن إلا صدى نقياً لأصوات الجماهير . وليس هنالك من شك مثلا ، فى أن رجال الفن من قدماء المصريين كانوا يعيشون عيشة مواطنيهم ، فكانوا متفقين معهم فى الآراء والعادات ، وفى الثقافة واللغة ، وفى الدين وفى أسباب الحياة .

وتدلنا متابعة النظر إلى الأمم جميعاً ، وإلى العصور التاريخية المتعاقبة ، دلالة واضحة صريحة ، على أن الصلة قوية محكمة ، وأن الوفاق شامل تام ، بين رجال الفن وبين مواطنيهم . وهكذا فإن شخصية الفنان لا تتكون إلا تحت عوامل الجماعة ، ولا تظهر إلا متأثرة بالظروف التى تحيط بزمانها . وإذا اختلفت الأمزجة وتباينت المشاعر ، فان الفن وحده يجمعها ويوفق بينها ، أو يستخرج منها مجموعة متحدة الشعور والمشارب والأفكار . ولهذا كانت الفنون وسيلة من أقوى وسائل اتحاد المجتمع . وإذا توصلت جماعة ما إلى التفكير بأسلوب واحد ، فقد لا يكون هذا كافياً لأن تتحد رغباتها ، غير أن الفنون وحدها هى التى تصل بهذه الجماعة إلى الشعور بعاطفة واحدة .

والأمر الثانى أن الفن تعبير للحياة ، بل هو تعبير لأسمى نواحيها ، تعبير

للعواطف والمشاعر والذكاء ، تعبير للنفس والحس والعقل ، فهو صورة رفيعة للانسانية . وللفنون جميعاً ، مهما اختلفت ، مصدر واحد تفرعت منه ، فهى تعبر ، أول الأمر وفوق كل شئ ، عن القوى الدفينة فى طبيعة الانسان وحياته .

وعلاقة الفنون بالحياة الاجتماعية تتفرع منها ثلاثة أوجه ، من حيث مصدر هذه الفنون ونشأتها ، ومن حيث نهايتها ، ومن حيث روحها وتكوينها . والشعور الفنى شعور اجتماعى فى أدق معانيه ، هو شعور يرمى إلى النهوض بحياة الفرد ، وإلى إدماج هذه الحياة فى حياة الجماعة . فالفنون ترفع الانسان عن حياته الفردية ، لتصله بالحياة العالمية ، مستعينة فى ذلك باتفاق الحس والشعور . فقد انتقلت السيدة مونا ليزا من حياتها الخاصة إلى حياة عالمية ، وكان فن المصور الايطالى ليوناردو دافنشى هو الذى منحها هذه الحياة الخالدة . وكذلك يرتقى جميع النظارة إلى لوحة « الجيوكندة » هذه فى متحف اللوفر من حياتهم الذاتية إلى سمو الحياة العالمية .

وحواس الانسان أصدق برهان على هذا الارتقاء والسمو . فالذوق والشم واللمس حواس تتصل كلها عن قرب بالحاجيات المادية فى حياة الانسان . أما حاستا السمع والنظر ، فهما حاستان رفيعتان ، لأنهما تتصلان بالقوى السامية فى هذه الحياة . وقد تولدت عن هاتين الحاستين فنون الجمال ، تلك الفنون التى تتجه بالانسان إلى ما وراء الحواس ، وإلى ما هو أسمى منها فى القوى الدفينة من حياته ، وهى الذكاء والخيال والعاطفة .

والفنون تتحلى بالذوق الجميل ، وهى لهذا تشاطر فى تثقيف الجماهير ، وفى ربطها بصلة واحدة ، صلة تتفق فى الاعجاب ، كما تتفق فى الشعور وفى ذلك فضل اجتماعى مرجعه إلى الفنون الجميلة ، فضل تربية الذوق السليم ، وفضل توحيد الشعور بالاعجاب .

وإذا كان الانسان يقترب من الحيوان فى حاجته إلى الأكل والشرب ، وفى تحفزه إلى الدفاع عن نفسه وعن أسرته ، وفى تطلعه إلى تكوين الجماعات ، فانه يرتفع بتفكيره وحده عن منزلة الحيوان . وأوصله هذا التفكير من جهة إلى العلوم ، فوضع لها أصولا وقواعد لا يتفهمها إلا خاصة الناس ، ولا تدركها عامة الجماهير . وقاده تفكيره وخياله من جهة أخرى إلى الفنون يعبر بها عن

الطبيعة ، أسبابها ومحركاتها ، بواطنها وظواهرها ، ويستعين فى هذا التعبير بالعقل والحس معاً ، ويصل إلى ما لم تصل إليه العلوم ، من إرضاء عقول الخاصة ، وتحريك شعور العامة .

فاذا كانت مظاهر الفن ضعيفة راكدة فى شعب من الشعوب ، فذلك لا يرجع إلا إلى أحد أمرين : إما أن شعور الجماهير فيه قد انحطت مداركها إلى درجة لا تطمح معها إلى ما يهزها ، ولا تحتاج إلى ما يحركها ؛ وإما أن الأفكار السامية فى هذا الشعب قد تضاءلت إلى درجة لا حاجة لها معها إلى التعبير والانتاج .

وهكذا يجمع الفن بين تمثيل الجماعة ، عامتها وخاصتها ، ويبين التعبير عن الحياة ظواهرها وبواطنها . ولهذا لا نجد صورة لنهضة أمة أوضح من تلك التى ترتسم فى فنونها ، ولا كيلا نزن به رقيها أدق من آثار فنونها . فلم تنهض أمة إلا كان الفن أساساً لنهضتها ، أو على الأقل ، لم تتم نهضتها إلا بنهوض فنونها .

الفنون الجميلة دعامة الحضارة ، ومرآة النهضة . هى مرآة لنهضة قدماء المصريين ، وهى عنوان مجدهم وفخار عصورهم . فلا يذكر التاريخ مصر إلا تجلت ذكرى فنونها ، ولا يتحدث الناس عنها إلا تصدرت حديثهم عظمة مبانيها ، وإبداع ما خلدته آثارها من صور زاهية ، وتماثيل رائعة ، وتحف ثمينة . أما نيلها وصحراؤها وزرعها ، وأما ملوكها وحروبها وعلومها وآدابها ، فلا شك أنها محط أحاديث الناس ، وموضع إعجاب العالم ، ومرمى تمجيد المصريين ، ولكنها لا تبلغ فى كل هذا من قوة الحجة وبليغ الأثر ما بلغته فنون قدماء المصريين .

وهكذا فالآثار خير ما ينطق من وثائق التاريخ ، والفنون أصدق الشهود إجابة ، وأقواها ذاكرة ، وأفصحها تعبيراً . وهى تنقل من المدنيات أفضل ما فيها من ثمار الفكر ، وأعز ما ابتكرته قرائح العبقرية . وكأن الآثار أحياء تتحدث وتنطق بلغة حقلها شاسع لا حدود له ، لغة يتفهمها الناس جميعاً ، لغة عالمية لأنها لغة الطبيعة .

والتاريخ يحدثنا عن الإغريق ، وعما احتلة الشعب الإغريقى فى العصور القديمة من مكانة سامية بين الشعوب ، وعما يدين له به العالم إلى يومنا هذا فى



نكبة الانسانية يقصها الفنان الفلمنكى بطرس بروجل فى لغة عالمية يتفهمها الناس جميعاً

ميادين العلوم والفلسفة والآداب . ولكن لآثار الإغريق الفنية من الشهرة ولها من البيان ، ما لم يبد بمثل هذا الجلاء فى غيرها من نواحى مدنيتهم . ويحدثنا التاريخ عن عصر النهضة والاحياء، وكيف بدأ العالم به مرحلة جديدة من حياته ، هى المرحلة التى تتصل عصورنا الحديثة بها . وإذا ذكر عصر الاحياء هذا بما شمله من نواحى النهضة الفكرية والعلمية والانسانية والاستكشافية والسياسية ، ذكرت نهضة الفنون فى مقدمة كل هذا ، وذكرت أسماء ليوناردو وميكيل أنجليو ورفائللو فى الصف الأول من مقدمة عظماء رجال هذا العصر .

حلقات المدنيات كلها ، ونهضات الشعوب جميعاً ، ناطقة بما للفنون الجميلة فى حياة الأمم من قوة دفينة توجه هذه النهضات ، وتحيط تلك المدنيات بإطار تربطها على ممر الزمان ، و يكسوها بلوح مصقول براق ، تنطبع فيه صورة نقية منها .

أحمد فكرى

قصة سلامان وأبسال[1]

للشيخ الرئيس أبى على الحسين بن عبد الله بن سينا

(٣٧٥هـ - ٤٢٨هـ)

٢ — تحليل شخصيات قصة سلامان وأبسال

« سلامان : إنسان من العارفين — أبسال : العقل النظرى — زوجة سلامان : القوة البدنية — أخت زوجة سلامان : القوة العملية — الجيش : القوى الحسية والخيالية والوهمية — الطابخ والطاعم القوة الغضبية والقوة : الشهوية . »

قصتنا ذات بطل واحد ، عاش مرة على ظهر الأرض ، حينما تكيفت له ظروف وجوده — ما عثرنا له على أثر فى أيونيا أو إيليا أو أثينا ؛ لأن الإله اليونانى ، كان إنسانيا بكل معنى الكلمة ، فلم تكن ثمة هوة تفصل بين الانسان والله . وابتدأ جنينا فى الأسكندرية ، ثم صار فى عنفوانه فى ظل المسيحية من جهة والاسلام من جهة أخرى . لقد عمر طويلا جدا ، وتضافرت الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، على إمداده بالحياة — والحق أن القوة الوحيدة التى استطاعت أن تصرعه هى الآلة ، بما أثارت من انقلاب فى النظام الاقتصادى والاجتماعى والسياسى . لقد ذهب سلامان إلى غير رجعة ، غير أن صورة صراعه الارادى لن تذهب أبداً ؛ لأن إرادة الانسان الحديث ، للقبض على زمام الوجود بأى معنى من معانيه ، لا تختلف عن إرادة سلامان ، إنسان العصور الوسطى ، إلا من حيث هدف الاتجاه . سنظل دائماً نحاول أن نقبض على شئ ليس فى متناول أيدينا، وهذا هو سر الإرادة ، أو سر الحياة عموماً .

كان رائد سلامان ، فى هذا الطريق الوعر ، هو العقل . إن سلامان ماض إلى الله الذى هو عقل محض ، وفكر خالص ؛ فلتكن الأداة التى تذهب

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٦ (يناير ١٩٤٧) .

بسلامان إلى هذا الهدف ، من طبيعة الهدف . العقل النظرى هو المركب الملائم للوصول إلى مملكة الله ؛ فليفكر سلامان ، وليكن تفكيره فى الدرجة العليا ، وما عليه من بأس إن هو تطور تطوراً طبيعيا مع درجات ذلك العقل ، فيبدأ بأن يتعود نزع الصور المجردة من المحسوسات المشخصة ، وهذه هى الدرجة الهيولانية للعقل النظرى ، ثم تنظم هذه الصور على حسب المقولات الأولى العامة كالمبادئ المنطقية ، وهذه هى درجة العقل النظرى الذى يكون فيها بالملكة ؛ و إدراك هذه الصور المجردة ، بعد أن لاءمت بينها تلك المبادئ الأولى ، هو العقل النظرى فى درجة العقل . كل ذلك طبيعى فى حركة إدراكنا للموجودات . ولكن لكى ندرك الله ، لا بد من درجة أرقى من تلك الدرجات الآنفة ، درجة تكاد تكون لا إنسانية ، وهى درجة العقل المستفاد ؛ فالعقل النظرى فى تلك الدرجة ، يكون على استعداد لتلقى الفيوضات الدينية . إنها على كل حال ، درجة من درجات العقل ، ولكنها غير معقولة . وهذا التناقض ، لا يسوّغه إلا أمر واحد ، هو المواضعات الفكرية التاريخية ، التى كثيراً ما أوجدت أشياء ليس لها وجود . من يدرى ! كم فى حضارتنا ذاتها من الموجودات التى ليس لها وجود !

هذا هو سلامان بعقله النظرى . والعقل وحده ملكة سكونية ، فهو يدرك فقط . ولكننا لكى ندرك لابد أن نريد الادراك وننزع إليه . و إرادة الادراك ، غير الادراك لأنها مبدأ محرك — فلا بد لكى يقوم أبسال العقل النظرى بدوره ، من قوة تحرك هذا العقل . هذه القوة المحركة ، هى زوجة سلامان . والحق أن حركة العقل النظرى ، الناجمة عن تلك القوة ، ليست مباشرة ؛ لأنها فى اتجاهها الطبيعى أمارة بالشهوة والغضب ؛ إنها فى حقيقتها شديدة الشبه بمبدأ « الليبيدو » عند فرويد ، ولكن العقل النظرى ، يتحرك بأن ينفر منها ، ويوجه طاقتها إلى الخير ، أى إلى ما يضاد طبيعتها . فى كياننا تعيش تلك المرأة الفاجرة ، وهى ما تنفك تدفعنا إلى انتهاب اللذات ، وتغرينا بعبادة الحب ، وتملأ الدنيا من حولنا بارتعاشات الشهوة ، ولكن ترويضها على الرغم من ذلك ، فى حيز الامكان . إنها و إن كانت جزءا من النفس الحيوانية ، فطاقتها قابلة لأن تستقل فيما هو إنسانى بحت . وسلامان الذى عقد العزم على الرحلة إلى الله ، لا بد أن يعبئ قواه جميعاً . إنه يريد أن يعرف الحقيقة ، والحقيقة وراء الوراء ، وبعد البعد ، ودونها طريق تكتنفه الأهوال والمخاطرات . وأبسال أخو سلامان ، سوف يقود

الركب ، وزوجة سلامان سوف تعوقه وتحاول تضليله ، ولكنه سيقاومها ، وسينتصر عليها ، و يمضى فى طريقه تحدوه أمانى الكشف ، وتغريه لذة الفتوحات الروحية .

سلامان وزوجه وأخوه. أترانا — لو كنا من أشياع مدرسة التحليل النفسى — نستطيع أن نلاحظ فى هؤلاء الثلاثة ، المكونات الرئيسية لعقدة أوديب ؟ أجل! فسلامان يمثل الأب ، وزوجه تمثل الأم ، وأبسال يمثل الابن ، ولسوف ينشأ الصراع الجنسى بين الابن والأم ، ولكنه لن يمضى إلى حالة يتحقق فيها حصول الابن على موضوع لذته الأولى ، و إلا كان ابن سينا يمثل حركة من الحركات النفسية الشاذة . سيخضع أبسال لمبدأ الواقع ، وينصرف إلى موضوع حب صحيح ، ذلك لأنه سيحب الحقيقة أو الله .

غير أن هذا الحب لن يستغرقه إلى الدرجة القصوى ، إن الحياة أيضاً فى حاجة إلى جزء من هذا الحب . لقد عاش متصوفة كثيرون لم يعبأوا بأمر الأرض فتحققوا بالفقر والافتقار ، ومارسوا الزهد والتقشف ، ووصلوا فى إضناء الجسد إلى درجة فوق الطاقة . أما سلامان ، إنسان ابن سينا ، فكان مايزال معنيًّا بشؤون المجتمع والحياة ، ولذلك ركب فيه ابن سينا قوة خاصة بالعمل ، هى ما يرمز لها بأخت زوجة سلامان . هذه الأخت تمثل القوة العاملة إذن (ولها اعتبار بالقياس إلى القوة الحيوانية النزوعية ، واعتبار إلى القوة الحيوانية المتخيلة والمتوهمة ، واعتبار بالقياس إلى نفسها . من كتاب النجاة) ، ولقد نص الطوسى على تسميتها بالنفس المطمئنة ؛ ذلك لأنه لم يلق بالاً لتلك الاعتبارات الثلاثة ، و إنما قصر نفسه على الاعتبار الأخير ، وفيه تكون تلك القوة العاملة بالقياس إلى نفسها ، وخاضعة للعقل النظرى . ولكننا نلاحظ أن نص الطوسى غير صحيح ، لأنها فى قصة ابن سينا سيكون لها كل تلك الاعتبارات — فلا سبيل إلى تسميتها بالنفس المطمئنة إلا فى حالة ما تكون خاضعة للعقل النظرى . إنها بالاعتبار الأول تهيئ الانسان لسرعة الانفعال كالخجل والحياء والضحك . وبالاعتبار الثانى تستعمل فى استنباط الصناعات الانسانية ، وبالاعتبار الثالث ، تتولد فيما بينها وبين العقل النظرى ، تلك الآراء الذائعة المشهورة ، مثل إن الكذب قبيح والظلم قبيح . . . الخ . . . .

تلك هى المهام التى أفرد ابن سينا لها قوة خاصة فى النفس ؛ فقدكان ينظر إلى

سلامان ، من حيث أنه إنسان فى حاجة إلى التدبير والتوازن الاجتماعى ، والعناية بشؤون الواقع ؛ وهو لاهتمامه بهذا الأمر ، جعل له قوة خاصة فى النفس . إن ابن سينا ، والحق يقال ، معبر حقيقى عن روح الحضارة الاسلامية .

تلك هى الشخصيات الرئيسية فى القصة ، أما الجيش فهو يمثل القوى الحسية والخيالية والوهمية ، وهى جميعاً من أقسام النفس الحيوانية . لقد عرفنا أن زوجة سلامان تعبر عن الجانب الإرادى النزوعى لتلك النفس ، أما الجيش فيمثل الجانب الادراكى فيها ، فيحس أو يتخيل أو يتوهم . ولسوف يطول الأمر بنا ، إن نحن أخذنا فى تحليل كل قوة من تلك القوى ، وموضوعها من الدماغ ، ووظيفتها الخاصة فى الإدراك ، وإنما نكتفى هنا بأن نقول إنها جميعاً قوى تتضافر وتتفرع على الإدراك الحسى .

وهنا ينتهى تحليل شخصيات القصة ؛ لأن الطابخ الذى يمثل القوة الغضبية ، والطاعم الذى يرمز للقوة الشهوية ، ليسا فى حقيقة الأمر إلا القسمين اللذين تنقسم إليهما النفس الأمارة أو زوجة سلامان ، ولسنا ندرى على وجه الدقة لماذا أفرد لهما ابن سينا دوراً خاصا فى القصة ، مع أنهما مضمران فى زوجة سلامان ، ودوريهما مضمران فى دورها . ولكن لعل ذلك كان لابراز أهمية هذه القوة بفروعها ، فلم يكتف ابن سينا بتمثيل القوة العامة ، وإنما مثّل أيضاً فروعها الخاصة . فاللذة فى الحقيقة هى المحور الذى تدور حوله كل قوى النفس الأخرى ، ولعل ابن سينا فى ذلك غير شاذ ولا مبالغ .

ها نحن أولاء . قد استقصينا كل قوى النفس عند ابن سينا ، ما عدا النفس النباتية لأنها نفس غير ديناميكية ، فلا تصلح أن تكون فرداً من أفراد قصة تقوم على الحركة . ولعلنا لاحظنا — على الرغم من ذلك التحليل — أن النفس واحدة عند ابن سينا ؛ إن كل قوة يمكن أن ترد إلى التى فوقها ، حتى لا يبقى فى نهاية الأمر إلا سلامان . . . الانسان الحى النزاع المتحرك .

٣ — عرض قصة سلامان وأبسال

« . . . والنفوس البشرية إذا نالت الغبطة فى حياتها الدنيا ، كان أجل أحوالها أن تكون عاشقة مشتاقة . » (إشارات) .

يقول ابن سينا : « إن قوى النفس لا تخلص عن علاقة الشوق ، اللهم إلا فى الحياة الأخرى » . فأنت حى لأنك محب مشتاق ، وستظل حيا ما ظللت محباً مشتاقاً . والشوق يدفع ، ويجعل للحياة معنى بوساطة الحركة التى يغرى بها ، ويحض عليها . وسلامان مشتاق ، وسيمضى به الشوق رويداً رويداً ، إلى درجة العشق . . . والعشق عند شيخنا الرئيس ، هو الابتهاج بتصور حضرة ذات ما . فالعشق حالة ستاتيكية سكونية ؛ لأنه يكاد يكون نهاية الرحلة إلى الله — فى حين أن الشوق حالة ديناميكية حركية من شأنها أن توالى الدفع والتحريك .

والآن نجد سلامان العارف ، قابعاً فى عباءته الفضفاضة . ولعله أن يكون شاخصاً بصره إلى سماء غامضة . ومن يدرى أيضاً ! لعل بعض الموسيقى كان يطوف فى المكان . إن اللحن كان دائماً وسيلة من وسائل الصوفية ، ومعيناً لهم على إدراك الحق ، والتحقق بالوجد والعشق . ولكننا لا نريد أن نقف أنفسنا على منظر سلامان . إنه من العارفين ، وهو موصى أن يتروّض حتى يصل إلى الحد الذى يعتريه فيه الوجد ، ويستبد به الوقت ، دون أن تظهر على وجهه دلائل الوقت أو الوجد . سنتسلل إذن إلى نفس سلامان . إنها مسرح كبير توافرت فيه كل صنوف الحركة ، وفى مكان بارز يسطع النور على امرأة . إنها فاجرة خليعة متهتكة ، وهى شهية لذيذة مغرية . . من يدرى ! لعلها أن تقوم ، وتمضى راقصة الردفين ، شماء الثديين . إنها زوجة ، ولكنها فاجرة ؛ فما عليها من بأس إن هى أغرت ذلك الشاب المليح أخا زوجها . إنها مشتاقة ، يكاد لهيب الشهوة أن يتفجر من جسدها ، فلقد أعدت العدة ، ونصبت الشرك للايقاع بهذا الشاب . قالت لزوجها : اخلطه بنا ، ودعه فى بيتنا ، فنستفيد من علمه وأدبه ، ونقوم نحن على تنظيم حياته وقضاء حاجاته . وأذعن الزوج ، وجاء بأخيه إلى بيته . فاذا بالزوجة تنهض ، تدفعها قوة الشوق لتحقيق لذتها . وإذا بها تقبل على أبسال ، وتظهر له مفاتن جسدها ، وتكشف له عن معين اللذة الذى يترقرق فى لحمها الملتهب . ولكن أبسال يرتد ، بارادة بتارة حاسمة . إنه لن يتخلى عن أخيه العارف الذى يعلم عنه أنه فى سفر شاق إلى الحقيقة البعيدة . إن (أول درجات العارفين ما يسمونه هم الارادة ، وهو ما يعترى المستبصر باليقين ، أو الساكن النفس إلى العقد الايمانى فى الرغبة فى اعتلاق العروة

الوثقى ، فتحرك سره إلى القدس ، لينال من روح الاتصال ، فما دامت درجته هذه فهو مريد . إشارات .)

ولو أتيح لنا أن ننظر فى وجه سلامان ، فى تلك اللحظات ، لرأيناه زامًّا شفتيه ، مصلوب النظرات ، لاهث الأنفاس . لقد عقد العزم على اعتلاق العروة الوثقى . وهذه الحركة من غير شك ليست عشقاً ، كما قال الطوسى ، لأننا عرفنا العشق . إن تلك الحركة فى الحقيقة نوع من شوق الإرادة الخيرة للنيل من روح الاتصال .

سلامان الآن مريد . ومن هنا ذهب يحقق واجبات المريد ، فراح ليخى ما دون الحق عن مستن إيثاره ، ويخضع النفس الأمارة للنفس المطمئنة ، ويلطف سره للتنبه .

ولنتسلل الآن مرة أخرى إلى نفس سلامان ، لنشهد مصرع الزوجة الفاجرة . أترانا نجدها مضرجة بدمائها ، وقد خملت فيها جمرة الحياة ؟ كلا ! فانها لتجمع قواها جميعاً ، وتضم أعضاءها ضما ، وإنها لتستشعر فى ذاتها الحياة موفورة دافقة ، فاذا بها تتلوى كالأفعى ، لتوقن أن الحياة ما زالت تدب فى جسدها . وإنها لتنهض فجأة ، وفى عينها يتألق بريق عجيب مخيف ، ثم تمضى ، وكأنما تريد أن تذيب الأشياء بنظراتها النارية . . . وهنا تلمح أختها عاكفة على نوع من التأمل ، وقد ملأت البراءة عينيها ، واكتسى وجهها بقناع من سذاجة الأطفال . وفجأة تلمع فكرة فى رأس الزوجة الفاجرة . إنها تريد أن تنتقم ، ولسوف يكون انتقامها مروعاً هائلا ، ولسوف تحطم كبرياء أبسال تحطيما ، وتنال منه كل ما تشتاق إليه . فلتذهب إذن إلى زوجها تغريه بتزويجه أخاه من أختها . إن ذلك يجعله أوثق علاقة بالأسرة ، ويسبغ على وجوده معهما شرعية مأمونة . وتعرض الأمر على أبسال ، فلا يمانع فيه ؛ فانه مع تلك الزوجة الصالحة التى تعنى كثيراً بشؤون المنزل والحياة ، يستطيع أن يبلغ حياة أكرم وأيسر . إن اتحاد العقل النظرى ، بالقوة العملية ، من شأنه أن يجعل مصالح الواقع على خير حال .

ولكن الزوجة الفاجرة ، ما كانت لتدع الأمر يمضى فى ذلك الطريق الخير . ففى ليلة الزفاف راحت فى جنح الظلام تتسلل إلى فراش أختها . كان الظلام مخيما ، والسكون جليلا رهيباً ، وكانت زوجة سلامان فى فراش أخيه تلهث ،

ويكاد جسدها يتصبب شهوة ولذة . لسوف يأتى الآن أبسال ، ولسوف يظنها زوجه ، فيطلق نفسه وجسده ، يجوسان فى أحضانها الدافئة . ها هو ذا أبسال مقدم بخطاه الوئيدة ، وقد أخذت قطع الأثاث تبرز فى أنحاء الحجرة المظلمة ، وهو يتحسس طريقه بينها ، قاصداً مخدع العروس ؛ إن الشهوة فاغرة فاها ينخلع له القلب رعباً وخوفاً .

أما سلامان القابع فى عباءته الفضفاضة ، فيرتعد و يرتجف ويتصبب عرقاً . لقد راح يقدم على الشر ، ويخوض فى الخطيئة ، وهو يخدع نفسه بأنه مقدم على الخير ، وواصل إلى الفضيلة . ما أكثر ما نرتكب الشر ، لأننا قنعناه بصورة الخير ! فان شارب الخمر يقول لك إنه يتداوى بها من آلامه . والخلاص من الألم حركة طبيعية ، ولكن الخلاص منه باغراقه فى بحر من الخمر حركة خداعة ، فيها نوع من إضفاء الخير ، على ما هو شر ؛ هذا إلى ما فى ذلك من استهتار بقيمة الألم ، وزراية بجوهريته وأصالته . إن سلامان يعانى مثل تلك الأزمة ، فان عقله النظرى يكاد يهوى بين براثن القوة الشهوية ، وهو يخدع نفسه بأن ذلك حركة خيرة لا غبار عليها . إنه فى حالة سراب روحى ، لعلها أن ترجع به تلك الخطوات التى بذل الجهد الجهيد لقطعها فى طريق الله . فتراه لذلك يرفع ذراعيه إلى السماء ، يطلب العون ، ويستدر الرحمة ، وهنا فقط تتهلل أسارير وجهه بنور إلهى ، وتتألق على لحيته البيضاء أنوار قدسية . أجل ! لأن أبسال ، كان قد وصل إلى فراش عروسه ، وأوشك أن يهم بزوجة أخيه ، وكادت تلك الزوجة الفاجرة تنال مأربها وتشبع لذتها . لقد مدت إليه ذراعين عاريتين ، وأطلق لها هو جسدا مشتاقا . . . وحينما كان على حافة الهاوية انبلج برق لامع فى ثنايا الغيم المظلم فأراه وجهها ، فارتد . لقد همت به وهم بها ، لولا أن ذكر برهان ربه ، فأنقذ سلامان بخطفة إلهية سنحت له من جانب القدس .

لقد رأينا سلامان وقد وصل إلى الدرجة الأولى من مقامات العارفين ، فكان ينحّى مادون الحق عن مستن الايثار ، ويطوع النفس الأمارة للنفس المطمئنة ، ويلطف سره للتنبه ، وهو الآن يصل إلى الدرجة الثانية ؛ فانه (إذا بلغت به الارادة والرياضة حدًّا ما ، عنّت له خلسات من اطلاع نور الحق عليه ، لذيذة كأنها بروق تومض إليه ، ثم تخمد عنه ، وهو المسمى عندهم أوقاتاً . . . إشارات .)

وإذن فما يزال سلامان ، سائراً فى طريقه السليم إلى الله . ولما كانت ذكرى الخطيئة التى كاد يتردى فيها ، تعذبه ، أخذ يسرى عن نفسه ، فحشد جيش الحواس ، وذهب يغزو مملكة الأرض ، ويدبر شأنها ، ويقيم ما اعوج من أمرها . فهو بعقله النظرى يستشرف السماء ، وحينما يخضع الحواس لنفسه العاملة ، وهى النفس المطمئنة لأنها خاضعة بدورها للعقل النظرى ، يستطيع أن يدبر الأرض ، فالقوة النظرية إذن ، هى ملكة تفتح السماء والأرض جميعاً ، وتخضع الشرق والغرب كليهما ؛ فلا بأس أن يشبهها ابن سينا بذى القرنين الذى ملك الخافقين .

ولسنا نريد أن نفصل الأمر مرة أخرى ، فى عودة الزوجة الفاجرة لاغراء أبسال ، فانها حركة شبيهة بالحركة الآنفة تماماً ، ولكن ذلك لا يسوّغ عدم ذكر الطوسى لها . إن تلك العودة هامة للغاية ؛ لأنها تبين لنا إلى أى مدى كان ابن سينا يدرك القوة الشهوية التى تجتاح الانسان ، وهى من ناحية أخرى ، تتيح فرصة جديدة ، ليترق سلامان ، بارتداد أبسال عن تلك المرأة ، فى سلم العارفين درجة أخرى .

وعلى أثر هذه الحركة الثالثة ، يعلم سلامان أن القوة الشهوية ما زالت تعيش ، فيقسو على نفسه فى الرياضة ، ويخضع جسده لكل صنوف الحرمان . إن الناظر إلى سلامان الآن يراه وقد هام على وجهه ، نحيلا هزيلا ، قد نضا جسده ، وكأن يتجرد منه . إنه ولهان مشبوب ، والسماء من فوقه تنزاح عنها الغيوم قليلا قليلا ، وهو ما ينفك يصوب إليها بصره وبصيرته ، يريد أن يكشف السر ، ويطلع على المكنون ، ويهتك حجاب المجهول . إن الفلسفة ، كما يقول أفلاطون ، هى ممارسة الموت . إن الذى يصل إلى قمة الحياة ، يشرف على هاوية الممات . ولقد ذهب سلامان يمارس الموت فعلا ، ولكن الموت الذى كان يعانيه إنما هو موت الجسد ، والبقاء بالله يكون بالفناء بالجسد ؛ ذهب لا الألم يثنيه ، ولا بعد الغاية يوئسه ويضنيه ، بل مضى وهو الانسان العاقل ، يريد أن يحصل على اللامعقول ، والحق أنه لم يكن عاقلا بكل معنى الكلمة . وكيف يكون عاقلا وقد تعطلت حواسه ، وخمدت شهوته ، واندثرت قواه العملية ؛ بل إن قوته النظرية ، تكاد تكون هى أيضاً قد توقفت . هنا فقط ، يسقط الصوفى الذى يعشق الله ، يسقط إعياء وهياماً . . . فاذا بمرضعة من حيوانات الوحش ، تبرز من بعيد ، وتهرع إليه ، وتدر بين شفتيه شراباً شهياً ، لعله أن

يكون من خمرة الألوهية . إنسان ابن سينا الآن مهزول البدن ، ولكنه مبتهج الروح ، بل هو مبتهج الروح لأنه مهزول البدن ، وهو خالص للنيل والاتصال ؛ فان فيض الكمال عليه الذى يمثله ما درّت عليه تلك المرضعة من شراب ، يدل على أنه قد انتقل من مرتبة الرياضة ، حيث كان مريداً ، إلى مرتبة النيل ، (فصار سره مرآة مجلوة ، ودرّت عليه اللذات العلا ، وحينئذ يفرح بنفسه لما بها من أثر الحق ، وكان له نظر إلى الحق ، ونظر إلى نفسه ، وكان بعد متردداً . إشارات .)

أترى سلامان قد وصل ؟ لا ! فمازال له نظر إلى نفسه ونظر إلى الحق . والمحبوب يأبى أن يكون له شريك ، وألا يؤثر وحده بالحب . وعاشق الله ، هو عاشق الوجود ، والوجود هو الكل . فلا بد لسلامان من أن يمضى خطوة بعد ذلك ، فيكون نظره إلى نفسه ، لا من حيث هى نفس ، ولكن من حيث هى عاشقة ، وحينئذ لا يكون ثمة شئ إلا الله . وهنا تتحقق الوحدة ، لا نقول وحدة الوجود ، كما قال ابن عربى ، بل وحدة الشهود كما قال ابن الفارض .

ولكن سلامان ، على كل حال ، لم يكن من المتصوفين ، بل كان من العارفين ، والعارف عند ابن سينا ، تقوم حياته أصلا على العقل والتأمل ، لاعلى العاطفة والإرادة ، كما تقوم حياة الصوفية الخلّص . والعقل معتدل متزن ، يقبل الحلول الوسطى ؛ ولذلك أخذ سلامان ، وقد رأى حاله من اضطراب فى شؤونه الدنيوية ، وتعطيل لبقية قواه النفسية . أخذ يعنى بتلك القوى من جديد ، وعاد ينظم حال رعيته ، ويصلح ما اختل من أمرها .

فى سلامان الآن عقل نظرى نهكه طول التأمل ، وأضناه الصراع الطويل مع القوى الشهوية ، و برّح به العشق ، وأضعفه مرور الزمن . أو ليست هذه فرصة لأن تكيد له النفس الأمارة من جديد ؟ إنها ضربة أخيرة ويقضى على أبسال العنيد المتكبر ، وتنتصر الزوجة الفاجرة ، وتحقق الأمنية التى عاشت طوال حياتها تحاول تحقيقها . إنها لن تلجأ فى هذه المرة إلى أختها ، ولن تذهب بنفسها ، وإنما ستلجأ إلى أشد الناس ولاء لها ، وهما الطابخ والطاعم . وما كانت فى حاجة إلى أن تغريهما أو تمنيهما ؛ إنهما رهن إشارتها وطوع أمرها ؛ فما هى إلا أن تأمر حتى يذعنا لأمرها . وقد أمرتهما فعلا بدس السم لأبسال . لقد تعرض

سلامان لمؤامرة نفسية أخرى . أتراه يهوى إلى الخطيئة بعد أن فر منها مراراً ، ووصل فى مقامات العارفين إلى درجة النيل ؟ أترى كان ابن سينا من التشاؤم بحيث يجعل كل هذا الجهاد والصراع يذهبان عبثاً ، فيموت الانسان ، وهو مكبل بأغلال الخطيئة ؟ قال الطوسى فى شرحه للقصة ، باضمحلال أبسال نتيجة للسم الذى دسته له الزوجة بمعاونة الطابخ والطاعم . وسيكون آخر عهدنا بسلامان ، وجهاً مربدًّا ، وقبضتين تهددان السماء ، وقدمين تغوصان فى مستنقع من اللحم والدم !

كلا ! ما كان ابن سينا ليجرؤ على إنهاء القصة بتلك المأساة المروعة . إن خطة القصة موضوعة من قبل فى مقامات العارفين ، و إن السير الطبيعى لبطل القصة لينأى به عن تلك الخاتمة . لقد اضطرب الطوسى هنا ، وحسب أن الزمان محطم لكل شئ ، حتى القوة النظرية ، مع أن هذا يتعارض مع مذهب ابن سينا فى النفس عامة . لقد بلغ العقل النظرى فى درجة ترقيه ، إلى أن أصبح عقلا مستفاداً ، تشرق عليه المعقولات المحضة من العقل الفعال . وهو لأجل ذلك يصبح شبيهاً بذلك العقل الذى رمز له بحى بن يقظان . وحى بن يقظان لا يموت أبداً ، ولا يضمحل البتة . إنه (فى طراوة العز ، لم يهن منه عظم ، ولا تضعضع له ركن ، وما عليه من المشيب ، إلا رُواء من يشيب — فى أسرار الحكمة المشرقية) . لقد كان العقل النظرى الانسانى ، دائم الشوق إلى ينبوع الشباب، حيث الحسن حجاب الحسن ، والنور حجاب النور ، وحيث توجد إمكانية الخلود . إن حى بن يقظان هو الذى يفيض على أبسال العلم والخير والكمال ، وعنده ينبوع الشباب . فهل يدرك الهرم أبسالا فتقتله الشهوات ، وقد كاد يمرق إلى الدرجة الأخيرة من درجات العارفين؟ وقصيدة النفس لابن سينا ، تقول بما لا يدع مجالا للشك ، إن النفس فى جزئها النظرى ، خالدة ، لا تندثر ولا تضمحل . ولذلك فان النفس الأمارة ، بتآمرها مع القوتين الشهوية والغضبية ، على دس السم لأبسال ، لا تعنى إلا أن ابن سينا قد قدم بهذه الحركة السلبية الأخيرة ، ليتمكن من عرض الحركة الإيجابية الأخيرة . و إذن فلن يكون آخر عهدنا بسلامان ، تلك الصورة التى تكشف عنه ساقطاً فى حمأة الرذيلة ، و إنما ستكون صورة أشبه بصورته ، حينما كاد عقله النظرى : أبسال ، يخضع للزوجة الفاجرة فى ليلة العرس . وهنا يذهب سلامان يستوحى ربه ، ويستدر نوراً

يكشف له عن حقيقة تلك المؤامرة الجديدة . وهنا أيضاً ينكشف له الحق ، ويتضح له الأمر . يدرك سلامان بوحى من الله ، أنه كان مسوقا إلى الشر ، وأنه يجب أن يتخلص نهائيا من حواسه ، فلا يلبث أن يقضى عليها قضاء مبرماً . ومجرد الاستيحاء دليل على أن النفس النظرية ، ما تزال تعمل فى منتهى قوتها ؛ لأن هذا الاستيحاء الارادى هو درجة سامية من مقامات العارفين . لقد كانت معارفة الحق تعنّ له أحياناً ، أما وقد صارت تعن له متى شاء ، فتلك درجة سامية من درجات المعرفة الفيضية .

لقد تركنا سلامان ، فى مرتبة النيل ، يتردد بين نفسه وبين جناب القدس . أما بعد أن هزم النفس الأمارة هزيمة لا رجاء بعدها ، فلا بد أنه (يغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس ، وإن لحظ نفسه ، فمن حيث هى لاحظة ، لا من حيث هى بزينتها ، وهناك يحق له الوصول . إشارات .)

لقد هجر سلامان حواسه وقوتيه الغضبية والشهوية ، وفوض لغيره أمر ملكه ، أى إنه هجر استخدام قوته العاملة أيضاً ، وفرغ هو بكل قوته النظرية للوصول الذى أصبح حقًّا له . أتراه وصل ؟ من يدرى !

إن التحقق التام بالله على هذه الأرض غير ممكن . وقديماً أخبرنا الحلاج بأن الفراشات ، طفقت تحوم حول المصباح إلى الصباح ، وعاد بعضها يخبر عن نوره ، وعاد بعضها الآخر يخبر عن حرارته ، وبعضها الأخير ، ما عاد ، ولا أخبر بشئ ؛ لأنه احترق فى النور .

ما كان سلامان ، إنسان العصور الوسطى ، يعلم أن الكواكب من تراب ، وأن السماء من غازات ، وأن فكرة الله من خلقه وإبداعه . ولكن ، وعلى الرغم من ذلك ، فان إرادته الطامحة ، جديرة بالاعجاب ، لأنها إرادة حققت إمكانيتها ، وتحققت بأصالتها وطبيعتها ، فأرادت كل شئ حتى اللامعقول ، أو بالأحرى اللاموجود .

عباس أحمد

من هنا وهناك

أنستاس مارى الكرملى

[الدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء]
للحسن البصرى

هذا راحل ثالث أشيعه فى هذا المكان ولم تمض سنة . هل أدع الفطنة فى اتقاد والعلم فى مكنة والسعى فى جد يذهبن ولا أتحسر ولا أتأوى ؟

شيخ أسبل اللحية على هواها ، فانتثرت وكثفت وطوقت أسفل الوجه بهيبة ذكرتنى أول ما أخذت عينى بالجلال الذى يحف أولئك الآباء الموصوفين فى التوراة المصورين فى الكتب المسيحية الشرقية . وكان يزيد فى تلك الهيبة ثوب الرهبان الكرمليين على سنا جبته ونضفضته . وكان الأب الكرملى — رحمه الله — مع جلاله وادع النفس ، حلو المعشر ، لطيف الاشارة ، كثير التندر ، إلا إذا وثب إليه غامز أو غاظه منازع ، فتراه كأنه الفارس الذى ما ترك لونا من ألوان السلاح إلا شده إلى جنبه ، فهو الضارب الرامى والطاعن القاذف . ولا تهدأ له يد حتى يسقط خصمه وحجته مفلولة .

ولعل هذا البأس انحدر إلى طبعه ، فغلب على حاله ، من جبلة أجداده وهم أهل جبل ، أشداء . فقد ولد الكرملى سنة ١٨٨٦ فى بكفيا من قرى لبنان ، فى بيت لامع . ثم هبط به أبوه إلى العراق ، فأقام هناك وترهب ، وتلق علوم الدين فى بلجيكة خاصة .

انقطع الكرملى للغته الكريمة ، فأكب على درسها حتى حذقها أى حذق . وقد سارت بصارته بمتن اللغة إلى حد ما أعرف أحدا من المعاصرين بلغ إليه . وقد اتفق لى الحين بعد الحين أن أثاقفه فى هذا الباب فدلنى على أسرار ونبهنى إلى دقائق . وكان أسلوبه محكما متينا سليما ، إلا أن رهافة الأديب المنشئ كانت تزايل قلمه أحياناً . وأما علمه فكان غاية فى الرسوخ ، ألا ترى إلى تحريره النصوص المطوية مثل الجزء الثامن من « الاكليل » للهمدانى (بغداد سنة ١٩٣١) ومثل الكتب الأربعة التى جمعها فى « النقود العربية وعلم النميات » (القاهرة ١٩٣٩) ومثل « نخب الذخائر فى أحوال الجواهر » لابن الاكفانى (القاهرة ١٩٣٩) . وكان إلى جنب التنقير والتحقيق فقيهاً فى أوضاع اللغة وصيغها وتراكيبها . وحسبه دليلا على ذلك كتابه الفريد النافع « أغلاط اللغويين الأقدمين » (بغداد ١٩٣٣) ، فلا يقدم على معالجة مثله سوى إمام .

ومما أخرج الكرملى فوق هذا عدد وافر من المباحث والمقالات فى موضوعات شتى يتقدمها الحيوان والنبات ، نشرت فى مجلة « لغة العرب » و « المشرق » و « المقتطف » و « مجلة المجمع العلمى العربى » بدمشق ، « ومجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية » وذلك إلى جنب الصحف السيارة مثل « الأهرام » . وتمتاز هذه المباحث والمقالات بالطرافة والمتانة مع سعة الاطلاع وإن اتفق أن يجرى فيها الاشتقاق مجرى قد يكون مستغربا .

وكل ما أذاعه الكرملى للناس إنما يمضى

إلى تكريم اللغة العربية وتعزيزها وتكثيرها وتدبيرها أحسن تدبير. ذلك فضل عظيم، وقد عرفه ذووه يوم أوفدت بغداد الكريمة هذا الزاهد، بلحيته وثوبه ونعله إلى مصر ليجلس عن علماء العراق كافة فى مجمع اللغة العربية. وإن أنسى استنكار بعضهم لقدوم الرجل، وفى أنفس بعضهم ظلمة ظالمة.

فى ذمة أبيك الذى فى السماء أيها الشيخ الصالح! سعيت فنفعت وزهدت فظفرت. ولعل ما خلفت من نفائس مطوية أو منتثرة ينشرها ناشر ممن يعرف فضلك ويحب لغتك، أو يجمعها جامع من تلامذتك وفيهم نفر من أعلام بغداد: فقد كنت حدثتنى فيما حدثتنى عن معجمك الوافى واسمه «المساعد». وأما مخطوطاتك ومطبوعاتك ففى العراق أو فى مصر من يقدرها فيحفظها إن شاء الله . . .

فالى رحمة ربك يا من جعل لى من نفسه موضعاً وآثرنى بعطفه وإن قطع ما بينى وبينه آخر أيامه، فحزننى مرضه ... يسر العلى لك طريق أنسه!

بشر فارس

خطاب إلى الطفل الناشئ فى القرية

إنى جاوزت جانب البحر ذات نهار، وحال بينى وبينك الموج . . . وجاوزت وسط الحياة ذات نهار، وحال بينى وبينك النهار والليل، ولكن سبل الذكر لم تنقطع بينى وبينك . . . فى ما تسمع الأرض من نبأ أثر من الحديث وظلال من المودة تجمع الشتيتين. والفكر الدائم الدائب يسرى بك إلى الأرض التى تحملنى، وأرتد إليك بقلبى من أمل ومن إشفاق، واعتز بما حملتنى من رجاء يوم ينزل بى الكلال، وتأمل فى ليل الاعياء نجوم سبيلى . . . والتى لم تملك حيلة من المقادير والبعد ولم يوصد قلبها عن الدعاء والذكر، عرفت أن خير ما ينفع المحب رجاء، فأجابت حديث ذكرى بدعاء:

«ألا فلينعم عليك الله بضياء ينير سبيلك
وبأمل يدفعك إذا هيض عزمك
وبكل سعادة نزلت بقلب . . .

عرفت عند مراقئ الحياة أن ثراء النفس إن آمنت به النفس ذكر جميل، وأمل يرسله إليك فى مجاهل الحياة قلب سليم، وحكمة تهتدى ببصيرتها عند الذى تلق من الاحداث . . .

ولا يدرك الذكر والأمل والحكمة بصر وهى التى يسرت كل امرئ إلى قدره.

ولم أبصر فيما تحدثنى من هذه الديار أثراً سعد به الانسان حينا من الدهر، حتى حدثتنى النفس أن آتيك به أو بأحسن منه. ولم أمعن فيما علمت الحكمة من آثار سعد بها الأحياء زماناً حتى أعددتها ذخراً أقدمه إليك . . . وكأن كل ما أسمع أحمله إليك . . . وما كان ذلك أدباً ولا كذبا من القول، وإنما هى فطرة ركبت فى خلق الأحياء . . . وأنا أكاد أومن أن فى الانسانية أواصر وقرابة وأرحاما لا تنقطع، حتى يحمد الانسان ما خلق الله. أو يرضى الانسان لنفسه الشقاء . . . وللأرض التى نبت منها كل حى رحم وقرابة.

وما ينكر منكر نعمة هذه الشجرة التى ترى والتى تهتز أغصانها من النسيم، ويغرد فى أحضانها الطير . . . وتسكن من حولها الأغنام والأنعام. عند هذه الشجرة يهبط فكرى، فأرى شيوخكم يتحدثون بما حفظوا من أسرار الحياة . . . وهل أباحت الحياة سرها لأحد!

ومنذ غدوت من أهلى أسأل عن ضميرها كل كتاب فلم يغن الكتاب شيئا ، وركبت لمعرفتها كل صعب فلم أجد على الأرض غنى ... وحسبت حين حملنى المقدور إلى ما أجهل أن أسارع إليك بما أجد من سعادة وهدى .

لا سبيل إلى أن أحدثك عن ضمير الحياة ، فان حدثك به أحد فقد عرف شيئا وغابت عنه أشياء وسيفضى إليك ببعض العلم هذا الكتاب الذى تنشر صحفه على الأحياء كل نهار ، والذى يتلقاه الأحياء سجودا فى مشرق الشمس وسجودا فى غروبها . وسيفضى إليك ببعض العلم نجوم الليل ونور النهار ، وتفضى إليك الأرض ببعض العلم حين تأخذ زينتها وحين تتجرد . ويفضى إليك ببعض العلم يقظة الصبح ونوم المساء . . . ومنذ دبت على الأرض دابة نشر ذلك الكتاب على الناس ولم يقرأ الناس إلا ظاهرا لم تتجاوزه عقولهم ، وآمنوا أن من وراء ذلك يداً استمسكت بهذا الضمير لا تسلمه لأحد . . .

وما يملك أحد أن يتمنى لك أمنية أسعد من أن تقرأ الطبيعة عليك كتابها كل يوم ، فتعقل آثارها إبهاما ووضوحا وأنت سليم ... وإذن لقرأت جمالا ودينا وحكمة ، وآمنت إذا اكتسبت فضيلة العمل والوفاء بما آمن به الصالحون الذين لم يقرءوا حياتهم سوى حديث الزهر والماء والأنغام ولم تجعل السماء آمالهم سوى الخير . فكانوا فى حياتهم رجالا عادلين يتقون الله ، فأنبتت لهم الأرض نباتا طيبا ، وحمل لهم الشجر ثمرا شهيا ، ورمى لهم البحر بخيره ، وأحاطت بهم ذرية سعيدة طيعة .

فهل من سبيل إلى أن تعصم طفولتك من آفات الحياة . . . إنه لا يحل لأمة أنبتتك وأن تنسال صبيا وأنت أعز ما تملك الأمم . . . ومن يعجل به الفقر منكم فينفى من الأرض التى حملته ليخدم كالعبد فى منازل الأغنياء ، ولا يغرس الأرض ولا يقرأ كتابها . . . ومن يعجل به الحرمان صبيا إلى آفات المصانع فيفسد ترابها وتنيه . . . ومن لا يعصمه منكم عاصم فيهيم طفلا فى كل سبيل . . . ومن تدركه هائما جائما آفات الفساد كان إثماً ارتكبته الجماعة . ربما تهذبك الجماعة إن اضطربت موازينك بالسجون . . . وحينئذ يحق لك أن تذكر ضمير الجماعة بقول العرجى:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

فانك ثروة إن تولت قدرها أمة رشيدة جعلت منك طبيبا وخطيبا ومعلما وجنديا ورجلا سعيداً ، وباهت بعقلك وجمالك الأمم . وكم من أمة تتمنى لو كنت من أبنائها ، وإذن لآتتك خيراً وفضلا كبيراً . فلأقرانك فى بلاد أخرى حدائق أطفال . وسنت لأقرانك قوانين تحميهم من الجهل والفساد والفاقة . ولأقرانك تنافس المتنافسون من الفلاسفة والحاكمين ، وانصرفت إليهم أمم بكل آمالها . ولأقرانك فى الأساطير قديما نزل أبولون إلى الأرض ومكث راعيا بين الرعاة ، وكانوا قبلئذ جاهلين فطربوا بنايه وعلمهم جمال الزهر ودورة الفصول وما حولهم من آيات الطبيعة ، فأخذ الرعاة بفنه ، فانقلب كل كوخ موئلا للسعادة والفن والفرح ، واستأثرت بعدها هذه الأكواخ بما عز على قصور الأغنياء .

إننى أخاف عليك من حياة هذه المدنية التى لم يسعد بها قومها ، والتى زودت الانسان بقوى فنى بها الانسان ، وأمست المحبة كلمة يتحدث بها كتاب ، وأغنت الصناعة الانسان عن الانسان ، وقطعت الأرحام ، وحجزت الانسان فى حجازها ، وجعلت القرابة بين الناس قرابة رياضية بحساب ، وأمست هذه المخترعات أمة فى كل بيت ، وأمة فى كل طريق ، وأمة فى كل عقل . . . وأمة تسمى

فى الأرض وتجرى فى السماء . وتعتدى هذه الأمة على الابرياء ، وتكذب كما تكذب الاماء ، وتخدع كما تخدع الاماء ، وتنتقم انتقام الاماء ، وأملت على الانسانية سياسة الاماء .

وقد حسب الانسان يوما أنه سيد هذه الأمة يسخرها كما يشاء ، وتطيعه إن هدم بها ملكا أو غزا بها أرضا ، وتمتع بها دهراً متاع الغرور . ثم تنكرت هذه الأمة لسيدها ذات نهار فأكلته ، ولم تفرق بين صديق وعدو ، وحجرت الانسان هلعاً فى بطون الأرض .

وهذه الأمة تتزين للانسان بزينة ظاهرة من أدب ظاهر ، وحديث مصطنع ظاهر ، واختارت ثراء المال وأمسى ما آمن به الأولون حديث خرافة . ستسمع يوم تعقل قبل أن تبرح الأرض شيوخا يذكرون المروءة والدين والعدل والاحسان . ولا تعرف مدنية الصناعة من هذه الفضائل إلا ما تحدث به الكتب ، ولا يتحدث بهذه الفضائل ساسة هذه المدينة إلا حين يريدون أن يحلوا حراما أو يحرموا حلالا .

وسيكفر الانسان بما آمن به حينا ، ويفر بنفسه إلى الدين والفضائل الأولى ، وإلى الحرث والنسل ويختار سعادة الخير . وقد عرف الأولون سبيل هذا الخير فى تعليمهم . . . إنما هى حديقة يزرعها الحكيم وتلاميذه فى حر الشمس وبين يدى الماء والزهر ، وتنمو أجسامهم بالرياضة ، وعقولهم بالحكمة ، وتتغذى نفوسهم بالقول الحكيم الرصين من الشعر ، وتسمو للموسيقى بعزمهم وآمالهم . ويتعلمون أن غاية السعادة الفضيلة ، وأن الفضيلة سعادة فى نفسها ، وأن كل شرف فهو خير ، وكل عار فهو شر ، وما بينهما احداث لا يقيم لها الانسان وزنا .

إنى أخاف عليك ، بعد الآفات والجهل ، أن يعلمك الذين دانوا بدين الأمة والذين يعلمون البطالة والفراغ ، وهما مرتع خصب لسائر العلل . . . إنهم لا يرون ولا يستطيعون أن يتبينوا آثار أعمالهم . . . فهم لو يعلمون سبيلا إلى سعادة الأرواح والأبدان . . . وما فعلوا إلا أن عطلوا هذه المواهب الفطرية ، ليجعلوا من الأحياء مرتزقة لا تنزع آمالهم لشىء لا يعد من دور الحكومة ليعيشوا بين جدرها عيش البطالة والفراغ . وإذا خرجوا من فراغ أعمالهم لاذوا بفراغ القهوة وكأن من فتح مدرسة فقد فتح قهوة . وخسرت الأمة بذلك من أعدتهم لسعادتها ، وخسر هؤلاء سعادتهم . . .

إنى أتمنى لك زمانا تبرأ فيه الأرض ومن عليها من الفساد والبغى والجهل ، وأن يعلم الناس أنك سيد الأرض التى أنبتتك وأن تتولى إليك عقول هذه الأرض جميعاً وآمال هذه الأرض جميعا .

على حافظ

شهريات

شهرية السياسة الدولية

«لا يزال العالم فى قلق رغم الجهود المبذولة فى سبيل استقراره .» هذه هى العبارة التى نستطيع أن نعقب بها على حوادث العالم فى الشهر المنقضى : فى الصين مظاهرات تنادى بخروج الأميريكيين ، وفى الهند الصينية ملحمة بين قواتها الوطنية وجيش الاحتلال الفرنسى ، وفى أندونسيا استئناف للمقاتلة بين أهلها والهولنديين ، وفى الهند نزاع على أشده بين الهندوكيين والمسلمين ، وفى إيران اتساع لمسافة الخلف المسلح بين حكومة طهران المركزية ونظام أذربيجان المعترف بذاتيته منذ وقت قريب ، وفى العراق مشادة بين الأحزاب حول حرية الانتخاب ، وفى سوريا ولبنان وشرق الأردن عدم انسجام فى الرأى بصدد « سوريا الكبرى » والعلاقة مع تركيا ، وفى تركيا بالذات مقاومة لحركات حزبية متهمة بالاتجاه شطر الاتحاد السوفييتى واليسار ، وفى اليونان حرب أهلية سافرة تذكر ظروفها بالحرب الأهلية الأسبانية الأخيرة من ناحية موضوع الخلاف الداخلى ومن ناحية انقسام التأييد الخارجى أيضا ، وسائر بلاد البلقان محل اتهام من ناحية الانجليز والأميريكان إذ يحتجون بمذكرات على عدم حرية الانتخاب فى بلغاريا ورومانيا وعلى مواقف معادية فى ألبانيا ، وكذلك الموقف من بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ، وفى إيتاليا حيث كان أهلها ينتظرون جلاء قوات الاحتلال هذه السنة يعلن أن هذا الاحتلال مستمر فيها إلى سنة ١٩٤٩ ، وفى فرنسا يبدأ بالكاد عند كتابة هذه السطور عهد الجمهورية الرابعة إذ ينتخب رئيسها الجديد ، او تتخذ إجراءات انتخابه ولما تصف الخلافات الجدية القائمة بين الاحزاب ، وفى ركننا المحدود تتطور الأحوال فى فلسطين نحو الحل الذى يراد فرضه على الجانبين ، وتتسع شقة الخلاف بين انجلترا ومصر على كيان السودان وطبيعة التحالف ، وفى برقة وطرابلس وسائر بلاد المغرب شكوى من نظام الاستعمار ومطالبة بالسيادة والاستقلال ، وفى أميريكا البعيدة عن هذا العالم القديم يميل فريق من أصحاب المكانة السياسية إلى تأليف حزب جديد يقتسم الميدان مع الجمهوريين والديمقراطيين .

وذلك كله من دلالات القلق القاطعة .

وقد جاءت الحوادث الأخيرة تزيد من مضاعفاتها ، إذ طلبت حكومة إيران من الاتحاد السوفييتى تسليم بعض زعماء الحركة الأذربيجانية الذين قصدوا إلى أراضيه ، فرفض الاتحاد السوفييتى طلب الحكومة الايرانية لأنه يعتبر أولئك الزعماء لاجئين سياسيين ، ولا يوجد بين إيران والاتحاد السوفييتى معاهدة تسليم اللاجئين ، وتريد حكومة طهران أن تعتبر الزعماء الذين تطلبهم مجرمين عاديين ، إذ قاموا فى نظرها بأعمال قتل ونهب واغتصاب أموال من أهل أذربيجان .

كذلك ضاعفت الأحوال الداخلية فى الولايات المتحدة اضطرابات فكرية وقعت لمناسبة الاجتماع الأول لمجلس الكونجرس الجديد ، وهو الذى أسفرت الانتخابات الأخيرة عن كثرة جمهورية فيه بعد أن كانت كثرته السابقة ديمقراطية فدعا هذا

الوضع إلى شيء من الشذوذ ، إذ لا يزال الرئيس ترومان هو المتولى الحكم فى الولايات المتحدة ، وهو ديمقراطى الحزبية ، وهو مطالب بأن يحكم مع كثرة جمهورية مناوئة لحزبه . وتوقع المراقبون أن تحدث أزمات عنيفة بين السلطة التنفيذية ومجلس الكونجرس وأن يقف هـذا الأخير حجر عثرة فى سبيل كل مشروع يقدمه الوزراء حتى يضطروا إلى الاستقالة واحدا بعد الآخر . فاذا جاءت انتخابات الرياسة فى أول عام ١٩٤٨ لم يكن فى الوزارة غير قلة من الحزب الجمهورى . وقد بدأ شيء مما توقع المراقبون ، إذ استقال وزير الخارجية مستر بيرنز الذى أدى خلافه مع وزير التجارة مستر والاس إلى استقالته ، ومستر والاس هو الساعى الآن إلى تأليف الحزب الثالث الجديد .

ولحق غبار بصفاء العلاقات بين فرنسا من ناحية وانجلترا والولايات المتحدة من ناحية أخرى على أثر الخلاف الذى قام حول انفراد الدولتين الانجلوسكسونيتين باستثمار بعض آبار البترول فى العربية السعودية ، وزعم فرنسا أن اتفاقية استثمار بترول العراق تنص على مساهمة فرنسا معهما فى استثمار جميع الآبار الواقعة فى الأراضى التى كانت جزءا من الدولة العثمانية قبل قيام الحرب العالمية الأولى ، وأراضى العربية السعودية من تلك الأراضى . وذهب الخلاف إلى حد الاتجاه إلى عرضه على القضاء .

على أن ذلك القلق البادى فى هذه اللوحة التى رسمناها لمواقف العالم خلال الشهر المنقضى يقابله مجهود يبذل فى سبيل الاستقرار ، وقد صدر أكثره عن هيئة الأمم المتحدة وعن اجتماعات وزراء الخارجية للدول الأربع العظمى ، كما صدر عن إجراءات داخلية فى الولايات المتحدة ومجاملات تتبادل بين ممثلى الجيش البريتانى والسوفييتى ، وعن مساع يبذلها رئيس الحكومة الفرنسية فى لندن بالذات . وكان من شأن اجتماعات وزراء الخارجية أن مهد السبيل لكثير من المشاكل وأصبح من المأمول أن يعقد اجتماعهم بموسكو فى شهر مارس المقبل فى جو أنقى من الأجواء التى عقدت فيها اجتماعاتهم حتى اليوم ، وأن تتقارب وجهات النظر إلى المسألة الألمانية بحيث يوقع الصلح مع ألمانيا خلال هذا العام المبتدئ . وكان من شأن عناية هيئة الأمم المتحدة أن تقرر إرسال لجنة تحقيق إلى اليونان تميط اللثام عما يقال من أن مساعدات جدية تقدم للثوار اليونانيين من جانب الأقاليم البلغارية واليوجوسلافية المتاخمة . فقد أذيع أن الثوار استعدادا للتحقيق قد نقلوا مراكز هجومهم إلى الجنوب حتى يسقطوا دعوى الاتصال بينهم وبين دول أجنبية . فاذا ثبت عدم اتصالهم عن طريق الاقناع الجديد فان شيئا من ظل الاتهام بالتحريض الأجنبى سيتقلص ، وقد يعمل هذا التقلص على الحد من مدى إساءة الظن المتبادلة بين الانجلوسكسونيين والسلافيين .

وكذلك كان من شأن التفاهم على الموقف من حكومة الجنرال فرنكو ، وهو الموقف الذى يقضى بسحب التمثيل السياسى من مدريد ، فل لحدة الخلاف الذى كان متجليا فى العلاقات بين الكتلتين الجبارتين . وقد كان عدم الوصول إلى هذا الموقف الموحد محل ذبذبة فى العلاقات الدولية طوال العام المنقضى .

ولا شك أن ما قد أعلن حتى اليوم عن الاتجاهات البادية فى لجنة تنظيم الطاقة الذرية فى هيئة الأمم المتحدة مما يسجل فى قائمة الجهود الخيرة المبذولة فى سبيل الاستقرار العالمى .

ولعل زيارة الجنرال مونجومورى رئيس هيئة أركان حرب الجيوش البريتانية لموسكو ومقابلته للمارشال ستالين ذاته وما تبودل خلال الزيارة من مجاملات بين رؤساء الجيشين السوفييتى والبريتانى مما يزيد فى تأييد تفاؤل

للمتفائلين الذين تلوح لهم العلاقات بين الكتلة الانجلوسكسونية والكتلة الصقلبية الآن أقل توتراً مما كانت عليه أثناء انعقاد مؤتمر الصلح فى باريس .

ولعل استبدال الجنرال مارشال بمستر بيرنز فى وزارة الخارجية الأميريكية يعين على دعم قول القائلين بأن الظروف منتهية إلى إملاء خطة التفاهم مع روسيا على الدولتين الانجلوسكسونيتين . فابعاد مستر بيرنز يخفف فى ذاته من وطأة ذكرى للمواقف المريرة التى وقفها من الرفيق مولوتوف طوال مؤتمر الصلح فى باريس ، والعودة إلى الرئيس الأعلى لهيئة أركان حرب الجيش الأميريكى أثناء الحرب توجه إلى إعادة ذكرى الوئام الذى كان سائدا طوال تلك الحرب بين الثلاث العظميات جميعا .

أما سفر رئيس الحكومة الفرنسية إلى لندن فمحاولة لتسوية الخلاف الناشئ عن مساهمة فرنسا فى بترول العربية السعودية وما إليها . ورئيس الحكومة الفرنسية الحالى هو مسيو بلوم ، ولشخصه مكانة بين حزب العمال المتولى الآن الحكم فى انجلترا . وعلى هذا الاعتبار يعتمد بلا ريب فى محاولته التسوية ، وإن كان يغلب أن يداعبه اعتبار آخر هو أن نجاحه فى التسوية يعينه على نجاح آخر فى السياسة الفرنسية الداخلية ، يقاوم به العقبات التى سيضعها الشيوعيون فى سبيل إعادة تأليفه الوزارة الجديدة من الاشتراكيين وحدهم .

ميل إلى التفاهم يبدو إذن فى أفق السياسة الدولية خلال الشهر المنقضى ، بفضل ما بذل فى مختلف البيئات من مجهود جبار فى سبيل التوفيق بين عديد وجهات النظر ، ولكن يتاخم هذا الميل إلى التفاهم جانب غير قليل من القلق لا يزال يصر على مساورته مالا يزال عالقا بنفوس الناس من ضعف الثقة المتبادلة بينهم .

ورجاؤنا أن تعمل حوادث العام الجديد ، بل تعمل تطوراتها على دعم الميل إلى التفاهم ، فيقل القلق وتزيد الطمأنينة ، وتستند العلاقات الدولية إلى المستقر من الاعتبارات ، فيصح على الأقل ذلك التصريح « المتواضع » الذى صدر أخيرا عن رجل الدولة العالمى الكبير الرئيس بنيش رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا . وقد جاء فيه :

« إن العالم لن يعرف الحرب خلال الخمسين سنة المقبلة » .

محمود عزمى

شهرية المسرح

الموسم الغنائى التمثيلى فى دار الأوبرا الملكية

عند ما وقع نظرى فى صحيفة من الصحف اليومية على خبر قدوم فرقة إيطالية لتمثيل الروايات الغنائية المعروفة بالأوبرا، على المسرح الملكى بالقاهرة، انتابنى شعور هو مزيج من الجذل والابتهاج الكبير. ذلك أنى بدأت أشعر أن أزمان المحنة قد انتهت. وبدأت أشعر حقا بأن العالم دخل فى فترة السلام. وهو شعور لم أجده عند تسليم بعض المتحاربين للبعض الآخر تسليما نهائيا، ولا زلت أفتقده فلا أجده حتى الآن لما يحيط بنا فى هذا العالم من قلق وعدم استقرار.

وأى برهان على السلام أكثر من انتقال فرقة غنائية من إيطاليا للتمثيل فى المسرح المصرى، بعد أن حيل بينها وبين زيارة هذه البلاد نيفا وست سنوات، كان فيها المسرح الملكى الذى أنشأه العاهل المصرى العظيم للأوبرا خاصة بعيدا عما أنشئ له. كان فى تلك السنوات مقفرا إلا من التمثيل العادى وهو لم ينشأ لذلك. وكان مقفرا إلا من فرقة عابرة أرسلت لتسلية الجنود المحاربة المقيمة فى هذه البلاد وإرضاء أذواقهم الخشنة. وكان مقفرا إلا من فرق الهواة التى تألفت لأغراض خيرية بعضها عظيم الفائدة وبعضها مشكوك فى فائدته.

لقد أقفر المسرح الملكى للأوبرا من تمثيل تلك الروايات الغنائية المسماة بالأوبرا. وهو لم ينشأ إلا لها، ويجب ألا يخلو منها موسم من مواسمه. أقفر المسرح الملكى حتى خشى ألا تعود إليه الأوبرا مطلقا.

واليوم عادت إليه الأوبرا. وعاد التمثيل الغنائى إلى داره، ولم تكن تلك السنوات المظلمة المملة إلا غمامة انقشعت، ولم يبق ثمة شك فى أن الادارة المصرية التى تتولى أمر هذا المسرح الملكى تعلم حق العلم واجبها نحو هذا المسرح، ونحو تاريخه، ونحو غرض منشئه العظيم.

كم سمعنا وكم قيل لنا فى معرض الحديث والنقاش: مافائدة الاوبرا! كأن الشئ لا يمكن أن تكون له فائدة إذا لم تترجم هذه الفائدة بالدرهم والدينار. الواقع أن أكبر مظاهر الحضارة، وأن الامور الجديرة بأن يقطع الانسان من أجلها مرحلة هذه الحياة، لا تقوم عادة بالمال، فهى فى مظهرها عديمة القيمة المادية؛ ولكن الواقع أن قيمتها المعنوية عظيمة. وهذا ما أعتقد أن العاهل العظيم فكر فيه عندما أقام هذه الدار، وقد أراد أن تكون بلاده جزءا من أوربا، وأوربا تعرف التمثيل والموسيقى، وتعرف تلك الروايات التى جمعت بين التمثيل والموسيقى، وهى خلاصة الحضارة الاوربية، فليكن فى وطنه إذن دار تكون دائما علما على اتصال الحضارة.

قد يقال إن هذه الدار لا يؤمها من المصريين إلا قلائل. ولكن هذا العيب فى رأيى ليس عيبا فى هذا المعهد نفسه، ولا هو عيب فى الجمهور، وإنما هو عيب فى الذين يعملون على ثقافة الجمهور وتربيته التربية الموسيقية الواجبة. ونحن نعلم أن المصريين يزيدون فى الاقبال سنة بعد سنة على التصوير، ويزيدون فى الاقبال سنة بعد سنة على النحت. ونعلم أن القائمين بتثقيفهم فى هذين

الفنين ينحون نحو الأوربيين فى التعليم . فلماذا نراهم لا ينحون هذا النحو فى التعليم والتثقيف الموسيقى ؟

لندع هذه الآراء التى تطغى علينا جانبا ، ولنعد إلى اغتباطنا بالفرقة الايطالية وحضورها إلى مصر ، بل حضورها إلى مصر بالطائرة فى بضع ساعات ، مما يبشر بزيادة الاتصال والارتباط بأوربا . ولكن هذا الاغتباط لم يكن خاليا مما يشوبه ، ذلك أنه كان من الطبيعى أن نتطلع ونتطلع إلى البرنامج ، وإذا بهذا البرنامج يعلن الينا ، فماذا نجد فيه ؟

أسماء كبيرة حقاً فى عالم الموسيقى . هذا فردى بثلاث أو أربع من رواياته ، منها ريجولتو وتراڤياتا وعائدة . وهذا بوتشينى بثلاث من رواياته منها توسكا ومدام بتر فلاى . ثم دونزيتى بروايتين أو ثلاث منها لوشيا دى لا مرمور . وجوردانو بروايته أندريا شينييه وروسينى بحلاق إشبيلية ، وكارمن وهى الرواية الوحيدة التى لحنها موسيقى فرنسى .

فكأن الروايات التى اختارتها الفرقة الايطالية أو اختارها لها متعهد الفرقة إنما اختيرت لتمثيل الفن الموسيقى الايطالى الحديث ، ولكن لا لتمثله فى خير مظاهره . وقد يعترض على بأن فردى هو أكبر مؤلفى الاوبرا من الايطاليين فى العصر الحديث . وهذا مالا أريد إنكاره ، ولكننا إذا أردنا أن نختار ما يمثل فردى فى خير مواهبه حقا وما جعله جديرا بالمجد حقا ، فلا نختار ريجولتو أو تراڤياتا ، وربما لا نختار عائدة ، ولكننا نختار شيئا آخر .

أغلب الظن أن متعهد هذه الفرقة أحب أن يختار من الروايات ما يروق فى نظره لدى الجمهور ، والويل للجمهور من ادعاءات المتعهدين . ومع ذلك نغتفر نحن له هذه المرة عدم التوفيق فى اختياره ، ونحمد له مجرد تمكنه من تدبير إحضار هذه الفرقة لتشعرنا بالسلام .

على أننا نأمل كثيراً فى الادارة المصرية الحاضرة فى دار الاوبرا ، بما نعهده فى رئيسها ووكيلها من الذوق السليم ، أن تحذر اختيار المتعهدين ، وألا تأخذ برأيهم إلا بعد مراجعة ؛ فقد عرفت دار الاوبرا فى ماضيها ليالى باهرة ، وشهد الناس فيها فنا عظيما . فانا لا ننسى أننا قبل هذه الحرب الأخيرة سمعنا فيها موسيقى ڤاجنر فى تانهوزر ولوهنجرن وزيجفريد من فرق إيطالية وفرنسية ، وسمعنا فيدليو رواية بتهوفن الخالدة ، وأكثر من رواية من روايات موتزارت من فرقة نمساوية ، وسمعنا بوريس جوادونوف ، للموسيقى الروسى مسورجسكى من فرقة لا أتذكر أهى كانت فرنسية أو إيطالية . بل سمعنا بلياس ومليزاند تلك الرواية التى هى فى رأيى المتحيز خير الأوبرات الحديثة .

فلا ينبغى للادارة المصرية أن تنسى هذا الماضى ، ولتذكره ولتعمل على التفوق عليه سريعا ، ولتذكر أيضا ولتقلب سجلات ماضيها ، لتذكر أنه كان يطلب إلى المتعهدين دائما أن يقدموا فضلا عن الروايات المعروفة ، عددا من الروايات التى لم يسبق تمثيلها على المسرح الملكى . فلترجع الادارة المصرية إلى تلك الخطة المحمودة ، ولتوسع أفقها فتستعين بعشاق الموسيقى على تدبير البرامج واختيارها وتبحث عن الفرق الممتازة فى مختلف الأقطار دون التقيد باللغة . فالناس يذهبون إلى الروايات الموسيقية للموسيقى ولا يهمهم فهم اللغة . وقد تستعين برجال الدبلوماسية من مختلف الدول فى تدبير هذه الفرق ، فما أحب التأثير بالفن ، وما أكرم الدعاية بالفن .

لم نر حتى كتابة هذه السطور من روايات الفرقة غير عدد قليل ، ولكننا نستطيع أن نحكم من الروايات التى شهدناها على أن هذه الفرقة ممتازة ، وهى تمثل مستوى عاليا فى الغناء الايطالى . ولا غرو فان الاعضاء جمعوا من أكبر مسارح الأوبرا فى إيطاليا من لاسكالا ذى التاريخ المجيد فى فن الأوبرا بميلانو ، ورويالى المسرح العتيد بروما ، ودار الأوبرا بنابولى — وهم يمثلون التمثيل الغنائى فى إيطاليا بمحاسنه ومعايبه أيضا . فلقد سمعنا مثلا كنيليا فى صوتها الرنان البديع ، وحسن غنائها فى دور توسكا ، وصفقنا لها طويلا ، ولكننا نكون خاطئين إذا أخذنا عليها ، كما أخذ عليها صديق ، أنها لا تحسن التمثيل . فأية مغنية إيطالية تحسن التمثيل ، وترى أن من واجبها أن تمثل الدور حين تغنيه إلا فى القليل النادر ! فلنكتف إذن بما نجد من سحر فى الغناء . وما ألفت الأوبرات الايطالية وما وضعت المواقف فيها إلا للغناء ، لا للموسيقى وحدها ولا للتمثيل مطلقا . وإن أردت أحد هذين أو اجتماع هذين فالتمس ذلك فى غير فرقة إيطالية ، وعليك فى الغالب أن تدفع ثمن ذلك مثلا فى أن تنزل عن شىء من الابداع فى الغناء ، والتلاعب بالصوت كيفما شاء المغنى أو المغنية .

ومع ذلك ليس لنا أن نشكو ؛ فلقد رأينا فى بعض السنوات ، وعلى مسرح الاوبرا نفسه ، فرقا جعلت أبداننا تقشعر . وأذكر فى دور توسكا ذاته مغنية إيطالية بلغ من سوء ادائها ، أن أقسمت ألا أشهد تلك الرواية لسنوات عدة ، وبررت بقسمى نحو عشر سنين .

إذن لم يبق لى إلا أن أعود إلى الثناء على القائمين بأمر المسرح الملكى لتدبير هذا الموسم الغنائى ، وألح فى أن يكون فى كل موسم جانب ، وجانب كبير للتمثيل الغنائى ؛ فما أنشىء هذا المسرح إلا من أجله .

حسن محمود

شهرية السينما

أحمر شفايف (أفلام الريحانى)

ها هو ذا الأستاذ الريحانى يوالى نشاطه السينمائى وينتج لنا فيلما آخر أسماه « أحمر شفايف » . ومن يقرأ هذا العنوان ويكون من الذين يتتبعون إنتاج الأستاذ الريحانى المسرحى والسينمائى ، يعتقد أنه سيشاهد ملهاة ظريفة عن أحمر الشفايف ودوره فى حياة المرأة . ولكن أحمر الشفايف لم يوح بكوميديا مضحكة ، وإنما أوحى بقصة أراد مؤلفاها أن تكون مبكية أحيانا فلم تبك ، وأرادا أيضا أن تكون مضحكة أحيانا أخرى فلم تضحك . والمشاهد يجد نفسه فى حيرة إزاء هذه القصة : أكان يشاهد كوميديا وقاته ن يضحك ، أم كان يشاهد دراما ففاته أن يتأثر ويبكى . إن القصة التى ساقها إلينا هذا الفيلم تختلف عن القصص التى شاهدناها فى مسرح ريتس أو فى « لعبة الست » أو فى « سلامة فى خير » ، تلك المسرحيات الفكهة التى لا تخلو من نقد اجتماعى لاذع مصوغ فى قالب ساخر . فليس مسرح الريحانى إلا مدرسة للشعب ، يتعلم فيه كيف يعالج مشكلاته الاجتماعية ، وكيف يعالج عيوبه الشخصية . ولم يرد الريحانى هذه المرة أن يتخلف عن أداء هذه المهمة التى أخذها على عاتقه وهى إصلاح ما اعوج من أخلاق المصريين فى أسلوب فكاهى حلو ومر فى واقت واحد . لقد واصل أداء هذه المهمة ، ولكنه لم يصطنع الأسلوب الذى اعتدناه ، بل ألقى علينا هذه المرة عظة كأنه الخطيب على المنبر . ولعل فى إلقاء العظات ما يكون سبيلا إلى إرضاء الجمهور .

فكم سمعنا فى قاعات العرض من تهامس ينم عن إعجاب . ولكن هل للريحانى أن ينزل عن فنه ليرضى الجمهور ، وهو بهذا الفن يحتل المكان الاول فى المسرح المصرى ؟ .

على أنك تجد فى القصة بعض نواح جديرة بالتقدير ، ففى الجزء الأول صورة صادقة لحياة الأسرة المصرية الهادئة ، ولعقلية الموظف المتوسط الحال وما يشغله فى حياته من توافه الامور. ولا ننسى أيضا أن نذكر له سخريته فى لباقة لا تثير دهشتنا وإن أثارت إعجابنا من طريقة فى الغناء يسجد لها الشرقيون . ولكن القصة تتعثر وتضطرب حينما تبتدئ الأمور تتعقد : الزوجة تظن أن زوجها يخونها مع الخادمة ، ودليلها على ذلك آثار من لون أحمر على منديله ظنته أحمر للشفاه مع أنه لم يكن إلا بقعا من قلم أحمر للكتابة . وينفصل الزوجان رغم ولوع كليهما بصاحبه وييأس الزوج وتيئس المرأة من العودة إلى حياة هانئة لما تثيره فيها الغيرة من الغيظ . وتدوم الحال هكذا حتى استطاعت الزوج أن تميز بين أحمر الشفاه وأحمر القلم .

ولم يجمع الأستاذ الريحانى حوله من الممثلين تلك العناصر القوية التى كنا نراها فى مسرحه وأفلامه ، بل اجتمع لأداء القصة من هم دون فن الأستاذ الريحانى فى التمثيل ، حتى لقد لاحظت تفاوتا كبيراً بين أدائه وأدائهم ولعل ذلك يكون من الأسباب التى عاقت القصة عن الوصول إلى النجاح المطلق . لقد مثلت السيدة زوزو شكيب دور المرأة المصرية بكل

ما يقتضى هذا الدور من ثقل وفتور . وقامت سامية جمال بدور الخادمة اللعوب بكل ما لها من مؤهلات لهذا الدور ، ولكنها فى رقصاتها الشرقية لم تصل إلى رضا الجمهور رغم ما فى هذه الرقصات من خلاعة ترضى جمهورنا . أما الأستاذ الريحانى فقد أتقن تمثيل شخصية الموظف المتوسط الحال ، وأبدع خاصة فى أدائه حينما افتقر وأخذ يطوف الشوارع طالبا ما يسد رمقه . فتمثيله فى منظر المطعم الذى يدخله ليأكل من الطعام ما يساوى عشرة القروش التى يملكها واضطرابه حينما فقد هذا المبلغ يدلان جليا على مقدرته على التعبير الصحيح الذى لا يشوبه أى غلو .

وكنا نود أن يكون إخراج هذه الرواية مناسبا لما ألمسناه فى إخراج ما سبق من روايات ، وألا نشعر بأن ما يجرى من حوادث فى القصة إنما يجرى فى استوديو بين مناظر شيدت للتمثيل . لقد كان على الاخراج أن يمحو هذا الأثر ويصبغ القصة بطابع واقعى يناسبها .

ومهما آخذنا القصة والتمثيل والاخراج ، فلا ينبغى أن ننسى أن الأستاذ الريحانى من القليلين الذين جاهدوا فى سبيل إحياء المسرح المصرى ووصلوا به إلى درجة فنية رفيعة ، وأن له الفضل الأكبر فى وجود الملهاة المصرية . فهل من الوفاء والتقدير أن نؤاخذ رجلا له هذا الماضى الفنى المجيد بتلك الهنات ؟

ذات الشهرة السيئة (شركة ر . ك . و) [1]

إن الشركات السينمائية الأمريكية متى لمست فى ممثل من ممثليها أنه وصل إلى الشهرة وأصبح محبوبا إلى الجمهور لا تتورع من أن تظهره فى أفلام ضعيفة قصة أو إخراجا أو حوارا . ذلك لأنها تعلم أن الجمهور يسعى إلى دور العرض وقد جذبه إليها اسم الممثل الذى يعرف عنه الكثير لا القصة أو عنوانها اللذان لا يعرف عنهما إلا القليل . ومن العجيب أن الممثلين الأمريكيين لا يأبون أن تستغل أسماؤهم فى دعاية رخيصة لفيلم رخيص . فالممثلة أنجريد برجمان لم ترفض أن تشترك فى تمثيل ثلاثة أفلام فى موسم واحد ليست ذات شأن مطلقا : لقد قامت بالدور الاول فى « المسحور » وفى « مغامرة سراتوجا » وفى « ذات الشهرة السيئة » والأفلام الثلاثة سقيمة ضعيفة من جهة القصة .

و « ذات الشهرة السيئة » فيلم عن الجاسوسية إبان الحرب الأخيرة يسوق إلينا مغامرات فتاة ألمانية استخدمها قلم المخابرات الأمريكى للكشف عن مؤامرة جواسيس ألمان فى ريو دى جانيرو . ويصطنع المؤلف الأسلوب المألوف فى حبك قصص الجاسوسية . فالفتاة تقع فى غرام شاب أمريكى من قلم المخابرات وهو المكلف بإرشادها فى مهمتها . ثم تقع فى شراك الجواسيس الألمان ، فيحاول عشيقها أن ينتزعها من مخالبهم ، ويتم له ذلك فى ظروف مستحيلة ، ولكن لمؤلف القصة القدرة على أن يخلص شخصياته من أى موقف مهما كان وعرا ، وعلى المشاهد أن يرضى عن سلوك المؤلف أو لا يرضى .

أما إخراج الفيلم وتمثيله فكانا متقنين حتى أنسيانا معايب قصته . فبفضل الاخراج المتقن شهدنا مناظر جميلة خلابة مصورة تصويرا جديرا بالاعجاب . غير أننا نأخذ على المخرج المغالاة فى مناظر القبلات التى احتلت الثلث الأول من

(١) Notorious (*R.K.O.*)

الفيلم . وقد جمعت هذه الرواية ممثلين شهيرين ، هما أنجريد برجمان وكارى جرانت اللذان قاما بالدورين الرئيسين خير قيام .

والآن وقد انتهت ظروف الحرب التي اضطرت الشركات إلى إنتاج رخيص لعدم توافر العناصر اللازمة من ممثلين ومصورين ومخرجين ، هل لنا أن نتمنى على المنتجين الأمريكيين ان يراعوا ذوق الجماهير ، وألا يفرضوا علينا هذه القصص الضعيفة التي سئمنا مشاهدتها طوال سني الحرب الست ؟

مشدود طال

من كتب الشرق والغرب

صور من العنف والقسوة فى الأدب الأمريكى

تبدو أمريكا لعيان الزائر العابر أو القارئ المتطفل نعيما يسبح أهله فى رخاء شامل ويرتع نزلاؤه فى بحبوحة من العيش لا يعكر صفوه منغصات الحياة التى يشق بها سكان العالم القديم . فأمريكا موطن الاختراعات الحديثة ونبع المبتكرات الخلابة التى ترفه عن النفس . وأمريكا بلد الثراء الطائل ، والحرية التامة التى ترنو إليها عيون كل من أهدرت حقوقه على وجه الأرض ، وهى تستهوى ألباب الشعوب المتعطشة إلى السعادة والهناء . وطفق الأمريكيون يدوون فى الأبواق ويروجون بدعاياتهم الماهرة إلى بهرج الحياة الأمريكية وما ينعم به المواطن فى ولاياتهم من عز وجاه وترف ، حتى نسجوا غشاء كثيفا من الخداع ظنوه يستر عن الأبصار النافذة حقيقة أمرهم وطبيعة عيوبهم ورذائلهم ، ومنها ما هو عام يشمل بنى البشر أجمعين ، ومنها ما هو خاص بهم ينجم عن خصالهم وطرق معيشتهم واقتصادهم وتفكيرهم .

لقد وصلت أمريكا إلى مرحلة من الحضارة الزائفة دفعت منذ بضع سنين كثيرا من خيرة كتابها ومفكريها إلى أن يحاولوا تمزيق حجب الزيف والخداع ، وجلاء ما خفى وراء الظواهر البراقة من بؤس وشقاء ويأس وبكاء ، فتسلطت على بعض أدباء أمريكا المعاصرين نزعة تحليل وتمحيص لمقومات الحياة الأمريكية الحديثة ، وجنحوا إلى سبر غور نفس الأمريكى العادى للوقوف على آماله وأحلامه وأفكاره ونوازعه ، فباء جلهم بصورة قاتمة حالكة صاغوها فى قصصهم بعبارات عنيفة كل العنف وبأسلوب عار عن كل زخرف وتنميق . وقد بلغ بعض هؤلاء الكتاب الواقعيين فى وصفهم الحياة الأمريكية حدا من القسوة لم يبلغه سلف ، ونظروا إليها بمنظار أسود لا سبيل معه إلى بارقة أمل ، وقد فاقوا أحيانا ما وصل إليه الأدب الروسى السابق للثورة من تشاؤم وزهد فى الحياة . وأخذت موجة العنف والاقذاع فى القول تجتاح الأدب الأمريكى إلى درجة خطيرة أدت إلى تدخل السلطات العامة لوقف تدفق أفكار يخشى معها أن تودى بسمعة البلاد ، ولا سيما أن كثيرا من هذه القصص المثيرة للعواطف كان يتكالب عليها مخرجو السينما لعرضها على الشاشة البيضاء ولا يخفى ما فى هذا العمل من دعاية ضارة لأمريكا وتلويث لسمعتها . ولا يفوتنى فى هذا المضمار أن أذكر ما أقدمت عليه الرقابة الأمريكية للسينما من حظر إصدار قصتين خالدتين للكاتب الشهير ستاينبك Steinbeck إلى أوربا وهما رواية « عنب الغضب » *The grapes of wrath* ورواية « جرذان وبشر » *Of mice and men* إذ تصوران أبشع مناظر الحياة الأمريكية رغم انهما آيتان رائعتان من الوجهة الأدبية ومن وجهة فن التصوير الصادق ، هذا فى حين تغمر تلك الرقابة نفسها أسواق العالم بأفلام لا أثر للفن فيها ، ولكنها تروج للدعاية الوطنية التقليدية الزائفة ألا وهى أن أمريكا فردوس تجرى من تحته الأنهار وجنة الله فى أرضه .

وقد لاقت قصص إرنست همنجواى Ernest Hemingway معارضة قوية من فئة

من القراء فى أمريكا أقذعهم اسلوبه اللاذع ووصفه بعض الحانات الرخيصة حيث يحتسى فيها روادها الخمر حتى تلعب برءوسهم ويتفوهون بألفاظ أو يرتكبون أعمالا لا تستحى منها نفس القارىء الأمريكى الوديع.

ولا يخفى على الأديب أن أمريكا تلجأ كل يوم إلى مصادرة كتاب أو منع نشر مؤلف أو القبض على قصصى ومحاكمته بتهمة الاعتداء على الأخلاق القومية وزجه فى السجن حتى يتأمل مغبة عمله ويدرك أن حرية القول فى ذلك البلد محاطة بأسوار شائكة ومقيدة بأغلال ثقيلة. ولم يغرب عن البال ما آل إليه الكاتب الانجليزى الشهير جيمس جويس James Joyce إذ أقيمت عليه الدعوى العمومية ووجهت إليه أشد التهم خطورة، واستقر الرأى على مصادرة كتابه المعروف « أوليس » Ulysses وأخيرا وافتنا الصحف بأنباء تفيد مصادرة كتاب الشابة الأمريكية النابهة كاتلين ونسور المعنون For ever Amber.

لذلك عمد كثير من المؤلفين الأمريكيين الذين لم يأنسوا فى بلادهم قسطا من حرية الفكر يؤهلهم للتعبير عما يجيش فى صدورهم من أفكار قد لا تروق أولى الأمر إلى مغادرة العالم الجديد والهجرة إلى بعض أصقاع العالم القديم، حيث حرية الفكر مكفولة موفورة، وحيث لا يعوقهم عن الافصاح عن خوالجهم أى عائق من قانون أو عادات أو طباع. وغنى عن القول أن أولئك الكتاب لم يرحلوا إلى بريطانيا العظمى أو روسيا السوفيتية حتى لا يستجيروا من الرمضاء بالنار، وإنما يمموا شطر فرنسا مؤئل الحرية الفكرية فى العصر الحاضر بعد أن نفضت فرنسا غبار الماضى ونسيت محاكمة فلوبير لأجل قصته الخالدة « مدام بوڤارى » أو الشاعر الموهوب بودلير لأجل مجموع ديوانه الشعرى الرائع *Les fleurs du mal*.

والآن أبدأ بعرض موجز وتحليل مقتضب لقصتين لكاتبين أمريكيين نشرتا أخيرا فى باريس حيث ظهرت توا ترجمة فرنسية لهما، على حين لم تنشر إحداهما فى أمريكا إذ لم يجرؤ أى ناشر على طبعهما. وقد راجت القصتان فى باريس رواجا لا مثيل له، وتناولهما النقاد الفرنسيون فى الصحف والمجلات الأدبية بالنقد والتحليل بين محبذ لهما مولع بهما أشد الولع وبين ساخط عليهما مستهجن لهما أشد الاستهجان. وقد أثارت القصتان جدلا عظيما بين من ولج التحدث عنهما، وأوقدتا نقاشا مرا احتدم بين أدباء فرنسا احتداما لم يخف سعيره للآن.

أما القصة الأولى فعنوانها « سوف ابصق على قبوركم » *J'irai cracher sur vos tombes* (éd. du Scorpion, Paris) لمؤلفها ڤرنون سليفان Vernon Sullivan وقد نشرت حديثا فى باريس فى شهر نوفبر سنة ١٩٤٦ ولم تنشر بلغتها الأصلية الانجليزية للآن، وهى قصة عنيفة مقذعة فتاكة قصد بها مؤلفها الانتقام للزنوج فى أمريكا لما يسامون من ألوان العذاب على أيدى الرجال البيض. أما ڤرنون سليفان فهو من أولئك البيض المنحدرين من سلالة سوداء عريقة فى السواد، اختلطوا منذ القدم بنساء بيض فتلونت بشرتهم على مر الحقب والأزمان، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن ابيضت تماما بحيث يتعذر تمييزهم عن البيض الأصليين. وفى كل عام تقوم الحكومة باجراء تعداد لهم توطئة لنقل قيد أسمائهم من قائمة السود إلى قائمة البيض. وهذه العملية يعبر عنها فى أمريكا باصطلاح طريف « اجتياز الخط ».

وقد كان ڤرنون سليفان ممن حظوا بنعمة الابيضاض الرسمى فى أمريكا. وهى نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا الزنوج المتأكيد

ولكنه رغم هذه المنحة لم يكنّ لأترابه السابقين السود أى شعور بالازدراء أو التعالى عليهم ، ولم يعرب لرفاقه البيض الجدد عن أى شعور بالامتنان ولم يستول على نفسه تيه ولا زهو لمآله الأخير ، وإنما ظل حاقدا على الجنس الأبيض ناقما عليه مبيتا له نية التشفى منه . ولذا أقدم على وضع قصته وخلع عليها ذلك العنوان المفترس « سوف أبصق على قبوركم » . وقد رمى من ورائها إلى إظهار قوة الاسود عندما تختمر فى رأسه فكرة الانتقام لبنى جنسه .

أما هذه القصة فيرويها شاب يمت إلى تلك الثلة من الزنوج الحديثى عهد بالابيضاض وسم الطلعة أشقر لا يبدو على سيماه أى أثر لأصل أسود ، وطد العزم على الانتقام من الجنس الأبيض بعد أن حز فى نفسه قتل أخيه الصغير لتجرئه على مبادلة الحب مع فتاة بيضاء . وقد أتاحت الأيام للراوى أن يوثق أواصر الصداقة مع أختين يافعتين تنحدران من أرومة كريمة وتمتان إلى أسرة من البيض عريقة النسب ، وما فتئ يحوك حولها الحبائل زاعماً أنه مدله فى حبهما حتى وصل إلى ضالته المنشودة واستأثر بقلبيهما الواحدة أثر الأخرى . ولما أن جاءته إحداهما فى يوم من الأيام تنبئه أنها حملت منه سفاحاً ، رأى الفرصة سانحة للأخذ بثأر أخيه الصغير الذى مات شر ميتة على أيدى الرجال البيض ، فدبر لها فخاً شيطانيا واستدرجها إلى جهة نائية منعزلة ، ثم انقض عليها انقضاض الوحش الكاسر وأوسعها لطماً وضرباً وركلا ، حتى لفظت النفس الأخير ، فتركها جثة هامدة ، ولم شعثه وقفز فى سيارته وسار حثيثاً حتى بلغ مكانا آخر عينه للأخت الصغرى للقائها ، فاستدرجها أيضاً إلى جهة أخرى ليعيد الكرة ولما يجف دم ضحيته الأولى من يديه المخضبتين ، فابتدرته المسكينة تذكره بوعده إياها بالزواج فلم يجبها ، وإنما أسرع السير حتى وطئا بقعة مقفرة ، فانهال عليها ضربا وأخرج مسدسا وأرداها قتيلة ، ثم اغتصبها وهى جثة دافئة زايلتها الحياة وقد ظل الراوى طريد العدالة إلى أن دهمه رجال الشرطة فأفرغوا فيه رصاصهم وأردوه قتيلا . ولما علم أهل القرية أنه من أصل أسود علقوا جثته على شجرة وشنقوه .

وقد روى فرنون سليفان قصته بأسلوب توخى فيه الاغاش عن عمد ، ولم يتورع عن وصف مناظر بشعة وصفا تقشعر له الأبدان ، كما أنه صور العراك الوحشى الذى دار بينه وبين ضحيتيه تصويراً أمعن فى بيان تفاصيله حتى الغثيان . وهذا اللون من الأدب العنيف لا قبل للنفس المرهفة الحس على احتماله ، ولكنه يدل على أن موجة القسوة تطغى على مشاعر بعض الكتاب لهول ما رأوا من العذاب الذى يتجرعه بعض أفراد الناس لغير ما سبب اللهم إلا اختلافهم فى البشرة أو العقيدة أو المبادئ السياسية .

أما الكتاب الثانى الذى أعرضه اليوم فقد ظهر فى صيف سنة ١٩٤٦ فى باريس أيضا ، وهو للمؤلف الأمريكى الشهير هنرى ميلر Henry Miller وعنوانه «مدار الجدى » *Tropique du Capricorne* (éd. du Chêne, Paris) وهو يكمل كتابا آخر لنفس المؤلف ظهر منذ حوالى عشر سنين اسمه « مدار السرطان » .

أما هنرى ميلر فهو كاتب أمريكى من أصل ألمانى ذاع صيته فى أوروبا ، إذ استوطن فرنسا وعاش فيها ردحا من الزمن يصدر فيها مؤلفاته متمتعاً بحرية تامة بعد أن نبذه بنو وطنه . وتعد جميع مؤلفات ميلر من المحظورات فى أمريكا ، فلا يجرؤ أحد على نشرها أو تداولها رغم ما فى هذا الحظر نفسه من دعاية غير مقصودة لهذه المؤلفات . لذا لاقت بعض النسخ القليلة التى تسربت خلسة إلى داخل

القارة الأميركية إقبالا اشديداً من جمهرة القراء وتهافتا على اقتنائها . ولا غرابة فى ذلك فكل محظور مرغوب . وقد توخى هنرى ميلر فى كتبه كيل الصاع صاعين لأمريكا التى حرمته حرية القول والفكر حتى قطعت عليه سبل العيش فيها ؛ لذا خصها بأمضى ما فى جعبته من سهام ، وشهر عليها حربا شعواء شحذ لها أشكى سلاح ألا وهو قلمه الذى ينفث الحقائق المحرجة بأسلوب مسرف فى الاقذاع كما تنفث الأفعى السم الزعاف .

أما مؤلفه الأخير « مدار الجدى » فهو كتاب ضخم يحوى خمسمائة صفحة كثيفة لا تتخللها فصول أو أبواب ، وكأنه لفظه دفعة واحدة حتى ينتهى من أمره ويتنفس الصعداء . ويتعذر على القارئ أن يستخلص من خضم الألفاظ التى يزخر بها الكتاب أى موضوع متماسك ؛ فهو لا يعدو كونه سلسلة من الأحاديث الطويلة عن شتى الحوادث التى مرت بالراوى . ولكن حديث ميلر ذو شجون فهو بينما يسرد عليك شعوره فى مطعم أو مرقص مثلا يأخذ عليك السبيل فجأة وينقلك معه على أعنة ذاكرته إلى عالم صباه ، فيسترسل فى وصف والده وطباعه ، أو يبين لك خواطر أخته البلهاء أو يروى حياة أترابه الصغار ومميزات كل منهم ، وهو يمعن فى إيراد أدق التفاصيل عنهم . ثم يستطرد فى الحديث إلى أن ينقلك مرة أخرى دون أى إنذار أو تمهيد سابق إلى الخوض فى مناظرة فلسفية عميقة عن الروح أو الموت أو الاله . ثم يجذبك عنوة إلى شوارع نيويورك فيذرعها معك فى الليل أو فى النهار ، ويرتاد معك أوضع الحانات حيث يكب على احتساء المدام حتى يثمل . وهكذا دواليك مما يدعو القارئ إلى السؤال عند الفراغ من قراءة الكتاب : ألم يكن يستمع إلى هذيان محموم يعالج سكرات الموت ؟

ويبدو أن هنرى ميلر مولع أشد الولع بارتياد الشوارع فى نيويورك ، وهو يكلف كلفا شديداً بالتأمل فى المنازل التى تحدها من الجانبين ، وفى القطارات التى تجرى على معابر الجو ، وفى مهرجان النور واللافتات المضاءة بالكهرباء ، وفى قافلة السيارات التى تجوب أرجاء المدينة بلا انقطاع ، وفى مواكب المارة على اختلاف أجناسهم وأشكالهم ولبوسهم . وله فى التعبير عما يختلجه من الاحساس الذى تثيره فى نفسه هذه المشاهد صفحات رائعة لعلها خير ما كتب فى هذا الشأن . استمع إليه يصف ناطحات السحاب لمدينة نيويورك ، وقد أرخى الليل عليها سدوله :

« عند ما يكسو الجليد شوارع نيويورك ويخيم عليها صمت رهيب ، يدبعث من قبح مبانيها نغم حزين ممض مميت يهتزله البدن . إنى لا أرى قالبا من هذه القوالب المتراصة أثيم فوق القوالب الأخرى عن رغبة أو إجلال . لا أرى شارعا من هذه الشوارع خط للرقص أو الجذل ، وإنما أضيفت أشياء إلى أخرى وسط فوضى اختلط فيها الحابل بالنابل لغرض واحد ألا وهو ملء البطن . لذا فالشوارع تشتم منها رائحة البطون الخاوية والبطون المليئة والبطون المليئة إلى النصف . والشوارع مليئة بأريج طوى لا دخل له بالمحبة ، تنبعث منها رائحة بطون لا تعرف الاكتفاء ، لها رائحة الأعمال التى أنجزتها بطون فارغة ، وهذه الأعمال نفسها ليست إلا فراغا وعدما . »

لا غرو أن الكاتب عبر تعبيراً فريداً غريباً عميقا عن نوازعه إزاء مشهد الشوارع الزاخرة بالمتناقضات . وقد يمر بها عابر مرورا عاجلا فلا يحفل بها ويمضى فى سبيله قدما وقد يمر بها رجل يذرعها عندما يجثم على صدرها صمت الليل فيقف متأملا غارقا فى تفكيره مستلهما أسرار الصروح الشاهقة التى يأوى

إليها فى ساعات محدودة قوم غافلون أو راضون أو قانعون أو حانقون . للشوارع روعة لا يدركها إلا من قصد استيضاح حقيقة أمرها مثل هنرى ميلر .

ولهذا الكاتب صيحات مؤثرة تدوى فى جنبات القارئ وتستوقفه لشدة الحسرة التى تولدها ثم ترددها بين ضلوعه . ولا بد أن ميلر شعر فى أعماق قلبه بتلك اللهفة الممضة اللاذعة التى وفق للافصاح عنها بألفاظ بسيطة كل البساطة لها وقع أليم يحز فى النفس كالرجع الحنون . ان ميلر ثائر فوضوى وتلك أخص مميزاته ، ثائر على كل شئ ، ناقم على كل شئ ، حانق على الحياة ، حاقد على الانسان شاعر بنقصه ، حائر تائه يسير فى الحياة لا يلوى على شئ ، وإنما يحياها لأنها فرضت عليه فرضا ، لا يكترث لمال أو عمل أو زوج أو نسل ، يواصل السير فيها وهو يتخبط بين جدران أسرار الكون والفناء ، لا يستبين حلا مرضيا لمشاكلها يحس بمرارة العاجز عن إدراك سر غامض لاسبيل إلى جلائه ولا إلى تبيان كنهه ، فهو ثائر لا تخمد له ثورة ، ينهال على الحياة سبا وقذفا ، يمطرها وابلا من اللعنات فاقد الأمل فى المستقبل ، شاعر بحنين غريزى إلى الماضى إلى البداءة . لذلك فهو لا ينفك يصيح ويصرخ ويرغى ويزبد فى أسلوب من نار يقذف القارئ فى أحضان تيار جارف لا قبل له بمقاومته وسط عباب متلاطم من الالفاظ الفظة الخشنة ، بل وسط طوفان من الذكريات والاستعارات والصور والرموز التى تتمخض عنها مخيلته الخصبة المريضة . ثم يسترسل بلا رحمة ، لا يدع لك سبيلا للتنفس أو التنهد ، حتى ينتابك دوار فتقف ذاهلا مشدوها متعبا .

استمع إليه مثلا يحدثك عن فلول المجهولين الذين يلتقى بهم فى مكتبه كل يوم وهم من المتعطلين الذين يبحثون عن عمل ، وقد نيط به عرضهم جميعا لانتقاء من يأنس فيه الكفاية وطرد الباقين رغم إلحافهم . يقول ميلر :

« خرجت من مكتبى ثقيل الرأس وما زالت مشاهد اليوم التى مرت على ناظرى عالقة بذهنى . كنت أتخيل ذلك الجيش من الرجال والنساء والأطفال . كنت أتخيلهم وهم يبكون ويصلون ويتوسلون ويستعطفون ويحلفون ويبصقون ويغضبون ويهددون . كنت أراهم وهم يتسلقون خلسة قطارات البضاعة . كنت أرى الأكواخ القذرة التى سيأوون إليها والأهل العراة ودلو الوقود الفارغ وعرق الحوائط والصراصير المتسابقة ، كنت أراهم وهم يقفزون كالأقزام أو يهوون على الأرض . كل هذا على حين يستوى السادة الرؤساء على مقاعدهم الوثيرة تخورين بصلابة منطقهم مدللين مسلحين بازدرائهم واحتقارهم متقمصين تعاليم وخيلاءهم ، أقدامهم على المكاتب وفى أفواههم سيجار ضخم » .

وكثيراً ما يتملك ميلر الشعور باليأس والقنوط وتفاهة ما يبذل من جهد للتعلق بحطام دنيا لم يقرها ولم يلتمس دخولها ، فيسأم الحياة وقد ألفاها مملة مضنية لا معنى لها وتساوره أفكار مظلمة قاتمة ممضة كالندم ، يشعر أنه لن يبلغ نفسه أبدا ، ويرغب عن الكفاح ويزهد فى الدنيا وينكشف له العدم ويردف مناجيا نفسه فى حيرة مؤثرة :

« لم ذاهب أنا إلى عملى ؟ فيم أرغب هذه الليلة ؟ لم لا أهرب إلى بلاد آلاسكا للبحث عن الذهب ؟ لم لا أنزح إلى الغرب فأصبح من رعاة البقر ؟ لم لا أغادر القطر حتى لا أعود أدراجى إلى الوراء ؟ أأقفز فى النهر لا لتهى لأخوض فيه ، لأغوص فيه ، لا تردى فيه حتى القاع إلى آن يتلوث جسمى بطين القاع بين الأسماك التى تحوم حولى تقضم أعضائى وتنهش فيها . وغداً أحيا حياة جديدة . أين ؟ فى أى

جهة ؟ ولكن ما الفائدة من تكرار نفس الشئ دائما أبدا ! الفناء الموت هو الحل الوحيد . ولكن صبرا . ولم لا أمنح نفسي مهلة يوما واحدا ؟ ومن يدرى ! ربما يتغير حظى ، وجه جديد ، صديق جديد ، حظ سعيد . ما زلت فى مقتبل العمر ساعة يأس إنك لا تدرى مرادك ، وعلى العموم فان الناس لا يبالون بك على أى حال أحييت أو مت . . . . »

لا يسعنى إلا أن أحجم على مضض عن إيراد نبذ أخرى من كتاب « مدار الجدى » حتى أعود إلى تحليل نفسية المؤلف ومأربه النهائي للوقوف على مشربه الروحى .

لا يخفى على القارئ أن فلسفة هنرى ميلر فلسفة فاتكة هادمة ، ولكن ميلر لا يلجأ إلى المعول كى يقيم على الأنقاض شيئا جديدا ، إذ ليست له أية أفكار إنشائية وإنما هو يكتفى بالهدم والافناء . ويحس المرء أنه أينما سار ميلر ترك وراءه الفراغ والعدم ، فهو لم يبق شيئا ولم يضن بشئ وإنما هاجم المبادئ والعادات والتقاليد والأخلاق ، والثورات المنظمة المحكمة ، والأديان هاجمها بعنف شديد وجعل منها ترابا وسط جلجلة ملحمة دامية وضوضاء صراع مميت . وهو لا ينى ولا يكل حتى يقضى على ما يدعى مدنية ، ويتركنا حيارى جزعين مبلبلى الافكار تجاه أنقاض دارسة وعدم لا خلاص منه .

ولا يفوتنى أن أشير إلى نبذة قصيرة من كتاب آخر له عنوانه « الربيع الاسود » لما فيها من دلالة واضحة على ما استنبط من عقليته .

« من الجائز أننا متفى علينا وأن لا سبيل لنا إلى أى أمل البتة لأى شخص منا . ولكن ما دام الأمر كذلك فعلينا أن نصيح صيحة مدوية ، صيحة أخيرة ، صيحة المبرح تثلج الدم فى الشرايين لنصرخ صرخة تحد تقطع الاوصال صرخة حرب . »

ويعد هنرى ميلر على حق فريدا فى نوعه ، إذ شق طريقه فى الأدب ولم يسر على درب السابقين . وهو بين الحين والحين ينشر كتابا أو مقالا أو بحث كما يلقى الفوضوى قنبلة . ولا يدانيه فى أسلوبه وآرائه فى اعتقادى إلا الكاتب الفرنسى لويس فرديناند سيلين L. F. Céline فى كتابه الشهير « رحلة إلى أقصى الليل » *Voyage au bout de la nuit* وقد أحدث ضجة واحتدم الجدال حوله كما يحتدم اليوم حول جميع مؤلفات ميلر . وقد شبه الناقد الفرنسى المعاصر موريس بلانشو M. Blanchot فى مقال له ظهر فى مجلة « لارش » *L'Arche* هنرى ميلر بشاعر فرنسى غامض عاش فى القرن الماضى وهو الكونت دى لوتريامون Comte de Lautréamont مؤلف كتاب « أغانى مالدورور » *Les Chants de Maldoror* وعكف على المقارنة والمفاضلة بينهما ، فأبان مثلا أن الشاعر الفرنسى كان أرق حسا منسجما فى حديثه لا يبدو مشتت الفكر زائغه كما هو الحال بالنسبة لميلر ، على أنهما من جهة أخرى التقيا فى صعيد واحد وهو اللجوء إلى قسوة وإقذاع وعنف يندر أن يعثر الباحث على مثلها فى كتب الأدب الحديث أو القديم .

وقد أجمع النقاد على تجريح ميلر بسبب جنوحه إلى الأدب المفضوح واستعماله ألفاظا نابية وإمعانه فى وصف تفاصيل مواقف غرامية من الناحية الجنسية وصفا تشمئز منه النفس الرقيقة . ويلوح لكثيرين منهم أن الأمور الجنسية متسلطة على عقل ميلر وتفكيره تسلطا يفسد عليه أروع صفحات كتبه ويدع القارئ يتسائل فى شيء من الغرابة أيرمى المؤلف بتوغله فى المسائل الجنسية إلى إحراجه فى حياته . ولم يفت بعض النقاد المناوئين لهنرى ميلر أن يتذرعوا بهذا العيب للقمه حجرا منددين باسفافه وإباحته وخشه

المتعمد الذى ينزل بادبه إلى مرتبة الأدب الرخيص المبتذل . ولكن ميلر رد عليهم فى مقال طويل نشرت مجلة « فونتين » الفرنسية ترجمته وأشارت إليه مجلة «الكاتب المصرى» فى عدد شهر يناير سنة ١٩٤٧ .

ويلوح لى أن الأدب المعاصر عامة يزداد ميلا إلى العنف والقسوة ؛ لأنه وليد حروب وثورات وقلاقل فهو مرآة تنعكس فيها نوازع نفوس حائرة مزعزعة متشككة تبحث عن أوضاع متينة وقيم ثابتة تتلمس السبيل إلى الاتزان والبقاء ، فتطوح بها الأحداث إلى العدم والفناء .

فؤاد رصفى أبو الدهب

من وراء البحار

الموسيقى فى ألمانيا

إنه لما يسر المحبين للانسانية أن يسمعوا بأن الألمان أخذوا يستيقظون تدريجيا من آثار الهزيمة . فى عدد ديسمبر من مجلة «القرن التاسع عشر» الانجليزية وصف للحياة الموسيقية فى ألمانيا بقلم جاك بورنوف . ومن هذا الوصف يتبين لنا المجهود الذى يبذل للعودة إلى الحياة العادية . ويصف الكاتب بنوع خاص ما يجرى فى منطقة الاحتلال البريطانية . على أنه يحذرنا فى بدء مقاله من اتخاذ مظهر الألمان وإقبالهم على مؤلفات موسيقية خاصة دليلا على اتجاه جديد . فقد اعتاد الألمان فى مدى اثنى عشر عاما أن يلقنوا الآراء التى يبدونها . وهم لا يزالون إلى حد كبير معتادين ذلك ، وليس من السهل إقلاعهم عن هذه العادة . فهم يؤثرون أن يتجهوا اتجاهات صاحب السلطان فى ميولهم . ولذلك نرى أن مؤلفات الموسيقيين البريطانيين صار لها مكان بارز فى المنطقة البريطانية ، بسبب رغبة السلطات فى ذلك ، وبسبب رغبة الألمان فى إرضاء هذه السلطات .

لقد وقفت الحياة الموسيقية فى ألمانيا وقوفا تاما أثر التسليم ، بسبب تدمير أكثر دور التمثيل الموسيقى والحفلات الموسيقية . وانصراف الناس إلى تدبير الضروريات لحياتهم . ولكن الموسيقى الآن استيقظت بأكثر مما يتناسب مع الحياة الاقتصادية . والسبب فى هذه اليقظة يرجع إلى عوامل ثلاثة : أولها المساعدة التى يلقاها هذا النشاط من القوات المحتلة فى المناطق الأربع . ثم نشاط الألمان ودأبهم كدأب النمل فى عمله . ثم إخلاص الألمان للموسيقى وتعلقهم بها .

وصارت همبرج الآن مركز النشاط الثقافى فى المنطقة البريطانية ، وقد أقيمت فيها أول حفلة موسيقية عامة بعد خمسة أسابيع من الاحتلال أقامتها فرقة فيلهرمونيك بهمبرج فى قاعة كبيرة لم يصبها شىء من الدمار . وكثيراً ما أشيع فى الخارج يومئذ أن الاحتلال شرد الكثير من الموسيقيين ، والواقع غير ذلك . ولم تفقد الجوقة الموسيقية من أعضائها أكثر من بضعة عشر موسيقياً . وهذا هو السبب فى المستوى الرفيع الذى ظل محتفظاً به بين العازفين الألمان فى هذه الحفلة ، وإن كان قائد الجوقة ضعيفاً . وما انتهى خريف ذلك العام حتى كانت تعمل فى همبرج فرقتان موسيقيتان ، وهما فيلهرمونك والأركسترة السنفونية لشبكة محطات الراديو فى الشمال الغربى لألمانيا ، وهى فرقة ألفتها السلطات البريطانية .

على أن همبرج تأخرت عن المدن الاخرى فى المنطقة البريطانية وفى غيرها من مناطق الاحتلال فى تمثيل الروايات الموسيقية «الأوبرا» ، ومع ذلك استأنفت هذا النشاط فى شهر يناير الماضى ، وهو مما لا يكاد يصدق إذا لاحظنا الأحوال التى كانت سائدة عندئذ ؛ فقد احترق قسم الجمهور من مسرح الاوبرا الحكومى ، ولكن القسم الباقى فيما وراء الستار الحديدى ، وهو الخاص بمسرح من أكبر المسارح الأوربية ، وفيه معدات من أحدث ما يستعمل ، ظل سليما . ولما كانت مواد البناء قليلة فقد تعذر بناء قسم وقتى للجمهور مع استعمال ما سلم من المسرح . وعلى ذلك أقيم فى الجانب الاخر مكان يسع

ستمائة متفرج ، ومكان للجوقة الموسيقية يسع نحو ستين عازفا . ومن الغريب أن هذا البناء الخشبي كان آية فى نقل الصوت .

ومما يدل على نهضة الحياة الثقافية فى همبرج أن أقيمت فى يونية الماضى سلسلة حفلات موسيقية ومسرحية ، وكان المستوى فيها عاليا بحيث تعتبر حدثا جديرا بالذكر فى أى وقت من أوقات السلم . وعزفت قطع موسيقية مختلفة ، ومثلت روايات موسيقية عدة منها رواية برسل الموسيقار الانجليزى القديم : «ديدو وإنياس» ، والرواية الراقصة للموسيقار الألمانى هندمث : « الخيال النبيل » ولعل المانيا لم تشهد فى السنوات الأخيرة ما يماثل برامج هذه الحفلات فى حسن الاختيار .

ولا يقتصر النشاط فى المنطقة البريطانية على همبرج وحدها ، ففى كولونى مدينة نهر الراين ، حيث تهدم أكثر الدور ، استعملت القاعة الكبرى فى الجامعة للحفلات الموسيقية وتمثيل «الاوبرا» ، وأعيد تأليف فرقة « جورزنيخ » الموسيقية ، وإن كانت القاعة الشهيرة الذى استمدت الفرقة منها هذا الاسم قد دمرت . وفى برنسفيك نشط المدير الموسيقى هانز شتروهباخ فأخرج بعض المؤلفات الحديثة .

والحال فى المناطق الأخرى لا تقل عن المنطقة البريطانية ؛ ففى مونيخ عزفت عدة مؤلفات موسيقية كبيرة ، من بينها السنفونية الثانية من تأليف ماهلر ، وهى تحتاج لفرقة موسيقية وجوقة غنائية . وفى برلين استأنف كل من فرقة الأوبرا الحكومية ، وهى واقعة فى المنطقة الروسية ، وفرقة أوبرا شرلوتنبرج الواقعة فى المنطقة البريطانية ، نشاطهما فى مسارح أخرى . وخسرت فرقة فيلهرمونك برلين بعض أعضائها بسبب نظام التطهير من النازية ، ولكن مستواها لم يزل عن عادته . ومما هو جدير بالذكر أن السواد الأعظم من مهرة العازفين لم يكونوا من النازى إلا بالاسم . وأكبر قواد هذه الفرقة الشهيرة هو الآن شاب رومانى اسمه سرجيو سليبداك . ولكن الناس يلحون فى عودة فورتفانجلر .

ولقد قوبلت سياسة تشجيع الموسيقى من الموسيقيين الألمان بالترحاب ؛ لأنهم استطاعوا الآن أن يتنفسوا ريح العالم الخارجى . وهم منصرفون إلى تعرف المؤلفات الموسيقية التى كانت محرمة عليهم فى عهد النازى ، واكتشاف المؤلفات التى كانت مهملة ، ولقد أبدى أحد مشاهير العازفين على البيانو حماسة كبيرة فى العودة إلى أناشيد شومان المسماة «حب شاعر» وكانت هذه الاناشيد محرمة ؛ لأن صاحب الشعر هو هينى الشاعر الألمانى اليهودى . وتعزف الآن فى كل الأماكن قطعة مندلسوهن للكمنجة وهى أيضا كانت محرمة بسبب أصل مؤلفها . ومما يلاحظ بهذه المناسبة أن نسبة الذين يجيدون العزف على الكمنجة من اليهود كبيرة . ولذلك لم يبق فى المانيا من مشاهير العازفين على هذه الآلة الموسيقية غير قلائل . ومما يلاحظ أيضا أن المانيا لم تحدث حدثا جديدا فى التأليف الموسيقى أثناء السنوات العشر الأخيرة ، وأن المؤلفين المعاصرين متأخرون عن أقرانهم فى البلاد الأخرى ، ما عدا الموسيقار ريكارد شتراوس ، الذى بلغ الآن الثانية والثمانين من العمر ، وهو يشرف على تقلبات الحياة الألمانية من علٍ . لذلك قابلت الدوائر الموسيقية مؤلفات الموسيقيين الألمان الذين عاشوا خارج ألمانيا باهتمام . ويتوجه هذا الاهتمام بصفة خاصة إلى هندمث ، فمؤلفاته تسمع فى كل مكان . وقد دعى إلى برلين ليتولى إدارة الأكاديمية الموسيقية . واهتم الموسيقيون أيضا بمؤلفات ستراڤنسكى . ويهتمون أيضاً بمؤلفات المعاصرين من الروس.

والظاهر أن السلطات المحتلة فى جميع المناطق تتبع طرقا واحدة فى تشجيع النشاط الموسيقى ،

والخلاف بين هذه السلطات أقل فى هذا الناحية منه فى نواح أخرى . على ان فكرة تطهير الحياة الموسيقية من النازى قد بولغ فيها فى بعض المناطق . ولذلك نجد مثلا أن المنطقة البريطانية طردت جماعة من أمهر العازفين وهم الآن يبدون نشاطا موسيقيا كبيراً فى المنطقة الفرنسية ، فى حين أن الروس احتفظوا بجميع مشاهير المغنين فى دار الأوبرا مع أنهم كانوا مشهورين بميولهم النازية . والأمريكان أيضاً يعملون على إبعاد الموسيقيين الذين شغلوا مركزاً هاما فى زمن النازى . ولقد تضايق الألمان من إبعادهم الموسيقار فورتفانجلر مع أنه نال شهرته حتى قبل عهد النازى ، ولا تزال شهرته كبيرة حتى الآن ، ومع أنه اظهر شجاعة فى أول عهد النازى حين رفض أن يفصل اليهود من أعضاء فرقته الموسيقية ، واستقال من منصب ثقافى كبير فى سبيل الدفاع عن الموسيقى هندمث . وإذا كان قد شغل فيما بعد مكانا بارزاً فى حياة الموسيقى فى عهد النازى ، فذلك بسبب كفايته الممتازة ، ولا يعرف عنه أنه اهتم بالسياسة .

وهكذا نرى الألمان فى محنتهم لم ينسوا الموسيقى وما لها من تأثير كبير فى حياتهم اليومية .

فن الحديث الصحفى

كتب إميل لدفيج الكاتب الألمانى الشهير مقالا ممتعا فى مجلة « ريفى دى بارى » — عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ — عن فن الأحاديث الصحفية وهو يرى أن هذا الفن من أمتع الوسائل الصحفية و ظرفها ، وأنه ليس مجرد نقل حديث كما قيل حرفيا بل إنه يحتاج إلى فن وأسلوب أكثر مما يعتقده القارئ العادى .

وأول خطوة فى هذا الفن هو إظهار البساطة ، وذلك ما يمتاز به الصحفيون الأمريكيون . فان مشاهير الرجال يؤثرون بأحاديثهم للصحفى البسيط على الرجل المتعالم الذى يناقشهم القول .

وذكر الكاتب أمثلة من حياته عندما كان صحفيا مبتدئاً أثناء الحرب العالمية الأولى ؛ إذ عهد إليه فى التحدث إلى عدد كبير من الأمراء والقواد ورجال السياسة ؛ وكان قليل العلم بأمور السياسة ، فكان يوجه إليهم فى بساطة أسئلة يتحاشاها عادة العالم بالأمور . كان يسأل أحدهم لماذا تصرف أمس مثل هذا التصرف ، فكان بمثل هذه الأسئلة البسيطة يفتح له القائد أو السياسى قلبه .

ويقول لدفيج إن من الواجب على الصحفى أن يدرس أخلاق العظيم الذى يريد أن يتحدث إليه بكل الوسائل الممكنة . والصور الفوتوغرافية هى ضرورة أساسية ؛ ففيها تظهر خصائص الرجل على وجهه بالرغم من إرادته .

ومن الواجب على الصحفى أن يجذب إليه اهتمام المسئول ، فلا يقنع بمجرد السؤال والجواب ، إذ من الخير فى هذه الحالة أن نفضل الأسطوانة الحاكية . فليس الغرض أن يذكر المتكلم آراءه ، بل الغرض الحقيقى هو طريقة الحديث وحالته العقلية عند الافضاء بالحديث . فقد لا يهمنا سؤال مركونى مثلا ماهى عواطفك عند اكتشافك التلغراف اللاسلكى ، بقدر مايهمنا سؤاله كيف حدث أن قضيت أنت وغيرك من العلماء سنين عديدة إلى جانب هذا الاختراع .

وذكر لدفيج أنه استطاع أن يمضى عدة أيام فى حديث مع أديسون المخترع الشهير

وأخذ منه أجمل الاجابات ، وذلك لأنه لم يمس قط الجانب الفنى . وقد وجد فيه رجلا ذا شعور حساس ، تكفى مجرد الاشارة ليفتح كنوز عقله . ففى ذات مرة كان يتحدث إليه فى وحدات لينتز وشبهها بما كان من أمر فاوست . وعلى حين فجأة أمسك بيد امرأته التى كانت جالسة إلى جانبه وقال ضاحكا : « وهذه هى مرجريت » .

ويجب ألا يتحدث الصحفى إلى المثرى الكبير فى أمر قيمة النقود ، بل يدفعه إلى الكلام فى هذا الأمر بوسيلة أخرى . وروى لدفيج أنه دفع روكفلر مرة إلى هذا الحديث بأن قص عليه مسامعه قصة صغيرة . وتحدث لدفيج مرة إلى ميلون المثرى الصموت وصاحب البواخر العديدة ولقبه فى أثناء الحديث بتاجر البندقية ، فكأنه فك بذلك عقدة لسانه وسمع منه أبدع القصص عن بواخره وثروته .

وكان يتعشى ذات مرة فى نيويورك مع عشرين من كبار الرجال ذوى النفوذ فى أمريكا ، وكان هو الوحيد بينهم الذى لا يملك مالا ، وقد أراد أن يصل إلى قصص ارتقائهم ، فروى كيف قام ذات مرة فى سويسرا برحلة لارتقاء الجبل الأبيض الشهير ، وكيف بلغ القمة بعد تعب كبير ، ولكن الجو كان بارداً والهواء لافحاً ، فنزل فى أسرع وقت . ووجه إليهم الحديث سائلا هل هذا شأنهم فى علوهم الآن ؟ فنظروا إليه وكأنما كانوا ينظرون إلى معتوه ، ثم أخذ الواحد منهم بعد الآخر ، ومنهم شواب وكاهن ولورز ولامونت ، يروى كيف تسلق قمة المجد فى صعوبة وتعب ، ولكنه حين بلغها ، وجد الدفء والسماء الصافية . وكانوا بعد ذلك يفتحون له قلوبهم فى كل فرصة .

فالواجب إذن على الصحفى المتحدث أن يظهر شيئاً من البساطة بل الغفلة . وقد حدث للدفيج ذات مرة أن دفع هنرى فورد القليل الكلام إلى النطق بعبارة تسترعى النظر . فقد كانا سائرين فى الطريق ، فرأى لدفيج سيارة صغيرة فأخذ يمتدحها ، ولكنه سأل سؤال المتجاهل : « أظن هذه السيارة أكبر بعض الشىء من النموذج الذى تخرجه مصانعك ؟ » فاستولى على فورد شعور الأم التى ترى تجاهل أبنائها فتحركت عيناه حركة خاصة ، وقال : « إنها إحدى سياراتى . لقد أخرجت ١٤ مليوناً مثلها » وفى هذه العبارة القصيرة وصف حياة جد طويلة ودل على خيال واسع .

ومن الطرق التى يراها نافعة للصحفى المتحدث إذا أراد مقابلة عظيم أن يتعرف إلى خصومه ، والغرض من ذلك لا تصديق أقوالهم فيه بل معرفة ما لديه من المسائل الحساسة التى تثيره وتدفعه إلى الرغبة فى الحديث ويجب ألا يشتم العظيم رائحة الخصوم ، بل يجب الحذر غاية الحذر فى هذا الأمر ، فقد حدث أن قابل صحفى ألمانى موسولينى وسأله « ماذا يحدث يا صاحب السمو بعد وفاتك ؟ » فانتهت المقابلة عند هذا الحد .

ولعل الصحفى الذى خبر التأليف للمسرح يكون فى يده سلاح قوى ، فالكتابة للمسرح تقتضى إدارة الحوار فى مهارة وبطريقة نفسانية ، وإن كان المتحدث لا يذكر الحوادث الماضية كما يفعل المؤلف المسرحى . فقد ذهب لدفيج ذات مرة إلى لندن خاصة ليحادث لورد جراى وزير الخارجية البريطانية عند ما أعلنت حرب سنة ١٩١٤ على ألمانيا ، واجتمع به فى حفلة غداء ، ودار الحديث على جلسة مجلس العموم فى اليوم السابق . وقد جاء فيه ذكر خلاف برز بين الوزراء ، وأخذ لورد جراى يشرح الموقف ، فقال لدفيج وكأنه يتحدث لنفسه : « هذا شبيه بموقف يوليه سنة ١٩١٤ » وقال هذه العبارة فى صوت خفيض ولكنه مسموع ، وإذا باللورد بعد الغداء يتنحى به

ناحية ويتكلم فى إسهاب ليسوغ موقفه فى تلك الفترة الخطيرة ، وكيف أنه لم يكن ليستطيع منع سير الحوادث إلى الحرب . ولو ان لدفيج ذكر هذا الخلاف رأساً للورد على صورة سؤال لتلقى ردا قصيرا فاتراً ولما استرسل اللورد فى الحديث .

وكثيراً ما تكون العبارة القصيرة التى تلقى إلقاء أبلغ أثراً من الأسئلة الطويلة فى اجتذاب الحديث . ولذلك ربما كان الصحفى الصموت القوى الملاحظة أنفع من الصحفى الدرب اللسان الذى لا يلاحظ الظروف والواقع أن الاذن تخطىء أكثر من العين . ولقد لاحظ لودفيج ذات مرة كالنين رئيس الجمهوريات السوفيتية فى مأدبة فخمة فيها الوان من الطعام الشهى يكتفى بحساء بسيط ، مما يدل على أن هذا المزارع أصلا لا يزال محافظا على التقشف . كما رأى تروتسكى ذات مرة ينلق نافذة فى عناية بالغة مما يدل على أنه رجل عمل قبل أن يكون رجل نظريات وفلسفة . ولاحظ أيضا أن جميع الدكتاتوريين تكون أيديهم عادة ناعمة ومعتنى بها بالرغم من أنهم قضوا زمناً عمالا ، وذلك يدل على انصرافهم للتفكر أكثر من العمل . وفى سنة ١٩١٦ كان حاضراً وليمة عشاء ، فلاحظ نظرة ألقاها الجنرال فون سيكت الالمانى على رئيسه فون ما كنزن ، ومن هذه النظرة عرف أنهما على غير وفاق ، وظهر عداؤهما سافراً فيما بعد .

ومن الصعب إيجاد الاتصال الواجب إذا كان المتحدثون من ذوى المراكز العالية . فستالين مثلا كانت تترجم له أقوال محدثيه وذلك مما يجعل الاتصال الشخصى يكاد يكون مستحيلا . أما الملك فيكتور عمانويل ملك إيطاليا السابق فقد حادثه لدفيج باللغة الايطالية ولكنه ظل متحفظاً ، ودار الحديث على بسمارك الوزير الألمانى الشهير ، فقال للملك : « إنه عمل كل شىء بمفرده » ، وحينئذ قال لدفيج إن الفضل للامبراطور غليوم الاول الذى اختاره . فسأله الملك فجأة : « هل اختاره حقا ؟ » ومن هذا السؤال عرف الصحفى مركز الملك من وزيره موسولينى .

وفى سنة ١٩٣٢ أراد لدفيج أن يضع كتاباً عن موسولينى ، فظل مقيما فى روما واستأذن الدكتاتور فى أن يلازمه بعد الظهر مدة أسبوعين ويحدثه مرات ، وكان قد أعد سلسلة من لاسئلة والاجابات المحتملة عنها ، وكان يسجل كل عبارة وكل تغير فى ملامحه أو إشارة من يده ، وكان موسولينى يجيبه إجابات واضحة . وقد شعر بالتعب من هذه الجلسات أكثر مما ظهر على الزعيم الايطالى . وكان الزعيم يقبل معارضته له فى بعض المسائل بسعة صدر على أن لدفيج كان لا يعارضه فى حضرة ثالث .

ومما يرتاح له الدكتاتوريون أن يقارن بينهم وبين نابليون وقد تمكن لدفيج بمثل هذه المقارنة من أن يجتذب إليه الزعيم التركى كمال باشا ، فانطلق لسانه فى الحديث وأخذ يشرح بعض نقائص نابليون وكيف يمكن اجتناب مصيره

وقابل لدفيج فى سنة ١٩١٥ زعيما تركيا آخر هو أنور باشا وأراد أن يجرى تجربة معه ، فبينما هو يتحدث إذ بالصحفى يضع يده فى جيبه فجأة ، فاذا بالزعيم يفعل مثله . وكان من الظاهر أن الزعيم قبض على مسدس فى جيبه إذ خشى الاعتداء عليه . وقد جرب الصحفى مثل هذه التجربة مع ستالين وموسولينى ولكنهما كانا ثابتى الجنان مع أنهما يحملان سلاحا بلا ريب ، ولكنهما كانا من النباهة بحيث فهما أن الصحفى إنما أقدم على تجربة .

وسأله ستالين سؤالا عجيبا ذات مرة بعد أن قضى معه ثلاث ساعات . فقد قال له : أحب أنا أيضا أن أوجه إليك سؤالا هاما . إنك ستربح نقوداً بفضل هذا الحديث . فهل أنت على استعداد لهبة شىء من المال الذى

تربحه للأطفال الألمان المعوزين ؟ وقد دفع لدقيج بعد ذلك ، إذ ربح شيئاً من المال ، جزءاً منه لجمعيات الأطفال ، وأرسل الايصال للزعيم الروسى .

ويقول لدقيج إن قداسة البابا هو آخر زعيم يحتفظ بتقاليد الماضى ، إذ يجب لمقابلته الذهاب فى سترة سوداء عند الظهر والركوع والانتظار حتى يسمح لمحدثه بالقيام إذا رغب فى ذلك . وكان البابا السابق يترك محدثه راكعا ، وبذلك كان الحديث يكاد يكون مستحيلا . أما البابا بنديتو الخامس عشر فهو سياسى قدير وسيد كبير . كان يتحدث بحماسة فى الموضوع السياسى الذى يثار بقوة وحرارة .

وكان روزفلت طبيعيا فى حديثه ويحب الفكاهة والنكات ، ولكن يجب أن يظهر المتحدث لباقة ؛ فقد لمح أحد الحضور ذات مرة بين يديه إلى فض ثم تمزى إليه فى شيكاغو عند ما رأى تبسطه فى الحديث فامتقع لونه امتقاعا شديداً .

ويعتبر هنرى والاس الآن من خيرة رجال الولايات المتحدة ، وهو أيضا من الذين يحبون الفكاهة ، وهو يستطيع التحدث إلى الفلاحين وعامة النـاس والاختلاط بهم فى بساطة .

والجنرال باتون يكلف بالتصنع ، ومع ذلك لا يتحرج من السخرية من نفسه ، فقد روى للدقيج ذات مرة أنه عند ما عبر نهر الراين فى سنة ١٩٤٤ ارتمى على الأرض كما فعل سيبيون القائد الرومانى ، وقال إنه فعل ذلك تقليداً للأسطورة .

وحدث للصحفى لدقيج ذات مرة حادث غريب ، وهو أنه قابل هنرى بوردو الكاتب الفرنسى المعروف ، وكان الحديث ظريفاً طبعا ولكن عندما خاضا فى السياسة أبدى الكاتب الفرنسى تحفظا فأفهمه لدقيج أنه لا ينوى نشر هذا الحديث السياسى وأخذ لدقيج يكلمه فى بساطة . وبعد بضعة أيام يجد هنرى آراءه منشورة فى إحدى المجلات الباريسية ، فاذا بالرجل الذى ظنه خائفاً فوعده أن لا يفضى بشىء قد خدعه وأخذ منه حديثا .

ظهر حديثا

الفلسفة الاوربية فى العصر الوسيط للأستاذ يوسف كرم (دار الكاتب المصرى)

لقد بدأ الأستاذ المؤلف سلسلة مباركة عام ١٩٣٥ ، فأرخ للفلسفة اليونانية فى كتاب عد — ولا يزال — من أدق وأكمل مصادرها الحديثة فى العربية . وبقينا نتوقع أن يتابع الخطى ويستمر فى السير ، خصوصاً وفى الحلقة الأولى ما يشوق إلى حلقات تليها وترتبط بها . وها هو ذا يحقق رجاءنا ، ويقدم لنا « تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط » فأضاف حلقة أخرى فى تكوين السلسلة الذهبية التى ينشدها لتاريخ الفكر الفلسفى .

وقد قسم كتابه هذا إلى مقدمة وأربعة أبواب : فعرض فى المقدمة للفلسفة المدرسية فى خصائصها ومميزاتها ، وحاول فى الباب الاول أن يبين أساتذتها وأصولها ، وفى الباب الثانى أن يشرح عوامل تكوينها ، وفى الباب الثالث أن يوضح مظاهر أوجها واكتمالها ، ثم انتهى به المطاف فى الباب الرابع إلى وصف مظاهر انحلالها وتلاشيها . وهكذا بدت هذه الفلسفة على يديه فى صورة كائن حى مر بأدواره الطبيعية : من نشوء وتكون ، إلى كمال ونضج ، ثم إلى تدهور وانحلال .

ولسنا فى حاجة أن نعرف بمؤلفنا فى أسلوبه ومنهجه ؛ فقد امتاز بالضبط والدقة التى لا تعرف للحشو مجالا ولا تترك للتردد محلا ، دقيق اللفظ مضبوط العبارة ، فى غير ما غموض ولا تعقيد ؛ وما أحوج العلم إلى ألفاظ دقيقة تؤديه وعبارات مضبوطة لا تشوه معالمه . وأما منهجه فتطبيق للمنهج التاريخى فى صدق ونزاهة ، فلا يصدر إلا عن المنبع الاول ، ولا يحكم على فيلسوف إلا فى ضوء ما قال وما كتب . وهو فى كل هذا مرتب منسق ، يقسم الباب إلى فصول ، والفصل إلى أعداد ، والعدد إلى فقرات ؛ تبويب محكم وسير منظم .

وليس بيسير أن ترتب الفلسفة المدرسية المسيحية وتبوبها ، لأنها تصدق على مرحلة طويلة من الزمن ، فتبدأ من القرن الرابع الميلادى وتمتد إلى القرن الرابع عشر . عشرة قرون أو تزيد تتلاحق فيها الآراء والأفكار ، وتتشابه الشخصيات والمدارس ، وقل أن تحظى فيها بعبقرية ممتازة ، أو تجديد بارز يخرج على القديم المألوف ؛ وفى هذا ما يحول دون وضع الفواصل المحكمة بين جيل وجيل ، ولا بين مدرسة وأخرى .

ومفكرون هذا شأنهم لا يأنفون من أن يقفوا طويلا عند الدارج والمألوف ، ولا ينفرون من بعض الغريب والمستهجن . وكثيراً ما يردد بعضهم بعضا ويكررون ويعيدون ، أو يجمعون ويلفقون . وليس شىء أثقل على المؤرخ من أن يجاريهم فى سيرهم ويحاول أن ينقل صورة صادقة عنهم ، ومهما لخص واستخلص ونقح وهذب فلا أصل عليه دون نزاع تأثير .

ولعل هذا هو السر فيما نلحظه لدى مؤلفنا من وقفات كنا نود لو قصرت ، وأسماء ربما كان الأولى أن يمر عليها مر الكرام . ويظهر أن متابعته للقرون فى تلاحقها تفى

عليه بأن يسرد فى كل قرن طائفة من أسمائه، كيفما كان وزنها ونوعها. وأخشى ما أخشاه أن تطغى مدارس وأشخاص من الدرجة الثانية أو الثالثة على تلك التى تعد فى الدرجة الأولى. وعلى كل يشعر القارئ بأنه كان فى حاجة إلى بيان أتم وتوضيح أكثر للخصائص العامة والمميزات الرئيسية للجيل أو المدرسة، بدل تتبع بعض الأفراد فى حياتهم ومؤلفاتهم. ولا شك فى أنه يفيدنا أن نقف على حركة بعض الآراء والنظريات الكبرى، لا أن نضل فى ثنايا بعض التفاصيل والجزئيات.

ومهما يكن من أمر هذه الملاحظات، فان «تاريخ الفلسفة الاوربية فى العصر الوسيط» لوحة مستوعبة للفلسفة المسيحية، وقد سد نقصا كنا نحس به جميعا فى اللغة العربية. وسيجد فيه طلاب الفلسفة الاسلامية مجالا لمقارنات وموازنات كثيرة، وسيدركون أكثر من ذى قبل أن فلسفة القرون الوسطى — مسيحية كانت أو إسلامية أو يهودية — تخضع لعوامل متقاربة ومتشابهة. وكم نود لو وقف مؤلفنا الفاضل عند أوجه التشابه والتقارب هذه، ولو قليلا، ولكنه آثر فيما يظهر أن يرجئها إلى حلقة أخرى من سلسلته المتصلة.

وإنا إذ نقدر ونسجل مجهوده الحالى نرجو له دوام العافية والتوفيق ليتحفنا بثمار جهوده المستقبلة.

ابراهيم مدكور

أقوالنا وأفعالنا للأستاذ محمد كرد على (دار إحياء الكتب العربية — القاهرة)

وهذه أيضاً طائفة من المقالات ولكن بينها وحدة جامعة، فالكتاب كما قد يدل عليه عنوانه يتحدث فى موضوع واحد، فهو يصف العادات والأخلاق فى بلاد العربية، والحال العامة فى الأقوال والأفعال كما رآها رأى العين أو رأى العقل فى هذه البلاد. وهو فيما يصف من تلك الحال يقصد إلى الاصلاح والنقد فى أسلوب صريح قد يجد فيه بعض القراء لونا من العنف أو نوعا من الاسراف، ولكن رجلا فى مثل مقام الأستاذ محمد كرد على قد اجتمع له ما اجتمع من التجارب ومر به ما مر من الأحداث وشاهد ما شاهد من الصور — من حقه أن يعنف فى النقد وان يسرف فى الملامة، وألا يصطنع المجاملة فى الحديث.

ولقد يخيل إلى — وإن لم عرف الأستاذ محمد كرد على معرفة الصاحب والعشير — أنه رجل صريح الرأى فى الناس، لا يكاد يخفى على أحد رأيه فيه وإن اغضبه ذلك الرأى وساءه. عرفت ذلك من بعض ماقرأت فى هذا الكتاب من صور الناس؛ فانه ليصف بعض أصحابه صفات أحسبها لا ترضى أحداً منهم لو عرف، وهو مع ذلك لايحاول أن يلقى على بعض من يصف حجاباً يحول دون معرفته باسمه ورسمه؛ فلو شاء القارئ لوضح اسم كل منهم بازاء صفته. على أن الكتاب إنما يتناول موضوعات عامة وإن جاءت هذه الصفات التى أشرت إليها فى بعض الحديث للشاهد والدليل.

ويخص المؤلف مصر والشام بما يقصد من الحديث عن «أقوالنا وأفعالنا» وإن أوهم العنوان عموم البلاد العربية، أو لعله لم يقصد إلا الحديث عن سورية وإن لم يكد يغفل مرة واحدة عن ذكر مصر، حباً لها

وشعورا بما يربطه إليها من أواصر القربى ؛ بل إن حبه لمصر ليحمله أحياناً على الاسراف فى حسن الظن بها وبأهلها ، فلا يكاد يذكر من « أقوالها وأفعالها » فى معرض الموازنة إلا ماىراه حسناً يذكر وقدوة تحتذى . وما أريد أن تخدعنى مصريتى فأؤيده فى كل ما ورد من محاسن المصريين ؛ فلعله لو أنعم النظر فى مواطن كثيرة لحمد قومه !

على أنى الاحظ فى هذه المناسبة أن المؤلف بقدر ما أسرف فى لوم المشارقة لبعض مايراه منهم ، قد أسرف كذلك — فى مواطن عدة — فى الثناء على الغربيين واعتدهم المثل والقدوة ؛ حتى ليكاد يزعم أنهم أقرب من المسلمين إلى الاسلام ! ولست عند نفسى بالمنزلة التى تسمح لى أن أذكر للسيد الجليل مقالة ابن خلدون عن الغالب والمغلوب !

وقد أهدى الأستاذ محمد كرد على كتابه « لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول صاحب المملكة المصرية أيده الله » ، إذ كان المؤلف قد حظى فى السنة الفائتة بشرف المثول بين يدى جلالته ، « وكان من جملة ما تفضل وتحدث به أخلاق بعض المصطنعين من الرجال » .

والكتاب بضعة وثلاثون فصلا فى ثلاثين وأربعمائة صفحة ، تناول فيها كل ما يمكن أن يقال عن ذلك الشرق فى أيامه الحاضرة : ففيه الوصف ، والنقد ، والتاريخ ، والتعليق ، وفيه الأسباب والنتائج ، وفيه العلم والسياسة ، وفيه الأمانى والآلام ؛ وهو بكل ذلك صورة نفسية لهذا الشرق كما ترتسم فى مرآة شيخ من أهل العلم والتجربة عاين بنفسه ودرس واختبر ومثل بعض أدوار الرواية . . . فهو كتاب لليوم والغد ، ولعله — على مافيه — أحفل كتاب ظهر حتى اليوم فى تاريخ الشرق الاجتماعى .

مسند الامام أحمد أخرجه الشيخ أحمد محمد شاكر (دار المعارف ـ القاهرة)

روى أن الامام أحمد بن حنبل لما اجتمع له هذا المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لابنه عبد الله : « احتفظ بهذا المسند ، فانه سيكون للناس إماما » . وقد حقت كلمة أحمد بن حنبل هذه فصار مسنده إماما له خطره واعتباره . فلولا أن أحمد بن حنبل من أصحاب الرأى وله مذهب فى الشريعة ، ولولا ذيوع مذهبى أبى حنيفة والشافعى دون مذهب ابن حنبل ، لاشتهر مسنده فى الحديث فأخمل ذكر البخارى ومسلم وانفرد دون سائر كتب السنة .

وقد طبع مسند أحمد فى مصر لأول مرة منذ قرابة اربعين سنة ، طبعه السيد أحمد البابى الحلبى فى ست مجلدات كبار ، فيها نحو ثلاثة آلاف صفحة كبيرة ، بحروف صغيرة ، وكان قد طبع منه قبل ذلك جزء صغير فى الهند ، ثم لم يطبع بعد ، على شدة الحاجة إليه وكثرة طلابه .

وقد تهيأ للشيخ أحمد محمد شاكر منذ بضع وثلاثين سنة أن ينظر فى هذا المسند ، فحبب إليه أن يستوعبه درسا وقراءة ، فوجده كما يقول « بحراً لا ساحل له . . . تنقطع الأعناق دونه ، بأنه رتب على مسانيد الصحابة ، وجمعت فيه أحاديث كل صحابى متتالية دون ترتيب ، فلا يكاد يفيد منه إلا من حفظه ، كما كان القدماء يحفظون وهيهات . . . »

وخطر للشيخ منذ شبابه ذاك أن يمكف

عليه ، لا ليستظهره بل ليخرجه للناس مبوبا مرتبا ، محققا تحقيق أهل الحديث ، معرفا برواته تعريف أهل السند ، مفهرسا فهرسة كتب العلم ، إلى غير ذلك مما ييسر النفع به للخاصة والكافة ، ويجعله إماما كما أراده جامعه — عليه رضوان الله — أن يكون .

ووقف عليه الشيخ وقت فراغه منذ ذلك التاريخ البعيد ، حتى وفق لما أراد ، أو لكثير مما اراد ، فدفعه إلى دار المعارف لتعينه على طبعه ونشره . وهذا هو الجزء الأول منه .

خمسمائة صفحة وبضع وعشرون صفحة تضمنت سبعة وعشرين وخمسمائة حديث ، مبوبة مذكورة بسندها ورقمها ، مضبوطة بالشكل مقسمة تقسيما واضحا ييسرها لكل قارئ ، مذيلة بتحقيقات فى المسانيد وشروح فى متن اللغة ، إلى خمسين ومائة صفحة كالمقدمة لهذا الجزء ؛ فجملته تقرب من سبعمائة صفحة .

ولقد يحق لى فى هذه الصفحات المخصصة للتعريف بما ظهر حديثا من الكتب ، أن أعرض لهذا العمل الكبير بما هو أهله . أما متن الحديث وروايته ومسانيده فانى أدعها للمختصين من أهل هذا الفن ، لا أقحم نفسى عليهم فيما لا طاقة لى بالتعمق فيه ؛ وحسبى فى هذا الشأن أن أشير إلى مكانة الشيخ شاكر بين علماء الحديث وأصحاب الرأى . وأما الاخراج العلمى للكتاب فحسبى فى الاشارة إلى توفيق مخرجه أنه حبب إلى هذا النوع من القراءة ولم يكن لى على مثله صبر ولا إليه ابتهاج .

على ان هذه المقدمات التى صدر بها المسند ، والتى سماها . أو سماها له بعض أصحابه « طلائع الكتاب » جديرة بالتقدير حقا ؛ فلم يكتف مخرج الكتاب بما روى من قصته معه ، وطريقته فى العمل به ، بل اهتبلها فرصة لينشر كتبا أربعة ، أو خمسة ، تتصل بموضوع الكتاب وصاحبه ؛ فجعلها كالمقدمات للمسند نفسه ، هذه الكتب هى :

١ — « خصائص المسند » للحافظ أبى موسى المديني المتوفى سنة ٥٨١ هـ .

٢ — « المصعد الأحمد فى ختم مسند الامام أحمد » للحافظ شمس الدين الجزرى المتوفى سنة ٨٣٣ هـ .

٣ — « القول المسدد فى الذب عن المسند » للحافظ ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ .

٤ — « ذيل القول المسدد » للمحدث قاضى الملك محمد صبغة الله المدراسى من علماء الهند فى القرن الماضى .

وكان لا بد مع ذلك كله من التعريف بجامع هذا المسند الامام والترجمة له ، فكانت الفرصة لنشر الكتاب الخامس ، وهو ترجمة الامام أحمد مأخوذة بالنص من مخطوطة الحافظ الذهبى « تاريخ الاسلام » . وتقع هذه الترجمة وحدها فى بضع وسبعين صفحة ، وتطبع فى هذا الكتاب لأول مرة .

وقد اقتضاه طبع هذا الجزء من « تاريخ الاسلام » للذهبى أن ينشر إلى جانبه فصلا فى بضع صفحات لتعريف بهذا التاريخ ومؤلفه .

على انه لم يكتف فى الترجمة لأحمد بن حنبل بهذا الجزء الذى نشره من تاريخ الذهبى ، فذكر ثبتا حافلا بأسماء الكتب والموسوعات العربية التى يمكن الرجوع إليها للتزود بأكثر مما ذكر الذهبى من تاريخ صاحب المسند ، وعدتها تسعة عشر كتابا مذكورة بأرقام صفحاتها ، إلى ثبت آخر بالمراجع لترجمة عبد الله بن احمد ، والقطيعى ، اللذين رويا ذلك المسند .

فاذا فرغ من هذه التراجم عقد فصلا بعنوان « أصح الأسانيد » لبيان ما يعنيه أهل الحديث بهذه العبارة ، ثم أورد بعد ذلك ثبتا بالأسانيد الصحيحة وعدتها ستة وستون سندا .

وقد ألحق بهذا الجزء « جريدة المراجع » مرتبة على حروف المعجم فى بضع صفحات ، ثم فهرس للموضوعات العامة ، مرجئا سائر الفهارس اللفظية والعلمية إلى حين الفراغ من طبع المسند لينشرها مستوفاة فى خاتمتـه .

ذلك جهـد حقيق بأن يذكر فى تاريخ علم الحديث ، نسأل الله أن ينفع به .

محمد سعيد العريان

في مجلات الشرق

شكيب أرسلان

لا تزال مجلات الشرق تردد سيرة فقيد العروبة الكبير المرحوم شكيب أرسلان الذي غالته المنون في ٩ ديسمبر الماضي ولما يمض على مقامه في بلاده إلا شهراً وبعض شهر ، بعد سنين متطاولة قضاها في منفاه البعيد جزاء كفاحه المستمر لحرية العرب ومجد العروبة .

وقد نشرت مجلة « الأديب » البيروتية ، في عدد يناير فصلا ضافيا عن الأمير شكيب أرسلان بقلم أمين محمد أبو عز الدين تحدث فيه عن آل أرسلان منذ أوليتهم فوصل نسبهم بالنعمان بن المنذر اللخمي ، ثم تحدث عن أمرائهم في الاسلام منذ عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور حتى انتهى إلى الأمير شكيب، فذكر جهاده الوطني منذ كان حتى وافاه الأجل وقد تجاوز الثمانين ، ثم تحدث معجلا عن مكانته في الأدب ومنزلته بين أهل الفن وما ترك من الآثار الأدبية ، مطبوعة وغير مطبوعة ، وأشهرها : الحلل السندسية ، الابتسامات اللطاف ، غزوات العرب في أسبانيا ، حياة السيد رشيد رضا ، لماذا تأخر المسلمون . ومن آثاره المترجمة : آخر أيام بني سراج ، أناطول فرانس في مباذله ، حاضر العالم الاسلامي ؛ وله على هذا الكتاب الأخير تعليقات ضافية وفصول لها اعتبار كبير في ميزان أهل الأدب . وقد أحيا إلى ذلك طائفة من الآثار الأدبية القديمة ، مثل المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي ، الدرة اليتيمة لابن المقفع ؛ إلى رسائل ومخطوطات لا يكاد يبلغها الحصر .

عبيد !

وفي هذا العدد من مجلة « الأديب » ، مقال للدكتور نقولا فياض بهذا العنوان يقول فيه :

« منذ القدم . . . لم يكن الانسان في زمن من الأزمان أكثر عبودية مما هو الآن ! »

ويمضي الدكتور في تأييد دعواه هذه بما يورد من الأمثلة ، فيذكر الحرب الأخيرة وما جرته — وتجره — من ويلات ، فيراها مظهراً من مظاهر عبودية الطمع ، « فما دام الانسان معلقا بالرجاء يدفع به حيث يشاء وله في الحياة مآرب لابد منها وحاجات لاغنى عنها فمن المستحيل أن يكون حراً » .

ثم يتحدث عن مظهر آخر من مظاهر العبودية التي يرسف في أغلالها أهل هذا الزمان، فيذكر العلائق الاجتماعية بين الناس وماتتطلبه من المداهنة والرياء وإحراق البخور لكل ذي مال أو سلطان وحب التشبه والتقليد . ثم يذكر الحياة العائلية في المجتمع الحاضر ومايفرض من زيارات وأعياد وحفلات وولائم وغير ذلك مما لا يتحقق به للانسان معنى الحرية ثم يسترسل فيما يصف من حياة الأسر في هذه الأيام حتى ينتهي إلى أن يقول :

« أجل ! إن حكم التقاليد والعادات لاتقل

قيودا من حكم أتيلا وجنكيزخان ؛ لأنها تملك على الانسان تفكيره وتدبيره ولا تدع له مجالا للتبصر ولا فرصة للتروى ، فهو محكوم عليه أن يمشى بلا انقطاع كاليهودى التائه ، وكلما أراد الوقوف أهاب به صوت يقول له سر وإياك أن تقف ، اذهب من زيارة إلى زيارة ، ومن حفلة إلى حفلة ، ومن سهرة إلى سهرة إلى أن تموت . . . وهكذا ترى أن أهل اليسار » والبسطة فى العيش أكثر عبودية من سواهم ...

ليت شعرى ، أينكر الدكتور فياض هذه العبوديات أم ينكر هذه الحضارة وإنما هما أمران متلازمان لا سبيل إلى الفصل بينهما . ومن أين للانسان أن يكون حراً وهو الذى اصطنع هذه الحضارة بقيودها فراراً بنفسه من العبودية للطبيعة ، والطبيعة أقوى سلطاناً على الحى من المدنية بقيودها وعاداتها وما اصطنعت من التقاليد ورسوم الاجتماع !

إن إنسان الغابة ليس أكثر استمتاعا بالحرية من ابن المدينة ما دام فى نفسه الظمأ والجوع والخوف والرغبة ، فهو عبد لأن له رغائب ومخاوف وشهوات ، وهو عبد لأنه ليس أقوى ما فى الغابة من الكائنات ، وهو عبد لأن الطبيعة تمنحه ما تشاء لا ما يشاء ، وتفرض عليه أسلوب العيش الذى يستطيع لا أسلوب العيش الذى يرجوه ؛ وهو بكل ذلك عبدٌ وإن كان يملك الغدو والرواح حين يشاء الى حيث يشاء . ثم لم تكن الحضارة من بعد إلا محاولة إنسانية للتخلص من التعبد للطبيعة والخضوع لبعض ضروراتها ؛ فاذا كانت هذه الحضارة قد تعقدت من بعد حتى عادت لوناً من ألوان العبودية ، فذلك لأن الانسان — على الأرض — لا يمكن أن يملك الحرية المطلقة وهو إنسان ، فانما الحريه اعتبار لا حقيقة مادام الانسان جزءاً من كل وفرداً من جماعة .

إخوان الصفاء

ويحاول الأستاذ جبور عبدالنور أن يثبت صلة ما بين الصابئة الوثنية وبين إخوان الصفاء ، فينشر بحثاً ممتعاً فى ذلك العدد من مجلة « الأديب » عنوانه « معالم الوثنية فى رسائل إخوان الصفاء » ، فيتتبع تلك الرسائل تتبعاً علمياً دقيقاً فى أناة وصبر وملاحظة واعية منتهياً بالمقدمات إلى نتائجها المنطقية حتى يخلص إلى ما يريد ، فيزعم « أن إخوان الصفاء كانوا من الصابئة أو أى نوع آخر من عبدة الكواكب السيارة ، وأنهم لا يصرحون فى الرسائل العامة بما يضمرونه من عقيدة وثنية ، وإنما يشيرون إليه إشارات خفيفة لا يمكن تبينها إلا باعمال الروية والاستنتاج والمقابلة بين نص وآخر والموازنة بين فكرة وفكرة . »

ويسترسل فى افتراض هذا مستنداً إلى ما بين يديه من براهين ، ملاحظاً ما بين رسائل إخوان الصفاء ومباحث جابر بن حيان من تشابه واتفاق ، ثم يتتبع حياة جابر فى غموضها وما يكتنفها من الريب . فينتهى إلى افتراض آخر ، وهو أن جابر بن حيان هذا قد يكون شخصية خرافية أسطورية ، ثم يسائل عن الحلقة الجامعة الخفية التى تصل هذه الشخصية الأسطورية باخوان الصفاء الذين يتشابه وإياهم فكرة وأسلوبا وملامح وغاية وإضماراً للوثنية !

وكأنما أحس الباحث فى خاتمة القول بخطورة ما وصل إليه من النتائج ، فهو يتريث حذراً ليسأل : « أين إخوانه (إخوان

جابر) وإخوان الصفاء قرابة ؟ أيؤلفون جماعتين تدافعان عن فكرة واحدة ، وتسعيان لغاية واحدة فى زمانين متباعدين ؟ ما حقيقة جابر بن حيان ؟ ... كل هذه الأسئلة لا تمكن الاجابة عليها فى الوقت الحاضر بما يطمئن إليه التحقيق العلمى ، ولكننا نطرحها على بساط البحث آملين أن يتصدى لها من يجيب عليها إجابة مرضية . »

أنصار الأديب

هذا عدد من مجلة « الأديب » - ككل عدد من مجلة « الأديب » - غنى بما فيه من ألوان الأدب والفن والبحث العلمى الناضج ؛ فلو اتسع لى المجال لنوهت بكل مقالة فيه ، عرفانا بحقه ، ولا تزال لبنان وأدباء لبنان فى الصف الأول من قادة الفكر العربى وأساتذة فن الصحافة . وإنما أقولها اليوم ، وما قلتها من قبل ، لمناسبة كلمة قرأتها فى هذا العدد وقرأت مثلها فى العدد الذى سبقه ، عنوانها « فى سبيل رسالة الأديب » تتحدث فيها أسرة التحرير فى هذه المجلة التى أتمت خمس سنين من عمرها المديد — إن شاء الله — دائبة على نهجها الرفيع — عما تلقى من ضيق مادى يحملها على أن تتوجه إلى أنصارها بالرجاء أن يعينوها على أداء الرسالة التى تنهض بها منذ نشأتها . وفى سبيل التماس هذه المعونة من أنصارها جعلت الاشتراك فيها على نوعين : اشتراكا عاديا ، واشتراك الأنصار — أنصار الرسالة الواعية والفهم القومى — وجعلت اشتراك الأنصار — لمن يشاء منهم أن يؤازرها فيما هى بسبيله — ١٤ جنيها مصريا ؛ لتتمكن بما يجتمع لها من اشتراك الأنصار ، من متابعة سيرها فى أداء رسالتها .

يا لها معابة فى وجه قراء العربية فى مختلف أقطارها ، أن تكون مجلة مثل « الأديب » من أنفسهم بالمنزلة التى تحملها مكرهة على أن تتقدم إلى قرائها بمثل هذا الرجاء لتلتمس أسباب الاستمرار ! وكم مجلة فى العربية مثل الأديب ، على حين تعيش فى بحبوحة مئات من المجلات لا أسميها ولا أصفها !

ولكنى آمل أن يكون عند قراء العربية من الوعى ما يحملهم على أداء واجبهم لهذه المجلة التى تذكر فى طليعة المجلات العربية حين يبدو لنا أن نباهى بما بلغنا من المنزلة فى الصحافة الأدبية الراقية .

مكتبة الإسكوريال

فى عدد يناير من مجلة « المسرة » التى تصدر عن إدارة المرسلين البولسيين بلبنان مقال بعنوان « الاسكوريال فى أسبانيا » للفيكونت فيليب دى طرازى يتحدث فيه عن دير الاسكوريال ومكتبته وما تشتمل عليه من المخطوطات العربية التى آلت إلى أسبانيا من خزائن الأندلسيين والمغاربة ، وتبلغ عدة هذه المخطوطات نحو ألفى مجلد ، هى كل ما بقى بعد الحريق الذى شب فى الاسكوريال منذ ثلاثة قرون .

ولا شك أن أكثر هذه المخطوطات أو كثيراً منها معدوم النظير فى المكتبات

العربية ، فهي ولا شك ذات صلة بماضينا العلمي والفني ، تفرض علينا العناية بالاطلاع عليها ومعرفة محتوياتها والنظر في أوجه الاستفادة منها ؛ وحسبنا ما ضاع من تراثنا العلمي في عصور الجهل والانحطاط ، وما نكبتنا فيه الحروب والغارات في التاريخ القديم .

لست أعني أن نطمع في الحصول على ما تضم هذه المكتبة من نفائس المخطوطات العربية بغير حقه ، فاننا نملك وسائل أخرى للانتفاع بهذه المخطوطات في نهضتنا العلمية الحاضرة بايفاد بعثة من المتخصصين لاستنساخ هذه النفائس أو تصويرها ، واستنساخ مثلها في خزائن الفاتيكان وغيرها في عواصم أوربا ، حتى لا نظل جاهلين أبداً بتراثنا العلمي الذي تضمه تلك الخزائن البعيدة ونحن نزعم أننا قد بلغنا من الوعي العلمي المبلغ الذي يحملنا على المباهاة والفخر .

ويجرني هذا الحديث إلى حديث آخر يمت إليه بسبب ؛ فان بعض المخطوطات العربية التي لا تزال بين أيدينا لم تزل حتى تتسرب شيئاً بعد شيء ، إلى مكتبات الأوربيين الذين يتصيدونها من المكتبات العتيقة فينقلونها إلى بلادهم ونحن أولى بالاحتفاظ بها . فهلا شرعنا قانونا يمنع تسرب هذه الآثار العلمية إلى خارج البلاد على مثال القانون المفروض لحماية سائر الآثار ! وإلا فاذا يجدي علينا أن نطالب بما ليس في أيدينا والذي في أيدينا لا يكاد يبقى لنا !

وقد قيل إن اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية بسبيل عمل من هذا النوع فما أحراها أن تجد جدها لفرض مثل هذا القانون والعمل على أن تضم مكتبات الشرق كل تراث الشرق المبعثر في بلاد المتحضرين وغير المتحضرين على السواء !

سمر الليالي

وفي العدد نفسه من مجلة « المسرة » الحلقة الثانية من سلسلة قصصية ممتعة عنوانها « سمر الليالي في القلمون » للخوري نقولا دهبر ، يقص فيها قصة بدوية مما يجري على ألسنة السامرين ، فيها وصف حي لبعض عادات أهل البادية في أسلوب ممتع ، وحوادث مسلسلة فيها إمتاع ولذة وفيها علم ما لا نعلم من أخبار سكان الوبر .

العقل والله !

قرأت الأبيات الآتية للشاعر الصافي النجفي ، في مجلة « الاعتدال » التي تصدر في النجف ــ العراق :

إذا طغى العقل على ربه	فالعقل معناه هو الجهل
يعترض العقل على خالق	من بعض مصنوعاته العقل !
إن بان فضل العقل في صنعه	فصانع العقل له الفضل
عبدته لم أدر ما كنهه	والجزء هل يعرف ما الكل ؟
لم أدر إلا أنه خالقي	وأنني لشمسه ظل

وضعنا الاجتماعى

وتوجهت مجلة « المعرفة » التى تصدر فى دمشق إلى فريق من قرائها تسألهم : « ما هى الظاهرة الاجتماعية التى تعوق تقدمنا الاجتماعى » فأجاب الدكتور صبحى أبو غنيمة :

« أنا لا أعتقد أننا لم نتقدم اجتماعيا من حيث العلم . . . نحن ماشون فى قافلة البشرية . ولكننا نتقهقر أخلاقيا مع هذا العالم المتقهقر أخلاقيا ، ولعله — فى نظرى لم يمر على البشرية دور هوت فيه إلى الدرك الأخلاقى المنحط كهذا الدور ، ونحن مع الأسف نسير أيضا فى القافلة . . . فهى هى نفس الظاهرة التى تعوق تقدمنا الاجتماعى . وفى زمن ما كان الأنبياء يقيلون عثرة البشرية كلما تدنت ، وهم لن يعودوا ؛ ولكن أنبياء الفكر لن يفقدوا من البشر ! »

أما الأستاذ فؤاد الشايب فيقول إن الظاهرة التى تعوق التقدم الاجتماعى هى السياسة . « من حيث الاشتغال بها ، والاعتماد عليها ، والانصراف إليها ، والتسلق على جذوعها ، والامتصاص من جذورها ، والتطحلب على حفافيها ، والنشوة بما تهيئه من أسباب « الاستحمام فى الجماهير » والاسفاف إلى مستوى الغرائز . »

ويمضى فى تفصيل ما أجمله من أثر السياسة فى تعوق التقدم الاجتماعى وضرب الأمثلة وتفريق الفروع تدعيما لرأيه .

وأما الأستاذ روحى فيصل . فينسب ذلك إلى جهل المرأة وإغفالها :

« فما أشك أنا مطلقاً فى أن تحرر المرأة هو نقطة البداية فى موضوع التقدم والرقى والقوة . . . وإذن لو قدر للمرأة أن تتثقف الثقافة النسوية والأخلاقية والعلمية أيضاً ، ثم أن تدرك أنها فى عبودية فرضتها هى على نفسها ولا أقول فرضها الرجل عليها ، هنالك تستطيع أن تشرك نصفها الآخر فى شتى ميادين العمل وان تقوم بنصيبها من الخدمة العامة . . . »

ركود الشعر

ويتحدث الأستاذ حسنى فريز فى العدد ٣٤ من مجلة « الغد » بالقدس عن ركود الشعر بالقياس إلى ما كان عليه فى العصور الخوالى . حين كان الشاعر يفرض رأيه على الجماعة ، وحين كانت الجماعة تسمع لرأى الشاعر وتطيع ، فينسب من أسباب هذا الركود ما يرى من صور الحياة الجديدة التى من شأنها أن تصرف الناس عن الاستماع إلى شعرائهم ، ثم ينتهى إلى أن يقول:

« ليس الذنب ذنب النـاس ، إنه ذنب الشعراء الذين لا يعرفون ماذا يريدون أو ماذا تريد الأمة وماذا يتطلب العصر . إن ألف ديوان مزوق بالتصاوير العـارية كديوان « فلان » لا يستطيع أن يرفع من شأن الامة قيد أنملة ، بل هو إلى غير ذلك أميل ، بل هو إلى غير ذلك كان . . . . . .

« قلت إن الشعراء مقصرون ، وأقول كذلك إن الناس مقصرون ، لأنهم لا يريدون أن يفهموا الشاعر الذى يغنيهم من آلامه ويشجيهم من تاريخهم الحاضر والمستقبل وينساقون وراء الترهات والأضاليل . وهنا نصل إلى عقدة ، هى أيهما الذى يثقف الآخر ، أهو الشعب الجاهل المسكين ، أم الشاعر الذى يخترق حجب الماضى وظلال الحاضر ليشق لهم مجرا إلى المستقبل السعيد ؟ »

فى مجلات الغرب

من موسكو

« مجلة الأدب السوفيتى » . فى هذه المجلة دائما رغما عن عنوانها طائفة لا بأس بها من المقالات التى تهتم بالآداب الأجنبية ؛ ولنلاحظ أولا أن أكثر هذه المقالات يتجه إلى الأدب الانجليزى .

فى العدد الرابع والخامس من هذه المجلة (أبريل — مايو ١٩٤٦) مقال قيم ، أو قل إنه دراسة مفصلة لشكسبير ، بقلم إسكندر أنيكست (١) . قسم الكاتب مقاله إلى ثلاثة أقسام ، ويفسر فى مقدمة قصيرة غايته وكيف يريد أن يبلغها ، فقال : « إن آثار شكسبير جزء مقوم من أجزاء الثقافة الروسية منذ زمن بعيد . وقليل جدا مما كتب المؤلفون الروسيون لا يرد إلى شكسبير على وجه ما ... ولضيق المكان الذى لا يسمح أن أعرض بالتفصيل بحوث الروس عن مسرحيات شكسبير وتمثيلها ، يكفى أن أبين أثر هذا الشاعر المسرحى العظيم فى الحياة الثقافية الروسية . »

يعرض علينا ا. أنيكست فى القسم الأول من مقاله تاريخ ترجمة شكسبير فى روسيا أو ، بعبارة أصح ، تاريخ علم شكسبير فى روسيا . ويخبرنا بأن الشاعر العظيم وصل إلى الجمهور الروسى فى وسط القرن الثامن عشر حين مثلت مسرحية « هامليت » *Hamlet* فى مدينة بيترسبورج Saint-Pétersbourg سنة ١٧٥٠ . وقد ترجم هذه المسرحية الكاتب الكلاسيكى ا. سوماروكوف Soumarokov سنة ١٧٤٨ . يقول صاحب هذا المقال عن هذه الترجمة : « إنها غيرت المسرحية حتى لم يعرفها أحد ... وعرضت مكانها مسرحية تشبه « السيد » *Le Cid* لكورنى Corneille أكثر مما تشبه المسرحية الانجليزية . » ولم يعرف الجمهور الروسى شكسبير حقا إلا فى سنة ١٧٨٧ حين قدم إليه نيكولاى كارامزين Nicolay Karamzin (المؤرخ القصصى الشاعر) ترجمة قصة « يوليوس قيصر » منذ ذلك الوقت أخذ الأدباء ينقلون مسرحيات شكسبير ، وأصبحت ، بطبيعة الحال ، هذه الترجمات أصح وأدق حتى نصل إلى الوقت الحاضر حين نجد مدرسة جديدة فى فن الترجمة . « وبينما كان المذهب القديم يجهل نظام الوزن والانسجام فى شعر شكسبير ، حقق المترجمون السوفيتيون هذا النظام فى شعر روسى معادل لشعر شكسبير فى النسق والعدد والوزن . »

وخصص القسم الثانى من هذا المقال لتمثيل مسرحيات شكسبير فى روسيا . ويلاحظ الكاتب أن المذاهب الأدبية الروسية قد وضعت طابعها على طرائق تمثيل شكسبير كما طبعت ترجمته . فكان هذا التمثيل « كلاسيكيا » ، ثم كان « رومانتيكيا » إلى أن كانت الموقعة ذات يوم من القرن التاسع عشر بين المذهبين الكلاسيكى والرومانتيكى حين مثلت مسرحية « هامليت » فى موسكو وفى مدينة بيترسبورج فى وقت واحد .

---

(١) *Shakespeare in Russia*, by Alexander Anikst.

وبقى الجمهور منقسما حتى ظهر فى أواخر القرن التاسع عشر مذهب جديد فى فن التمثيل، وهو مذهب الوقعيين الذى لا يزال منفوقا فى روسيا إلى الآن.

أما القسم الثالث فيدرس فيه ا. أنيكست كتب نقد شكسبير التى نشرت فى روسيا. ويقول فى أول هذا القسم لأخير من مقاله إن إحصاء ما كتب الروسيون فى نقد شكسبير يحتاج إلى كتاب كامل؛ فيعرض لنا الكاتب آراء أهم النقاد فى تاريخ الأدب الروسى. ولنقف عند رأى بوشكين Pushkin الشاعر الروسى العظيم فى القرن التاسع عشر: «إنى لواثق بأن الواقعية الشعبية فى مسرحيات شكسبير توافق موافقة شاملة مسرحنا.» وكانت واقعية شكسبير تعجب الشاعر الروسى الذى شبهها بالمذهب الكلاسيكى عند موليير Molière. والظاهر أنه كان يفضل طريقة الشاعر الانجليزى، على الأقل فى هذه الأسطر: «إن الأشخاص التى خلقها شكسبير ليست كرموز موليير التى تمثل بعض الشهوات والعيوب، بل هى مخلوقات حية. قد فعمتها شهوات مختلفة متباينة، وهى تكشف نواحيها المتنوعة للنظارة أثناء التمثيل.»

وقد أصبح أدب شكسبير موضوعا للدرس فى الجامعات الروسية فى أوائل القرن التاسع عشر. وكلنا يعرف ما يراه جوته Gœthe من ضعف شخصية هامليت وضآلتها. وقد عارض الناقد الروسى بلنسكى Belinsky هذا الرأى قائلا: «إن هامليت رجل قوى بطبعه». وقد ثارت خصومة أخرى بين النقاد الروسيين والألمانيين فى نفس هذا القرن حين عارض الناقد الروسى تشرنيشفسكى Chernychevsky وهو مشايع لمبادئ فلسفة الفن المادية، مبادئ فلسفة الفن المعنوية التى كان الألمانيون يكلفون بها. وعارض تشرنيشفسكى على الخصوص النظرية التى تبين أن أشخاص المأساة يحدون عقوبتهم فيما يرتكبون من جرائم، فثبت أن هذا قد يصح غالباً لا دائماً؛ واستشهد بشخصية دسديمونا Desdemona فى قصة «عطيل»؛ فهى لم ترتكب جريمة ولم يكن موتها عدلا، وإنما هى بريئة السيرة والضمير. وناقش تشرنيشفسكى هيجل Hegel وفيشر Fisher أكبر أنصار هذا الرأى. وتابع الناقد ستوروجنكو Storozhenko (١٨٣٦ – ١٩٠٦) تشرنيشفسكى فى آرائه الفنية فى كتبه. وكان عنوان كتابه الأول «سباق شكسبير» وكان كتابه الثانى عن حياة روبرت جرين Robert Green أحد سباق شكسبير. وكان بحث الأستاذ نيكولاى ستوروجنكو أول رسالة عن هذا الكاتب، فترجمت إلى الانجليزية، وانتخبت «جمعية شكسبير الجديدة» صاحبها نائباً لرئيسها.

وفى آخر هذا المقال يعرض لنا ا. أنيكست بحوث النقاد الروسيين التى ظهرت بعد ثورة أكتوبر. وقد اتجه النقاد، بطبيعة الحال، اتجاهات اخرى فى نقد آثار هذا الشاعر العظيم. فهناك تصدر كتب يحاول فيها أصحابها أن يطبقوا طرق التحليل الاجتماعى على آثار شكسبير. فبعضهم يرى أن قصص شكسبير تدافع عن حياة الأشراف، وبعضهم يرى أنها تمثل ثقافة الطبقة الوسطى فى عصر النهضة. وهذا الرأى الأخير هو الذى انتصر الآن على غيره فى روسيا السوفيتية. ونقول أخيراً مع صاحب هذا البحث الدقيق إن: «جهود النقد الروسى القديم والحديث فى دراسة شكسبير خليقة أن تعرف وتذاع.»

من باريس

على أننا حين ننتقل من موسكو إلى باريس لا نفارق شكسبير ؛ فكلنا يعرف أن ترجمة جديدة لقصة « هامليت » مثلت (وما زالت تمثل فيما أظن) فى العاصمة الفرنسية . وصاحب هذه الترجمة الجديدة هو أندريه جيد André Gide . وقد نهض بدور أمير الدانمارك الممثل المعروف جان ـ لويس بارو Jean-Louis Barrault . وقد اثار تمثيلها على النحو الجديد مقالات كثيرة فى جميع صحف باريس اليومية ومجلاتها الادبية . نقرأ فى « مجلة الانسان والعالم » La Revue Hommes et Mondes . فى أول شهرية المسرح ، رأى الفيلسوف المعروف جبريل مارسيل Gabriel Marcel فى تقديم شكسبير على مسرح ماريني Marigny . ونلاحظ فى أول المقال أن جبريل مارسيل لا يقول شيئا عن الترجمة نفسها . لماذا ؟ نلاحظ أيضا أنه يمدح ج . ل . بارو لا لأنه مثل تمثيلا حسنا فقط ، بل لأنه لم يخطيء (فى ظنه) الخطأ الذى أخذ عليه ، أى : أولا أن الجلال ينقصه ، ويرى ج . مارسيل أن هذا الدور لا يحتاج إلى جلال . وثانيا أن ج . ل . بارو عرض على النظارة شخصية فرنسية لهامليت لا الشخصية الدانماركية التى تعلمت فى ڤيتنبرج Wittenberg فقد كان الممثل فى ظن بعض النقاد يحتاج أن « يتألمن » شيئا ويظهر عليه أثر العلم بما بعد الطبيعة . فيقول ج . ل . مارسيل : « إن هامليت الذى نراه قد يكون فرنسياً ، وقد يكون فى بعض الاحيان من فتيان فلورانس . فهل يجب أن نأسف لهذا ؟ كلا ، فيما أرى . لقد قلت فى غير هذا الفصل إن هذه القصة تلقى ضوءا ساطعا على شكسبير تلميذ مونتيني Montaigne » ويلقى هنا ج . مارسيل النقاد الروسيين السوڤيتيين الذين يرون أن شكسبير كان يمثل ثقافة الطبقة الوسطى فى عصر النهضة .

أما فى مجلة « لانيف » *La Nef* فقد حظيت قصة « هامليت » بمقال أو بجزء من مقال أطول قليلا مما كتبه ج . مارسيل . ونلاحظ أولا أن ج . ج . رينييرى J. J. Rinieri (صاحب هذا المقال عن المسرح فى باريس) خصص للترجمة نفسها أول نقده . فقال فى عمل جيد : « إن ترجمة « أنتوان وكليوباترا » أظهرت لنا مهارة أ . جيد الفائقة فى الترجمة ، ولكن هذه المهارة تحس أكثر مما ينبغى ؛ لأن قصة شكسبير من الثروة والسعة بحيث يجد أ . جيد فيها بعض الحرج لطبيعته التى تميل إلى التحفظ والقصد . أما قصة « هامليت » فهى على عكس ذلك ملائمة لمزاجه الخاص . فالمهارة هنا إيجاز والتكلف يتحول إلى إبتكار مستمر ، والروعة والفكاهة معا منقولتان على أكمل وجه . فلم يضح المترجم بشىء من أشد دقائق النص عسرا . فتكاد الترجمة لذلك أن تكون إنشاء . وإذا طلب النظارة رؤية المنشئ فى الليلة الأولى من ليالى التمثيل فقد كان هذا تسجيلا لنجاح باهر نادر . »

أما التمثيل نفسه فيقول فيه ج . ج . رينييرى : « من أجل أن تحتفظ القصة بروعتها كلها يجب أن تظهر صورة هامليت فى أنق رائع بطبعه ... ولكن التمثيل الجديد ينقصه بعض العظمة : كأن المسرح ليس على قدر القصة ، فهو يظهر خاليا حينا ومزدحما حينا آخر . ونحن نرى ج . ل . بارو وحده مالكا أمره . » ويختم الكاتب عرضه هذا بنقد حاد للملابس والمناظر ، فيقول إنها كانت « فى غاية القصور . »

في نفس هـذه المجلة تحت عنوان « ملاعب باريس » ، مقـال قصير عن المحـاضرات . لا يعرض فيه صاحبه إلا المحاضرات التي ألقاها السفراء أو ألقيت في الأونسكو U.N.E.S.C.O. ويلخص الكاتب ما قال جان-بول سارتر Jean-Paul Sartre في محاضرة عنوانها « مسئولية الكاتب » . وقد بين المحاضر أولا إلى من يوجه الكاتب حديثه . وقد رأى أن المستمعين لهذا الحديث إنما هم أصحاب الارادة الحسنة من أهل الطبقة الوسطى ، ثم أخذ في تحليله الوجودي يشرح للمحاضرين غاية الكاتب حين يكتب وهي الحرية للجميع . والوسائل إلى هـذه الغاية مهمة لأن احتقـار القيم الخلقيـة يضيع الغـاية . وختم ج . ب . سـارتر محاضرته قائـلا : « إذا وقعت الحرب فـلا ينبغي أن يقال : إنهم شهدوا تقدم دنو أعظم كارثة تصيب الانسان وسكتوا . » واستطاع الجمهور في باريس أن يسمع لكاتب آخر من أعظم كتاب فرنسا وهو أندريه مالرو André Malraux وقد سأل المحاضر نفسه عن الانسان أحي هو أم ميت ؟ ولخص ج. ل. دوما جواب أ. مالرو على هـذا السؤال في هذه الأسطر الأخيرة من مقاله : « في اعتقاد أ. مالرو أننا لسنا في أرض الموت ولا أمام حظ موروث ، وإنما نحن أمام نظام من الارادة . ويمجد أ. مالرو الجهاد ، وإن كازيائسا أو مجدبا ،ضد القضاء ، فيعلن أن من الممكن تحقيق ثقافة إنسانية ، وأن الانسانية الجزعة وحدها هي التي تشعر بالتبعات . »

من لندن

يظهر أن الموت أصبح موضوعا محببا إلى كل من يريد أن يصور ويعد موضوعا للرقص في عصرنا هذا . أهي الحرب التي سببت هذا ؟ من يدري !

شهد بعضنا في باريس في الصيف الماضي مرقص « الفتى والموت » للشـاعر الفرنسي الكبير جان كوكتو Jean Cocteau وها نحن أولاء نقرأ في مجلة « الحياة والأدب » *Life and Letters* عدد ديسمبر ١٩٤٦ موضوع لتمثيلية راقصة ذات ثلاثة فصول عنوانها : « فرحة الموت » (١) لفريد مارنو Fred Marnau ويقـول المؤلف في بدء تفسيره للفصل الأول : « إن غاية هذا المرقص تحريرنا من خوف الموت » . وفي الحق ان في هذه الفصول الثلاثة شعورا فنيا وذوقا رفيعا في ترتيب موقف الأشخاص ومظـاهرهم ولا سيما إذا أضفت إلى ذلك عمق المعنى .

واقرأ في نفس هذا العدد مقالا عن المصور الأسباني جويا Goya وعنوان هذا المقال : « عود إلى زيارة جويا » يريد فيه صاحبه دونالد ج . ماكري Donald G. Macrae أن يسجل منكرا إحدى الوظائف لنوع من أنواع الفن وهي تصوير الاعتقاد أن في الحرب عنفا ماديا وهولا وتدميرا ، ثم تصوير مايكون لهـذا كله من رد الفعل في نفس الانسـان . وينظر الكاتب هنا إلى رسوم جويا التي سماها « كوارث الحرب » (٢) وحسبي أن أنقل هذه الأسطر : « إن سلسلة الرسوم المسماة

(١) *The Merriment of Death.*

(٢) *Los desastros de la guerra.*

فى غير تصنع « كوارث الحرب » تجمع البراعة ودقة الحس وشدة العنف فتؤثر فى أنفسنا المنقبضة مباشرة . »

« مجلة السلافية وأوربا الشرقية »(١)

وهى تتخصص بشعوب أوربا الشرقية وتاريخها وانتشارها الاقتصادى ودراسة لغاتها وآدابها . فاقرأ فيها (عدد نوفمبر ١٩٤٦) بحثا جيدا للأستاذ أ. مازون André Mazon باللغة الفرنسية . عنوانه : « القصص الحربية فى الأدب الروسى فى القرن الخامس عشر . » (٢)

وهى دراسة دقيقة بارعة ينقل أ. مازون فى أول مقاله الدعاء الذى يفتتح إحدى هذه القصص ، قصة « حياة إسكندر نيفسكى » والقراء يعرفون بالطبع أن السينما السوفيتية أخرجت من هذه القصة الممتعة فيلما يكاد يعتبر من أجمل الأفلام التى ظهرت فى هذا النوع من القصص التاريخية . ونلاحظ أن هذا الدعاء يجمع بين قوة الوطنية وروعة الفن . وهذه ترجمته : « أيتها الأرض المشرقة المنيرة المسلحة فى روعة بكل فنون الزينة ، أى أرض روسيا ! »

والغرض من هذا المقال أن يبين أن القصص الحربية التى يعرضها لنا الكاتب هى لون أدبى يخبرنا عن تكون الشعور الوطنى « الذى هو قوة الشعب الروسى اليوم ، كما كان قوته منذ خمسة قرون . »

واقرأ فى هذا العدد أيضا بيانا قيما مفصلا للكاتب نفسه عن الدراسات السلافية فى فرنسا (٣) .

أمينة طه حسين

---

(١) *The Slavonic and East European Review.*

(٢) *Les récits de guerre dans la littérature russe du XVe siècle.*

(٣) *Slavonic Studies in France*, by André Mazon.

مطبعة الكاتب المصري شركة مساهمة مصرية